ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Prof. Dr. Emad Jabbar Kadhem

Wasit University - College of Education for Human Sciences

Email: imadjabbar@uowasit.edu.iq

Keywords:

pragmatic, language, sign, use, human

Article info

Article history:

Received 15.Oct.2022

Accepted 17.Dev.2022

Published 1.Feb.2023

pragmatic - the basket of apples…?!. From the jurisprudence of linguistics to the jurisprudence of the humanities Initial reading of the concept

A B S T R A C T

When the scientific description is reflected in the language, as an entity, it carves itself into a formation of privacy, which takes its cognitive dimension in order and customization, so it forms layers of itself; Awareness of itself, and then exit from it to another, it has no appearance after unseen and a means other than it.

And the language once again distinguished itself in the way of its system after emptying it of understanding and jurisprudence, to the way of its production-using, to return to it after formation at another time, not in a way of separation, but in a way of connection, whose origins document its chapters, and it is manifested by a complementary interaction between the components, to testify in turn that Studying it in systematic thought, there is nothing but a message in it, and that it is the one that leads to that and nothing else. As for the language itself, it refuses to be a language without discrimination.

And pragmatic, that object that is formed in the most severe and complex forms, has formed itself inside the language at one time, and outside it at another, to become a formation that exceeds itself a limit, to what it reveals, and it is the human being - the great sign in: speech - utterance, from the verbal act to the human interpretation, and from it In the language to the same jurisprudence.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol50.Iss1.3417

التَّداوليَّة ـ سَلَّةُ التُّفاح...؟!.
من فِقه اللِّسانيَّات إلى فِقه الإنسانيَّات
قراءة أوَّليَّة في المفهوم

أ.د. عِماد جبّار كاظم داود
جامعة واسط ـ كُلّيَّة التَّربية للعلوم الإنسانيَّة

المُلخَّص:

حينَ انعكس التَّوصيفُ العلميُّ على اللُّغة، بوصفها كياناً، نَحَتْ بنفسِها إلى تكوين خصوصيَّةٍ، تأخذُ بُعْدَها المعرفيّ في النِّظام والتَّخصيص، فشكَّلت من نفسِها طبقات؛ إدراك ذاتها، ثُمَّ الخروج منها إلى أخرى، ليس لها من ظهور بعدَ غيبٍ وسيلةٌ سواها.

ولقد انمازت اللُّغةُ مرةً أُخرى على نحو نظامِها بَعدَ إفراغهِ فهماً وفقاهةً، إلى نحو إنتاجها . استعمالها، لتعود إليه بعد التَّكوين تارةً أُخرى، لا على نحو اِنفصالٍ، بل على نحو اتِّصالٍ، تواثقُ أصوله فصوله، ويتجلَّى بتفاعل تكامليّ بين المكوِّنات، لتشهدَ بدورها على أنَّ دراستها في الفكر الممنهج، رسالة فيها ليس إلَّا، وأنَّها هي التي تفضي إلى ذلك ليس غير، أمَّا اللُّغةُ نفسها، فتأْبى إلَّا أن تكون لغةً بلا تمييز.

والتَّداوليَّة، ذلك الكائن المُشكِل أشدّ الإشكال وأعقده، قد شكَّلتْ نفسَها داخل اللُّغة مرةً، وخارجها في أُخرى، لتُصبح تشكيلاً يتجاوزُ ذاتَه حدّاً، إلى ما يكشف عنه، وهو الإنسانُ . العلامة الكبرى في: الكلام . التَّلفُّظ، من الفعل القوليّ إلى التَّأويل الإنسانيّ، ومنه في اللُّغة إلى نفسه فِقهاً...

[الكلمات المفتاحية: التَّداوليَّة، اللُّغة، العلامة، الاستعمال، الإنسان]

المُقدِّمة

الحمدُ لله الذي خلقَ العالمَ بحكمةِ النِّظام، وخصَّ الإنسانَ بميزة النُّطق واستعمال الكلام، والصَّلاة والسلام على سيِّد الأنام محمد وآله الطَّاهرين الكِرام.

وبعدُ،...

إذا كان علم اللُّغة/اللِّسانيّات يتحدَّد بطرائقه المنهجيَّة على مستويات، وإذا كان كلّ مستوًى منها لا يتطرّق إليه الإشكال نقداً، أو اعتراضاً بعد التَّكوين والهيئات والدَّلالات، فإنَّ مفهومَ التَّداوليَّة ـ التَّداوليّات يبدو إشكاليَّة تستعصي على الضَّبط والقيد في دال واحد، يشرع لنفسه مدخلاً؛ وذلك لمجالاتها المتعدِّدة، المختلفة من جانب، وعدم خضوعها للتَّوصيف المعياريّ الذي تحوز عليه مستويات النّظم اللُّغويَّة من جانب آخر، إذ لا يوجد مجالٌ في مفهوم، أو حدٌّ في تعريف يعكف على تكوينه التَّفكيرُ التَّداوليّ، إلَّا وكان النَّقد، أو الاعتراض مصاحباً له، أو مقروناً به؛ حتَّى أنَّ القارئ لشؤونها ومفاهيمها، في أحيان، يُصَابُ بدهشةٍ تسوقه إلى حَيرةٍ في أمرٍ، رُبَّما لا ترضاه التَّداوليَّة لنفسها حين السّؤال: ما، وأينَ التَّداوليَّة؟!.

ونحن بين هذا وذاك نقف، وبحسب توصيفات الدَّرسين: اللِّسانيّ والتَّداوليّ، على عتبةٍ مؤسِّسةٍ لأوليَّةِ نشأةٍ تقدِّمُها، ابتداءً، ثنائيّةُ "سوسور": "اللُّغة، والكلام"، مع نقد "جومسكي" في: "الكفاءة والأداء"، من جانبٍ، وعلى عتبةٍ أُخرى، ولكنَّها ثلاثيَّة التَّكوين من "موريس": التَّركيب، والدَّلالة، والتَّداوليَّة، مقابلة لها من جانبٍ آخر، مع الاعتراف أنَّ كِلا الجانبين يعالج

مبدأً من معنى، وتعييناً من قصدٍ، ولكنَّ الأوَّلَ: عام في تجريد لغويّ نظريّ في التَّفسير. والثاني: خاصّ في تشخيص استعماليّ قوليّ سياقيّ فعليّ في التَّأويل. ناهيك بما يؤمن به كلٌّ منهما أيضاً؛ إذ إنَّ الأوَّل يؤمن بضرورة وجود الاستعمال . التَّنفيذ اللُّغويّ؛ لسبب يجري على ما عُقِدَت ونُظِمَت عليه ولأجله اللُّغات من وظائف. والثاني يؤمن بضرورة القياس؛ بياناً له، ولقيم ما يجريه من العدول عنه، وما المفارقة بينهما إلَّا في النَّظر فلسفةً، مرةً على وضع قواعد تنحو نحو القياس، ومرةً أخرى على تأويلات لا تنتهي بطابع دون آخر؛ ولهذا صار الأخير برنامجاً ذا طابع فعليّ تعدِّدي انفتاحيّ، والأوَّل بقيد من تجريد فكريّ، نظريّ انغلاقي، على الرّغم من أنَّ المركز في كلٍّ منهما هو اللُّغة وما لها من إمكاناتٍ متعدِّدة قراءةً، سواء أكانت داخليَّة نظميَّة تركيبيَّة، أم خارجيَّة إنتاجيَّة تأويليَّة.

لقد سَلسلتني مدوَّنةُ التَّفكير اللِّسانيّ اختبرُ نصوصَها، وأنَّى لي ببياض يسير جداً إحصاؤها!، حين السّؤال عن التَّداوليَّة، مفهوماً، وأينَ يمكن أن يكون موضوعاً؟، فوجدتُه تارةً في حدّ من اليُسر والسُّهولة ما يُكوَّن بالاستعمال شأنه ويقوم عليه أوده، وفي أُخرى عبارة عن قيامةِ كلِّ شيءٍ يدخل في فعليّات السّلوك اللُّغوي . التَّواصليّ، بل خصوصيّات الإنسان على نحو العموم، لغةً، وفعلاً، وفِكراً، وعملاً، وسلوكاً، ومعرفةً، وثقافة... وأنا بين هذا وذاك، أفكّرُ بنفسي، وأينَ يمكن أن أكون، فهل أنا في هذه السُّهولة، أو أنا في غاية التَّعقيد؟!. فمن أنا؟!.

إنَّ هذه الأوراق اليسيرة ليست هي اجتراراً لما سبق أن سِيق، بل هي محاولة يسيرة جداً لطرح رؤية في هذا المفهوم الذي لمَّا يزل يتعكَّز على اللُّغة في إظهار ذاتها الفعليَّة، في محوريَّة مثَّلت مركزيَّة كلّ شيءٍ في هذا العالم. ومن أجل فتح أبوابها ونوافذها، نصبتُ منهجي على ثلاثة ألواحٍ ودُسُرٍ تجري إلى خاتمة، كان اللَّوح الأوَّل منها بِسمَة: الاتّساع المعرفيّ سمةٌ التَّوصيف التَّداوليّ، وفي التَّداوليَّة: من تنوُّع المرجعيَّات إلى إطلاق المفاهيم. واللَّوح الثاني، بعنوان: الخروج من مأزق الاختلاف في التَّوصيف الحدِّيّ، ومن المفهوم إلى الإجراء – تفسير مهمّات، وعقد آمال على رهانات ومسؤوليّات. واللَّوح الثَّالث بتوصيف: من التَّداوليَّة إلى الإنسانيَّة، في زئبقيَّة العلامة/المعنى، بين الإنتاج اللُّغويّ، والتَّأويل القصديّ. وأمَّا الخاتمة، فكانت موضعاً للنتائج على بداهة من منهجيَّات نظر، أو رؤية في بحث.

وبعدُ أقول قد يجدُ القارئ الكريم، في اللَّوح الأوَّل ما كأنَّ كتابتَه تقوم على خواطرَ، حين أخذَ بيَ السؤالُ عن التَّداوليَّة إلى أبعادٍ بمسافاتٍ مختلفة، أبحثُ فيها، وعنها في كلّ فكرةٍ من منطق، أو طيفٍ من خيال، فبدا اللَّوح كأنَّه يتكئُ على أسلوبيَّة من سَردٍ تجري في حوار من قصةٍ أو رواية، وهو الأمر الذي يُخيَّل إلى القارئ بأنَّه ضرْبٌ من انشائيّات، أو فنون من ظنون ومختلجات، قد تخرج البحث عن سياقه واعتياد إجرائه، فتجانبه منهجاً. بيد أنَّه شأن مُعتمدٌ لغرضٍ، ومتَّخذٌ لهدف، لعلَّ القارئ يقفُ عليه بالتَّأويل بعد التَّأمُّل في التَّفصيل.

ورجائي أن أكون قد وُفِّقتُ، فإنْ لم أكن، فهو إخفاقٌ في تداوليَّةٍ ما، مِن طرْح مقصودٍ لم يُفهَم، ومن شؤون ما تعمل عليه، أعني: التَّداوليَّة، بعد تنظيمه وبيانه، معرفةً وتأويلاً.

وآخرُ دعونا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين.

[ملحوظة: أودّ أن ألفت نظر القارئ الكريم، إلى ما أودعته في هامش البحث من النُّصوص والتَّوضيح، أو التَّعليق التي لم يكن لها حظّ من مكان في المتن. وهذا، وإن كان من فاضل القول، إلَّا أنَّي وجدتُ التَّنبيه عليه ضرورة؛ لأنَّ بعض القُراء، أحياناً، يركّز على المتن، ويتناسى ما وضع في الهامش من أمور، قد يظنّ أنَّها ليست بذي بالٍ، على الرَّغم من أنَّها قد تتساوى ومركزيّة الفكرة التي يحتويها المتن، بل لعلَّها من التَّوضيح ما توازيه وزيادة، ولا سيّما إذا كانت الهوامش في نهاية البحث بعيدة عن النَّظر والمراجعة إلا بعد جهدٍ، ولكن إدارة ليستْ منّي إلَّا أن أنصاع إليها رغبةً في تنفيذ النشر والإرسال].

اللَّوح الأول

الاتّساع المعرفيّ سمةٌ التَّوصيف التَّداوليّ

التَّداوليَّة: من تنوُّع المرجعيَّات إلى إطلاق المفاهيم:

تقتضي السّنن المعرفيَّة في نظريَّة ما، استقرارَ مفاهيمها الإبستمولوجيَّة وتثبيت مصطلحاتها ودوالها المعرِّفة، بعدَ تخطيط من منهجيَّات، وسيرورات مِن رُؤى وافتراضاتٍ، في مباحث لموضوعات ومسائل، ثُمَّ تلقٍّ معرفيّ وبناء، ثُمَّ نقد وإجراءات في ضوءِ مقاييس تَحْسِبُ للبرهان قيمه، وللدليل اعتباراته، وللاستدلال نتائجه، إلا مفهوم "التَّداوليَّات"، أو ["..."] "pragmatics"[١]. فدوائرها المعرفيَّة، وشبكاتها الأبستيميَّة، بأنواعها المختلفة الذَّاتيَّة والخارجيَّة، يكتنفها الغموض والتَّعارض، ويشتمل عليها التَّشتت والتَّضارب، فضلاً عن التَّعقيدات؛ لكثرة الروافد التي تستقي منها، وتنبي عليها أُسسها ومناهجها، حتَّى لتبدو عبارة عن انفتاحٍ لجدليَّات من مفارقات وموافقات، وطروحات من ثوابت ومتغيّرات، وانتماءات، أو مقاربات ومباعدات، ومناهج واتّجاهات، لا تنفكُّ عن النَّظر المستمر، ولا من النَّقد المتواصل؛ لتصبح، من بعدُ، إشكاليَّةً كبرى قد يستعصي مفهومها على توصيف الضَّبط والتَّقييد، ويتأبَّى موضوعها على التَّسوير والتَّحديد في منهج موحَّد.

تقول "فرانسواز أرمينكو": "التَّداوليَّة! درس جديد وغزير، إلا أنَّه لا يمتلك حدوداً واضحة... تقع التَّداوليَّة كأكثر الدروس حيويَّة، في مفترق طرق الأبحاث الفلسفيَّة واللِّسانيَّة، إلا أنَّها غير مألوفة حالياً،..."[٢]. ثُمّ تُثْبِت بعدَ بيان ما تعقد عليها من آمال، فضلاً عمّا أبدته من قلق معرفيّ وتشتت؛ لتوصيف كونها دروساً متعدِّدة، وأبحاثاً منفتحة غير متجانسة، فهي ليست تداوليَّة واحدة، على حدّ وصفها، بل هي "تداوليَّات" متعدِّدة. تقول: "إنَّ كلّ مَن يلقي نظرة خاطفة على الحالة المنهجيَّة لهذا الدّرس، يدرك شرعيَّة القلق في كلّ ذلك. فبادئ ذي بدء، هل علينا أن نقول بالتَّداوليَّة، أو بالتَّداوليّات؟ هل علينا أن نقول عنها درساً، أو أنَّها صراع دروس مختلفة؟ فالتَّداوليَّة كبحث في قمة ازدهاره، لم يتحدّد بعدُ في الحقيقة. ولم يتم، بعدُ، الاتفاقُ بين الباحثين، فيما يخصّ تحديد افتراضاتها أو اصطلاحاتها"[٣].

على أنَّ مستوى الإثارة والانبهار فيها يتكرَّس، بمقابلةٍ ما، أكثرَ عندما تراها مفترقاً لاختصاصات متنوِّعة، وعوالم معرفيَّة مختلفة، قد تستعصي على الجمع في دالّ اصطلاحيّ، فتقول: "تكاد نرى جيداً، على العكس من ذلك، إلى أيّ حدّ تكون التَّداوليَّة مفترق طرق غنيّة لتداخل – اختصاصات اللّسانيّين، المناطقة، السّيميائيين، الفلاسفة، السّيكولوجيين، والسوسيولوجيين. فنظام التَّقاطعات هو نظام للالتقاءات وللافتراقات"[٤].

وكأنّي بها تشير إلى معنى: كيف يمكن أن نحدّد مفهوم التَّداوليَّة، وهي تحتكم في تفاصيلها، وإدارة شؤونها إلى هذه الحقول المعرفيَّة المتنوِّعة، ذات المناهج المختلفة، والموضوعات المتعدِّدة، أو الأبحاث غير المنسجمة، فضلاً عن انفتاحها؟، أينَ يمكن أن نجدها فيها؟، ما الذي تهتمّ به فيكون محطّ عنايتها الكبرى دون سواه من المجالات البحثيَّة المتشابكة؟، وما موضوعها وما مجالها؟ أ هي علم مختصّ بحقل معرفيّ ما؟ ألها علاقة باللُّغة؟ وما سمات هذه علاقة وخصائصها على افتراض وجودها؟.

ولعلَّ انعدام الألفة الاصطلاحيَّة هذه لا يختلف مفهوماً، عمَّا صوَّره "جاك موشلر" حين عبَّرَ عنه بمحاورة، ولعلَّها افتراضيَّة، في صمتٍ دالّ، موضِّحاً فيه حيرةَ زملائهِ اللِّسانيّين ودهشتهم في وسم التَّداوليَّة، والسُّؤال عن أيّ ميدانٍ تشتغل فيه، وتتجلَّى به، بعد تحديدهِ، موضوعاً ودرساً؟، يقول "موشلر": "حين نخبر زملاءنا اللِّسانيين بأنَّنا "تداوليُّون" فعادة ما نثير لديهم صمتاً دالّاً! فبأيّ شيءٍ يمكن للتداوليّ إذن أن يُعْنَى؟ أَ هُو لسانيّ، أم فيلسوف، أم عالم نفس؟..."[٥].

ولا ريبَ في أنَّ منشأ هذا الاستغراب والدَّهشة من اللِّسانيين لم يكن بلا سببٍ، فالبحث عن موضوع ما ابتداءً، هو الذي تتعيّن فيه مبادئ الاشتغال رؤيةً ومنهجاً انتهاءً، وهو منتهى نظر اللِّسانيين ورسوم القواعد التَجريديَّة، ولهذا علَّل

"موشلر" الأمر بسببين، حدَّد فيهما منزعَ الاختلاف الكائن بين النِّظام اللِّسانيّ الذي تُعنى به المباحث اللِّسانيَّة، ولسانيَّات استعمال هذا النِّظام التي تعيَّنت فيه كلّ معرِّفات التَّداوليَّة ومفاهيمها النَّظريَّة الإجرائيَّة عموماً. وهذان السّببان هما[٦]:

١. عناية اللِّسانيَّات: التَّوليديَّة والبنيويَّة منها، بدراسة نظام اللُّغة ومستوياتها: الصَّوتيَّة والصَّرفيَّة والنَّحويَّة والدَّلاليَّة، مع إهمالٍ لاستعمال النِّظام اللُّغويّ.

٢. عجز اللِّسانيّين عن تحديد ميدان التَّداوليَّة في مقابل فروع اللِّسانيّات الأُخَر المحدَّدة معرفيّاً وعمليّاً: فالصَّوتميَّة تدرس النِّظام الصَّوتميّ للألسنة والقواعد الصَّوتميَّة المتحكِّمة في التَّوليف بين الصَّواتم، ويدرس التَّركيب نظام القواعد الكامن في النَّحو الذي يُعرَّف على أنَّه مجموع شروط تحدّد نحويَّة الجمل في لسان ما، وأخيراً تُعْنَى الدَّلالة ببنية المعجم وبالمبادئ، أو القواعد المتحكِّمة في إسناد دلالة إلى جملة ما، انطلاقاً من دلالة الكلمات المكوِّنة لها.

ولقد يبدو لي من قراءة "فيليب بلانشيه" لمفهوم التَّداوليَّة وغموضها، وهو يرسم "حقل السِّياقات وتلقيها"، إدراكاً لاستغراب اللِّسانيين ذلك من جهة، وتفسيراً له في الوقت نفسه من جهة أخرى، وذلك حين كشف عن كونها حقلاً معرفيّاً جامعاً لهوامش كثيرة لا تختصّ بجانب دون آخر. يقول: "إنَّ الحقل الذي فتحه هذا الاختصاص العلميّ المُسمَّى تداوليةً، ضخم. وتُلْقِي عموماً كياناً غامضاً، أو قل جراباً جديداً توضع فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات المؤسسيَّة، وهي اللِّسانيات، وعلم اجتماع، والإنثربولوجيا، وعلم النَّفس الاجتماعيّ، والدَّلائليَّة، إلخ... نحو المشاكل التي أثارتها هذه الاختصاصات، ولم تتوصّل إلى معالجتها بشكل مرضٍ"[٧]؛ وهو لهذا لم يبدِ غرابةً من عدم إدراكها في وحدة ذات مناهج وأهداف؛ لأنَّها، في تصوّره، ليست تداوليَّة بالإفراد، بل هي "تداوليّات" بالجمع، كما في مقاربة "أرمينكو"، وهو ما اعتمده تفضيلاً وتوصيفاً، يقول: "فلا غرابة ألَّا ندرك، كما ينبغي، وحدة التَّداوليَّة ولا مناهجها ولا أهدافها... إنَّهم يضعون تيارات علميَّة قوية موضع تساؤل، حتَّى في أُسسها النَّظريَّة والمنهجيَّة، وحتَّى [كذا] في تحديد وضعيتها الاختصاصيَّة. بل إنّنا نتساءل عن وجود **تداوليَّة** بصيغة المفرد، إذ نفضّل اعتبارها "**تداوليّات**" (des pragmatiques)"[٨]؛ والسّبب، في تصوره، لأنَّها تتموقع في الحقل الفلسفيّ أكثر مما سواه، وهذا بلا ريبَ حقل فسيح متعدِّدة المجالات عادةً[٩].

ولعلَّه يذهب، أعني: "بلانشيه". إلى أبعد من ذلك حين ينتهي إلى نتيجة خطيرة مفادها عدم الاعتداد بـ"التَّداوليَّة" علماً مختصّاً بالمعنى المتعارف عليه للفظ الاختصاص، وذلك بسبب اشتغالها بـ"الواقع الفعّال"، أو النَّشاط التَّفاعليّ، الذي يقع في صلب التَّداوليَّة، ويندرج بدوره بضمن علوم الإنسان "sciences de I,homme" الذي يعرف التَّداوليَّة، بوصفها: تحليلاً للوقائع الملاحظة، في ضوء من مبادئ التَّواصليَّة وسياقاتها المتعدِّدة، جامعاً هوامش الاختصاصات المتعدّدة، ولكنَّه لا يقتصر عليها[١٠].

وعلى هذا التَّوجيه يجرى أيضاً "فان دايك"، ولكنَّ إقراره بتوصيفها العلميّ الذي تختصّ به، وهو بنحو عام: تحليل الأفعال الكلاميَّة ومجالات الحوار، ووظائف المنطوقات اللُّغويَّة وسماتها في عمليَّات الاتصال والتَّفاعل، وإن كان به مخالفاً لـ"بلانشيه" حين وضعها، أعني: فان دايك" في "المجال الأمبيريقي" إلا أنَّه لم ينفِ تداخلها في الاختصاصات المختلفة، بل طالما أكّد توثيقه؛ منتهياً إلى أنَّ ما استندت إليه التَّداوليَّة من أصول معرفيَّة متنوِّعة مختلفة، وما مهّد منها لظهورها وعمل على تشكيل مبادئها، كان سبباً رئيساً للخلاف في قراءة مهامها وأهدافها؛ ولهذا عمل على تجريد بعض مُثُلها النَّظميَّة وتضيق مجالاتها المتعدِّدة. يقول: "مهام التَّداوليَّة وإسهامها في النَّظريَّة اللِّسانيَّة لا تزال محلّ خلاف على الإطلاق... النَّظريَّة التَّداوليَّة تكاد تستلهم وجودها من المنطق، إذ تستنبط أساساً من فلسفة اللُّغة، ونظرية أفعال الكلام بوجه خاصّ، وكذلك من ضروب تحليل الحوار، ومن الاختلافات الثَّقافيَّة في كلّ تفاعل كلاميّ كما هو ملاحظ في العلوم الاجتماعيَّة،..."[١١].

لقد أفضت أصول التَّداخل المعرفيّ ومستوياتها المختلفة في الأبحاث والنَّظريات التَّداوليَّة إلى سعة دائرة المقاربات في المجال التَّداوليّ، حتَّى أضحت زيادتها تؤثِّر سلباً على اتفاق علمائها، إذ كلّما زادت العلوم المعرفيَّة المتنوِّعة والاختصاصات المختلفة التي تتداخل معها زاد ذلك من عدم إجماع علمائها على تعيين مجالاتها وموضوعاتها، وهو واقع لم تَقُل قوائمُه فحسب، بل ولَّد قوائمَ متعدِّدة من المعرِّفات والمفاهيم انتهجها كلّ مَن سلك سُبُلها، وعقد لنفسه فيها اشتغالاً بنظرٍ. يقول "إنس أدرنتي": "أصبحت التَّداوليَّة – منذ ظهورها فرعاً من علوم اللُّغة – موضع عدد كبير من الخلافات حول طبيعة موضوع درسها، وحول تعيين هذا الموضوع وتحديده، فبينما يتفق علم الدَّلالة والتَّركيب – على الأقلّ على مستوى عام – حول ما يجب أن يكون مجالاً لدرسه، ليس هناك إجماع عام بين علماء التَّداوليَّة على ما يشكِّل مجال دراسة هذا العلم، إنَّ غياب مثل هذا الإجماع يمْثُل – على سبيل المثال – في تعريفات مختلفة للتداوليَّة يمكن أن توجد لدى المؤلِّفين الذين يتعاملون معها"[١٢].

ولقد تأخذ بنا مسالك الكشف والنَّظر إلى التَّمسُّك بأملٍ، حين نقرأ ما وضعته المعجمات و"القواميس" الخاصَّة من جداولَ رصدت فيها من التَّداوليَّةَ معرِّفاً لدالّ ينحو بها من إطلاقها المفهوميّ إلى تقييدها الحدّيّ، فمثلاً نجد "يان هوانغ" "Yan Huang" يحدُّدها باصطلاح يتقوّم بعْدُهُ الإبستيمي بثلاث ركائز، تُؤسِّس للحدّ مداخل وقيماً كُلِّيَّة، وهي: المعنى، والتَّنظيم له، والوسائط الاعتماديَّة في ذلك، وهي مبادئ الاستعمال اللُّغويّ، قائلاً: "هي الدِّراسة المُنظَّمة للمعنى الذي يَعتمِدُ على استعمال اللُّغة"[١٣].

بيد أنَّه حين يأتي إلى قراءة موضوعها، نجده يطلقه في جملة من محاور بحثيَّة تتحدَّد مفاهيمها في ضوء أهدافها الإجرائيَّة والتَّطبيقيَّة، تلك التي تعمل على رصد مقاصد الإنسان التَّخاطبيَّة، فضلاً عن تقسيماتها وتنوّعاتها ومفارقاتها ومقابلاتها التي لا ينتهي بها الحدّ دالاً. يقول "يان هوانغ": "موضوعاتُ البحث المركزيَّة في الفعليّات تشملُ مقاصدَ المتكلِّم التَّواصليَّة، واستعمال اللُّغة الذي يتطلَّبُ مثلَ هذه المقاصد، وسياق الاستعمال، والعلاقةَ بين مُستعمِلِ الصِّيغة اللُّغويَّة وعَمَليَّة استعمالِ الصِّيغة، وكذلك الاستراتيجيّاتِ التي يستخدمُها المُخاطَبُ ليَعرِف تماماً ماهيةَ المقاصد والأفعال... أمَّا في ما يخصُّ مداها وحيِّزها فيمكنُ تقسيم الفعليّات على الفعليّات الصُّغرى والكبرى micro-and macropragmatics. وأحياناً تُسمَّى الفعليّات اللُّغويَّة pargmatics linguistics. وكثيراً ما تتمُّ مقابلتها بالدَّلاليّات semantics ضِمنَ اللِّسانيَّات"[١٤].

أقول: ولَئِن كان بالإمكان رصد موضوعها العام في القيم التَّخاطبيَّة وأنساقها القصديَّة في الدائرة التَّواصليَّة التي تتخذ من استعمال اللُّغة وسياقاتها ملاحظَ لها في: المتكلِّم والمخاطب، وتوزيع الأدوار، تبقى دعوة أنَّ سماتها ومجالاتها المتعدِّدة هي التي تنحو بها إلى شيء من الإلباس والعموم والغموض، فضلاً عن المقابلات التي تُمثِّل نظرات دراسيَّة، ناهيك بقول "يان هوانغ" نفسه، واضع هذا المعجم: "معجم أوكسفورد للتداوليَّة": "ليس بمقدور أيّ شخص أن يكون متخصِّصاً بالفعليَّات كلِّها"[١٥].

وهو الأمر الذي يشي بأنَّ سعةَ ما في الحقول المعرفيَّة التي أخذت التَّداوليَّات بجذبها إلى ساحةٍ، تجعل منها أفقاً تتطلع فيه؛ آملةً، تفسيرَ ما عليه مقاصد الإنسان وما تَؤُل إليه حينَ يتكلِّم، ويستمع، حين يريد ويرفض، حين يبلِّغ، حين يقصد ويعني ويُؤوِّل، واللُّغة مستعملة كاشفة عن كلّ ذلك في إطار من تفاعل مخصوص بقولٍ إنسانيّ.

وقد يكون هذا الاتّساع المعرفيّ، الذي تحتكم إليه شؤون التَّداوليَّة وأصولها، هو الذي دعا "دومينيك مانغونو" إلى القول: "التَّداوليَّة اصطلاح مدعاة دائماً للالتباس، فهو مستعمل في الوقت نفسه للإحالة على مجال لسانيّ، ورؤية خاصة للغة"[١٦]، معلِّلاً تصديره باستباق تصوّراته؛ يقول: "تسري التَّداوليَّة في العلوم الإنسانيَّة كافة، إنَّ التَّداوليَّة ليست بنظريَّة خاصَّة بقدر ما هي تشابك للعديد من التّيارات التي تشترك في عدد من أمهات الأفكار، وبخاصة: سيميائيّات بيرس...

نظريَّة أفعال الكلام... دراسة الاستنباطات التي يقوم بها المشاركون في التَّفاعل... الأبحاث حول التَّلفظ اللُّغويّ... الأبحاث حول المحاجّة. دراسة التَّفاعل اللُّغويّ. بعض نظريّات التَّبليغ/الاتّصال..."[١٧].

ولا ريبَ في أنَّ هذا الكم الإبستيمي الكبير، والاتّجاهات المختلفة في دراسة التَّواصل الإنسانيّ، يجعل من مفهوم التَّداوليَّة فضاءً رحباً لا يتحدّد في نظريَّة، أو مجال معرفيّ واحد، بل لعلَّه يدعو إلى إنكارها أيضاً، ولهذا كان "جوليان لوجني"، يصدر مفهوم التَّداوليَّة، بالقول: "يشير هذا المصطلح إلى مجموعة من البحوث التي تندرج بشكل واسع في برادايم(*) قابليَّة التَّواصل،..."[١٨]. نافياً أن تكون التَّداوليَّة "مجالاً نظريّاً متجانساً، على الرّغم من أنَّ بعض الباحثين حاولوا أن يقدّموا لها قراءة متماسكة عن طريق صياغة برنامج لتوحيدها"[١٩].

وعلى الرّغم من ذلك قدَّم، أقصد: "جوليان"، تحت مفهوم التَّداوليَّة جملة من المصطلحات، منها: "التَّداوليَّة الفلسفيَّة"، و"التَّداوليَّة اللِّسانيَّة"، و"تداوليَّة اللُّغة"، متّخذاً من مصطلح "التَّداوليّ" ما يصف مجالاً للدراسة، دون تحديد موضوع مسبق، لينتهي إلى أنَّ "المجال التَّداوليّ، الذي يُعدّ بتنوّعه، توليفاً شاملاً واسع النّطاق"، – ما عليه التَّوافق وقراءة بعدها التَّاريخيّ المؤسّس[٢٠] – يمكن أن يتشكَّل من خلال تمييز إسهامات أربع نظريّات مستقِلة تاريخيّاً، ولكنَّها متقاربة في نهاية المطاف، وهي: الفلسفة العامّة، والمنطقانيَّة، واللِّسانيّات العامة، والذّرائعيَّة[٢١].

على أنَّ هذا التَّقارب في تصوُّر "جوليان" لا يعني عدم وجود تباعد وفوارق، كما لا يعني عدم التَّداخل بينها أيضاً، لتبقى فاعليَّة "الحقل التَّداوليّ" الذي يوحّد مفاهيم إبستموليجيَّات، ومنهجيّات مختلفة، غير متجانسة مع بعضها، متأصّلة في ذلك التَّكيف الذي يراعي الطَّيف النَّظريّ في التَّوجُّه التَّداوليّ الذي يتأرجح بين: حصريَّة اللُّغة المحكيَّة في: وصف الوظائف التي تضطلع بها اللُّغات الخاصة، وحصرية اللُّغة غير المحكيَّة في: فحص النّظم الثقافيَّة وارتباطاتها بالمجالات المختلفة المقنّنة للسلوك الإنسانيّ[٢٢].

ولم يكن إطلاق مفهوم التَّداوليَّة ليختلف أيضاً في مقولات "باتريك شارودو"، فهي عنده مفهوم عام تتشكّل قِيَمه المعرفيَّة بعدم الاستقرار الشّديد، "فهي تسمح في نفس الوقت بتعيين فن فرعيّ من اللِّسانيات، ونزعة ما في دراسة الخطاب، أو بصفة أوسع تصوّر ما للغة"[٢٣].

إنَّ صفة السِّماح الذي تتمتّع به التَّداوليَّة في نظر "شارودو" لم تقتصر على كونها فرعاً من فروع اللِّسانيّات أو تحليل الخطاب والحوار فحسب، بل تجاوزتها إلى ما يتّسم وصفة الاتساع في النَّظر اللُّغويّ، وهو تصوّر لا يجعل من الدَّائرة اللُّغويَّة منطلقاً إلى قواعد استعمالها فحسب، بل إلى مكوّنات النَّشاط التَّواصليّ عموماً، وهو تصوُّر لم يجرِ، فيما أظنُّ، على نظر في ضوء تعريفٍ حدّي، بقدر ما هو نظر في المجالات التي مضت عليها أبجديات البرامج التَّداوليَّة وأبحاثها، مؤسّسة بها ذاتاً تتمظهر في مناهج متنوّعة واتّجاهات مختلفة، وهو الأمر الذي رُبَّما يضيع فيه هويتها الحدّيَّة، وما ينبغي فيها من أطر تقييديَّة.

ملامح من التَّلقِّي العربيّ لمفهوم التَّداوليَّة:

ولم يكن المتلقِّي العربيّ(*) بمنأى عن هذه الإشكاليَّات وتحديد مفهوم التَّداوليَّة وما فيه من الحيرة والضَّبابيَّة ومناشئها أيضاً؟. إذ نجد الدّارسين العرب – على الرّغم ممّا قُدِّمَ فيها من مثاقفات نظريَّة أو تطبيقيَّة، اعتمدت مرجعياتها الأصوليَّة إن ترجمةً أو قراءة اجتراح – يتساءلون عن أيّ الثَّوابت، أو المعايير التي ينبغي أن تُعتمد لتحديد مفهوم التَّداوليَّة الاصطلاحيّ، مع محاولات لإجابات تفضي إلى تعينها المعرفيّ، وهو الأمر الذي يجلي نوعاً من اضطراب؛ وذلك لنفي وحدتها، وضعف القدرة على الإمساك بكلّ تفاصيلها. يقول مسعود صحراوي: "قبل وضع تعريف للتداوليَّة أو تحديد مفهومها،... من الواجب التَّساؤل عن المعيار الذي يكون أساساً في تحديد مفهوم التَّداوليَّة. فعلى أيّ معيار نحدّد هذا

المفهوم؟ هل نحدِّده بناء على معيار البنية اللُّغويَّة وحدها؟ إنَّ هذا الصَّنيع يجعلها مساوية للسانيَّات البنيويَّة، فلا يكون هناك أيّ فرق بينهما، وليس هذا ما تقوله البحوث التَّداوليَّة!. هل نحدِّده على معيار الاستعمال اللُّغوي وحده؟ إنَّ تحديده على هذا الضَّابط فيه إقرار بأن لا صلة تُذكر بينه وبين البنية اللُّغويَّة، وهو ما يخالف أيضاً النتائج التي انتهت إليها آخر الأبحاث التَّداوليَّة. هل نحدّده بناءً على تعالق البنية اللُّغويَّة بمجال استعمالها؟ إنَّ هذا الصَّنيع يبدو مبرّراً ولكنَّه – إذا ذُكِرَ من دون تفصيل – قد يغفل الصّلات الرابطة بين العلوم المختلفة والمتكاملة مفاهيميّاً، خاصَّة مجالات: الفلسفة والتَّداوليَّات اللُّغويَّة وعلم النَّفس المعرفيّ وعلوم الاتِّصال"(٢٤).

ولم تكتف تلك النَّظرات على حدّ من التَّساؤلات فحسب، بل اِنسَاقَ البحث في محاولة تعيين مفهومها عند الدَّراسين إلى طرائق أُخر أخذتْ رسومُها بمبدأ المخالفة عن مستويات اللُّغة وأشكال المعرفة، تلك التي تنسجم معها مشاريع التَّداوليَّة وأبحاثها في ضوء من قانون المضايفة والاشتغال، وقوانين التَّفاعل والأخذ، أو الاشتراك والالتقاء، حتَّى صار نفيها عن الانتماء إلى أيّ حقل من حقول المعرفة، أو إخراجها منها، إدراكاً لها ومعرفةً بها، اعتماداً على سلوكها، ليس النَّظريّ، بل الإجرائيّ، ثُمَّ مقاربة توصيفها بالجدّة والابتكار في الاستعمال اللُّغويّ والتَّفسير التَّواصليّ، على الرغم من أنَّ هذه المقاربات المفاهيميَّة بالنَّفي قد تصل إلى حدّ رُبَّما يُشَمُّ منه إمحاء لمعالمها ومفهومها، بل لعلَّ القارئ يظنّ فيها انعدامها أيضاً، حين يسأل مستفهماً، بعد قراءتها وتصوّراتها: أين التَّداولية بعد هذا النَّفي إذن؟!. يقول محمود أحمد نحلة: "لا تنتمي التَّداوليَّة إلى أيّ من مستويات الدَّرس اللُّغويّ صوتيّاً كان أم صرفيّاً أم نحويّاً أم دلاليّاً؛ لذلك فالأخطاء التَّداوليَّة لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجيَّة أو النَّحويَّة أو الدَّلاليَّة، وهي ليست مستوى يُضاف إلى هذه المستويات؛ لأنَّ كلّاً منها يختصّ بجانب محدّد ومتماسك من جوانب اللُّغة، وله أنماطه التَّجريديَّة ووحداته التَّحليليَّة، ولا كذلك التَّداوليَّة، فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدَّد من جوانب اللُّغة، بل من الممكن أن تستوعبها جميعاً، وليس لها أنماط تجريديَّة ولا وحدات تحليل، وهي كذلك لا تنضوي تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللُّغة بالرّغم من أنَّها تتداخل معها في بعض جوانب الدَّرس"(٢٥).

على أنَّ هذا الاحتراز الموضوعيّ لمنهج، أو النَّفي المعرفيّ والتَّجريد بنظر وقياس، لم يكن الطَّريق المُثلى التي تفضي إلى تعريفها أو حدِّها بنحو من المخالفة والاستقلال أيضاً، فتحوّلت القراءة من رؤية مخالفتها إلى النَّظرة في انتمائها، وباتت مقاربة اشتراكها وعلاقاتها بالمنظومة المعرفيَّة وموازنتها بها قراءة أخرى إلى إدراك كنهها وتفسيرها(*)؛ ومن هنا صار "الحديث عن "التَّداوليَّة"، وعن "شبكتها المفاهيميَّة" يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة؛ لأنَّها تشي بانتمائها إلى حقول مفاهيميَّة تضمّ مستويات مُتداخلةٍ، كالبنية اللُّغويَّة، وقواعد التَّخاطب، والاستدلالات التَّداوليَّة، والعمليَّات الذِّهنيَّة المتحكِّمة في الإنتاج والفَهْم اللُّغويّين، وعلاقة البنية اللُّغويَّة بظروف الاستعمال..."(٢٦).

ولهذا يقول صحراوي: "إنَّ التَّداوليَّة تُمثِّل حلقة وصل هامَّة بين حقول معرفيَّة عديدة، منها: الفلسفة التَّحليليَّة، ممثَّلة في الفلسفة العادية، ومنها علم النَّفس المعرفيّ ممثَّلاً في "نظريَّة الملاءمة"." (٢٧). وهي رؤية شموليَّة لم تكن التَّداوليَّة فيها لتقتصر منسوبة لجانب من هذه الجوانب المعرفيَّة دون آخر، ولهذا لم تكن، والقول لصحراوي: "علماً لغويّاً محضاً، بالمعنى التَّقليدي، علماً يكتفي بوصف وتفسير البنى اللُّغويَّة ويتوقَّف عند حدودها وأشكالها الظَّاهرة، ولكنَّها علم جديد للتواصل يدرس الظَّواهر اللُّغويَّة في مجال الاستعمال؛ ويدمج، من ثَمَّ، مشاريع معرفيَّة متعدِّدة في دراسة ظاهرة "**التَّواصل اللُّغويّ وتفسيره**"."(٢٨).

ولقد كان المُتوقَّعُ من هذا الإدراك وقراءات صلتها وعلاقاتها، أو مخالفتها ومغايرتها لحقول المعرفة أن يُخرجها من دائرة الإبهام المطلق، أو الحيرة والضَّبابيَّة والإشكاليَّة المفهوميَّة؛ ذلك لأنَّ ما اشتركت به مع حقول المعرفة الأُخَر مثلاً، كـ(علم الدَّلالة semantics، وعلم اللُّغة الاجتماعيّ sociolinguistics، وعلم اللُّغة النَّفسيّ psycholinguistics،

وتحليل الخطاب discourse)[٢٩]، وسواها من المعارف الأُخَر، لم يشفع لتحديدها وتمييزها، بل زادَ مِن هوة مفهومها إلى نحو الغموض والاتّساع الذي يرفض التّقييد غايةً، ناهيك بما سببه من حرج معرفيّ، سما به قولٌ؛ إعلاناً عن حقيقةٍ قد تأخذ بالنَّظريَّة إلى بُعْدٍ آخر: "كان من نتيجة هذا التَّداخل، واتّساع مجالات التَّداوليَّة وتنوُّعها أن أصبح من العسير وضع تعريف لها جامع مانع،..."[٣٠]. وهو الأمر الذي جعل من التَّعريفات والحدود المصطلحيَّة التي قُدِّمَت فيها ولها، على كثرتها المتكاثرة، محطّ اضطراب وتناقض، لم يسلم أحدها من النَّقد[٣١]، والاعتراض، أو وصفه بالنَّقص والإشكال، حتَّى البدائل[٣٢] المعطاة.

سؤال التَّداوليَّة تارةً أُخرى... جدل قراءات، ونتائج تأويلات:

هل يكتفي توصيفها على ذلك الشَّأن الذي تقدَّم من قراءاتٍ تنحو بها نحو الاستقلاليَّة، أو نحو الانتمائيَّة... بحثاً عن هُويَّة، أو انتزاعها من هويات؟. لقد تجاوزت التَّداوليَّة خطَّ التَّمرُّد إلى قولٍ بوسمٍ، لستُ أدري هل شهِد تاريخ التَّقنين الحدِّيّ، أو تعقيل الدَّوال وسماً مثلَه، وَسْماً فيه من القدح والتَّهوين والإساءة وعدم الاكتراث، ما ليس في اتجاه تحليليّ، أو معرفيّ آخر، حين وصل الأمر فيها إلى توصيف أنَّها "صُندق قُمَامة"[٣٣]، أو "سلَّة مُهْمَلات اللِّسانيَّات"[٣٤]، أو "سلة مُهْمَلات علم الدَّلالة"[٣٥]، أو "سلَّة مُهْمَلات التَّداوليَّة"[٣٦]، ناهيك بالتَّحذير منها: "احذروا من زج الفتات الذي تجدونه في سلَّة المُهمَلات التَّداوليَّة في نظريّتكم النَّحويَّة – الدَّلاليَّة المفضَّلة..."[٣٧].

وهل كان ما قُدِّم إلى هذا التَّوصيف من اعترافات وقراءات اعتذاريَّة، أو تحسين لصورته الإجرائيَّة، بمفهوم "نزل إسبانيّ"[٣٨]، أو "غرفة مُهمَلات"[٣٩]، أو "أداة لتبسيط اللِّسانيّات"[٤٠]، أو بمقابلة بينه وبين مستوى من المستويات اللِّسانيَّة، – إخراجاً لها ممّا تُصُوِّرت فيه، أو بقيت في دائرة وصفه المشروخ: تتكفل التَّداوليَّة بالمهام المستهجنة التي ما تأنف الأخت الكبرى/اللِّسانيّات من معالجتها[٤١].

من هنا تبدأ الإشكاليَّات حين توجَّهت أنظارٌ شطرَ هذا التَّقاطع المشوب بالذَّاتيَّة والتَّصارع، في ما الذي تركته اللِّسانيّات مثلاً، كي تعالجه التَّداوليَّة ويكون من مهامّها ووظائفها؟. وما الذي كان في بحوث التَّداوليَّة متقدِّماً، ولم يكن في الإجراءات اللِّسانيّات وكان عزيزاً عليها بلوغه؟. لماذا تأبى الأخيرة ما يكون من وظائف الأولى ونشاطاتها؟. ولماذا تتعالى أصوات الأطراف، حتَّى تكون التَّداوليَّة على مستوى من التَّنزيل وتوصيف أنَّها "قاعدة اللِّسانيات"[٤٢]، أو مركزها تارةً، وفي مستوى هامشها، أو دوائرها الخارجيَّة تارةً أُخرى[٤٣]؟. ولماذا تتداخل مرةً مع اللِّسانيّات فتكون جزءاً أو فرعاً منها، وفي أحيان تنفي علاقة بها أبداً[٤٤]؟. لماذا كان للسانيّات وجود وخصوصيَّة امتياز: مستويات، ومعالم، ومناهج، ومقاييس، ثُمَّ توصيف وأنظمة؟. وهل مازالت التَّداوليَّة تبحث عن نفسها فيها كي تكون لها نداً، أو هي كذلك بالفعل؟. وهل لها نظامٌ تشتغل فيه، فتكون علماً، أو هي طرافة دخيل[٤٥]؟. ألها جهازٌ مناعيّ يدافع عنها حين يدخل فيها ما ليس منها، أم تكون لها فاعليَّة امتصاص له، فيكون الداخل فيها كأنَّه جزء منها كـ"الإسفنج"، أم العكس؟. ولماذا هذه المقاربات والموازنات بين التَّداوليَّة والدَّلاليَّة مرةً، أو بينها وبين اللِّسانيّات تكاملاً مرةً أخرى؟.

ولماذا هذه الخلفيَّات المعرفيَّة التي تقوم عليها التَّصوُّرات التَّداوليَّة على نحو انتماء وتداخل تفضي إلى أن تكون التَّداوليَّة سلطة عليها، وكأنَّ اللِّسانيَّات ليس لها منها شيء؟. أهي درس شموليّ تشي بافتقادها نهاية موضوعاتها واتجاهاتها حين تُتُصوَّر بأنَّها لا تقف عند حدّ؟. وإذا كانت لها بدايات، فلماذا لا تُفصح عن نفسها فيها موضوعاً ونظماً ومقاييس تجريداً؟. وإذا كانت لها نهايات، فأيّ شيء يمكن أن تتمثَّل به من دون اختلاط؟، وما مجاله، أو مداه؟. ولماذا هذه التَّساؤلات وإشكاليَّاتها التي تخلّفُها التَّداوليَّة دائماً؟. هل هي سرّ، مكنون لا يظهر،... لا يرغبُ في شيءٍ إلَّا بالصَّمتِ لغةً!.

أقول: أيمكن المضي من هذه الكُلّيّات الاستفهاميَّة التي أثارتها وتثيرها التَّداوليَّة دائماً، إلى إجاباتٍ خالية من النَّقد المُوجَّه أيضاً، أو هي في سيرورة فكريَّة لا تنتهي من الدَّوائر التَّداوليَّة أنفسها، ولا ترضى عن النَّقد والاعتراض بديلاً؟. أيمكن أن يكتفي منطق الاستفهام فيها بحدّ من التَّصوُّرات المتقدِّمة، أم يصل منه إلى حلقات ومدارك فلسفيَّة مختلفة أُخر، لا تقف عند تسوير التأمُّلات دون السِّياحة في أُخَريات؟.

لستُ أدري، ما الذي يمكن أن تنتهي بي هذه السُّطور وما فيها من فرض أو افتراض، وبأيّ لغة من "أينَ"، أو "ما"، أو "كيفَ"، و"لِمَ"؛ إنّي لم أفكِّر، بَعدُ، بوضع نتائجَ سابقةٍ؟، وأنَّى يكون ذلك قبْلاً، حتَّى أَريتُنِي، في بعض الأحيان، أكتبُ بأسلوبيَّة تتكئُ موضوعاتُها السَّرديَّةُ إلى أدبيَّةِ خواطرَ من خطاب الخيال والتَّصوير، بمنطق الدَّليل والتَّفكير، قد تبعدُنِي عن منهجيَّة بحثٍ أكاديميّ وسَمَ نفسَه بالعلميَّة(*) طابعاً، على الرّغم من أنَّه محاولاتُ وصفٍ إنسانيّ، فضلاً عن بعض حالاتِ التَّعب والحيرة والارتباك، بل القلق والشَّكّ أحياناً،... ولكنْ في مَحبَّة البحث فعليّاتٌ من صبر، وجماليّات من اندهاش، بَلَه الشَّغف معرفةً، لِمَا يتملَّكُني منها من سؤال!.

ولستُ أدري، أهذا فعلٌ من أفعال التَّداوليَّةِ، أم عدوى منها لا تستجيب إلى شفاءٍ، بالرّغم من أصناف الدّواء؟. أهي لعنةٌ ليس لسحرها تميمةٌ أو تعويذة؟، وما يُذْرِيني، رُبَّما أنَّها كذلك!. لقد أصبحتِ التَّداوليَّةُ لي قصةً، أحكي أحداثَ خطابها تساؤلاتٍ في غالب التَّفكير اليومي!. وأيَّ مُعلَّقةٍ؟!.

وما زلتُ أسألُ نفسي مراراً؛ تفقُّهاً، هل التَّداوليَّة فعلاً كذلك؟!، ولماذا؟!، ثُمَّ استفهمُ عوْد ابتداءٍ ثانيةً وثالثة،... انتظرُ نبأً في خبرٍ: أينَ التَّداوليَّةُ إذن؟، ولماذا تغيبُ عن مشهد التَّقييد مرةً، ثُمَّ تتجلَّى في كلّ شيءٍ في أُخرى؟!.

تُرَى أيدخلُ تساؤلي هذا في دائرة من السَّذاجة حين يُخْتَبَرُ في ضوء مرجعيَّات وتأويلات بقراءة خارجيَّةٍ تجيب عنه، ضاحكةً ساخرةً تعلوها نبرةُ استهزاءٍ، ورُبَّما تعجبيَّة أيضاً، بعبارة يسيرة جداً: أنَّ تعريفها واضحٌ، هو "الاستعمال اللُّغويّ"؟!. أَلَمْ تكن أنتَ مقتنعاً به سابقاً؟. أَلَمْ تُصوِّرُهُ نهايةً: روايةً، ودرايةً؟. ثُمَّ تصمتُ الإجابةُ متأمِّلةً في ردَّة فعل ذلك السُّؤال: ما الذي سيحدثُ بعدَ هذا السُّؤال السَّاذج يا تُرَى؟. لقد تَصوَّرَ في الإجابةِ قَدْحاً!. هل يُشكّكُ في مبدأ، أو يعملُ على تفكيك مركز؟!. باتَ، وأصبحَ... أصارَ له وعيٌ وإدراك؟!. أَيَا هذا الكائن الصَّغير، مَن أنتَ؟!.

ولستُ أدري أكانَ التَّساؤلُ الاستفهاميّ هذا أيضاً، عندما يُشْطَبُ وجوده الافتراضيّ بهذه العبارة اليسيرة، هو فعلاً في دائرة من السَّذاجة، أم أنَّ الإجابةَ تحتاج إلى فَهْمٍ ما في متعيِّنات هذا السُّؤال المُشكِل قبل إحداثِ فعل ذاتها في عتبات هذا الإشكال الذي تتعدَّد ألوانُه أصولاً وفروعاً، كي لا تقتصر على هذه العبارة التَّعريفيَّة المقتضبة، وهي في هالة من دائرة الاستفهام الكبرى: ما التَّداوليّة؟!، بلَه قراءة سؤال الاختلاف في ترجمتها(٤٦)؟!.

ألم يكن هذا الاستفهام المعرفيّ نفسه مشغلةً لفكرٍ انتفضت إليه ثورةٌ من انتقادات للبنيويَّة والتَّوليديَّة(٤٧)، وقراءاتٌ أنتجت بحوثاً ودروساً لِمَا تخلَّت عنه، صار مجمعها التَّكامليّ توصيفاً لاتجاهات متعدِّدة فجَّرت أنهارها التَّداوليَّة/التَّداوليَّات؟. وهل كانت النُّصوص الآنفة السّرد إلَّا أساطير رسمتْ مرجعيّاتها التَّكوينيَّةَ أدلَّةً على مختلجاتِها الظَّنِّيَّة بخلاصاتٍ استدلاليَّة، أو نسيجاً لهيكليّات معرفيَّة ضمَّت أنفسها بهذا السُّؤال الذي يثير جدليّاتٍ كثيرةً مقاربةً ومفارقة!.

مع "فرانسواز أرمينكو":

أَلَمْ يطرأ خاطرُهُ مثلاً، على عقول ما أعلنت عنه "أرمينكو" في "المقاربة التَّداوليَّة"، وهي تحاول جهدها الإجابة عنه، حين وضعت مقدِّمات خاصّةً كابتداء أوّلي لما تريد أن تعقد عليه من فصولٍ ومقاربات، شكَّلت فيها مثاقفات وتاريخاً تسرد فيه ما للتداوليَّة من أصول تأسيسِها وتطوّراتها برجالاتٍ، أحالتهم أيقونات معرفيَّة كبرى على منجز وإنتاج، تلك المُمهّداتُ

التي أنشأت أنفسها بأسئلة أخذت التَّداوليَّة ذاتها مهمَّة الإجابة عنها، ثُمَّ تسجيل أغرب ما يكتبه القدر ويسخر منه، وهي تتحدَّث عن "نظريَّة الفعل الكلاميّ"، تقول فيها: "لا توجد تداوليَّة مباشرة أكثر من هاته الدِّراسة. ومع هذا تشاء سخرية القدر أن لا يستعمل أوستن وسيرل تسمية التَّداوليَّة لصالحهما"[٤٨]؟!.

أَلَمْ تحقِّق في معنى التَّداوليَّة لتوثيق دلالة ما فيها، لتصل منها إلى أنَّها "تأويلات مختلفة"، لا تستقرّ على معرَّف، بل هي في تنوُّع اتجاهيّ، وليس هذا فحسب، بل ملحظ تحويل تسميتها إلى "السِّياقيَّة" أيضاً؛ لأنَّها "تعني... عند بعضهم "البراكسيس"(*) إذ على التَّداوليَّة أن تعيِّن مهمتها في إدماج السّلوك اللُّغويّ داخل نظريَّة الفعل، ويدركها البعض [كذا] الآخر كمهتمة أساساً بالتواصل، بل وبكل [كذا] أنواع التَّفاعل بين الأعضاء الحيّة. بينما عليها عند البعض الآخر أن تعالج العلامات أساساً،... أمَّا الفرق الأخير، فيعد التداوليَّة علم الاستعمال اللساني ضمن السياق، أو بتوسيع أكثر، هي استعمال العلامات ضمن السياق، وتدفع أهمِّيَّة هذا المفهوم الأخير بـ"ماكس بلايك" "Max Black" إلى إعادة – تسمية التَّداوليَّة في نظره: إذ عليها أن تُسمَّى "السِّياقيَّة"."[٤٩].

أَلَمْ توثِّق، وهي في صميم تكوين مكوِّنات لمقارباتها، أنَّ التَّداوليَّة هذا الدَّرس الوليد يبحث "عن نفسه في مواريات معقّدة للتاريخ الثَّقافيّ،... "[٥٠]، وأنَّها، أي: التَّداوليَّة، "مثيرة – للاستكار؟ – لأنَّها تخضع لتأثير التَّقاليد المحليَّة من جهة، حيث إنَّ للثقافة والفكر وسطهما في الحياة. ومن جهة أخرى، فالنّبوغ الفردي، عنيد في دفعه إلى الاعتقاد في الجديد تحت الشمس"[٥١]، وأنَّه لولا نظرية أفعال "سيرل"، وسميائيّات "بيرس"، وقراءات التَّمثيل المعرفيّ في ضوء منهجيَّات "كانط"، والعودة إليها في ضوء المنطق المتعالي للأشياء، في تاريخ الفلسفة عموماً، لكانت التَّداوليَّة تلفظ أنفاسها[٥٢]، بل ليس لها وجود.

على أنَّ ما يلفت النَّظر هو ما انتهت إليه، أعني: "أرمينكو"، من حيرة كبرى، وبأسئلة أُخُر أيضاً في نتائج وُضِعَت في خاتمة، تقول فيها: "من خلال ما قيل في هذا الكتاب، هل يكون في إمكاننا الجواب عن السؤال البسيط: من هو مؤسِّس التَّداولية؟"[٥٣]. ولأنَّ جوابها بالطبع قائم على استحضار قوائم متعدِّدة من مسرد التاريخ الذي شكلته بحوث التَّداوليَّة، لذا كان النَّفي حاضراً؛ لضرورة فهم "بأنَّ علينا استدعاء أسماء كفيغنتشتاين، وبيرس، وكارناب وموريس، وآخرين كذلك..."[٥٤].

وتسأل "أرمينكو" عن التَّداوليَّة في أُخرى، لتقول في تمثيلها إجابةً تُظهر ما هي فيه من تعدُّديَّة تتأبَّى على التَّوحيد والمقابلة، بل هي منها تكوينها بلا بديل عنه أبداً: "لقد وُلِدت التَّداوليَّة تحت علامة التَّعدُّديَّة، دون هوادة، على الرّغم من محاولات التَّوحيد، بل وأقول على الرغم من وعود النّجاح – فهي تتابع سباقاً جميعاً. وسيكون من الخطأ المحض تبرير الخطوات مغيّرة الأشكال للبحث التَّداوليّ، واستبعاد الدِّقّة في فلسفة اللُّغة، ومن الخطأ التَّماثلي، المقابلة الضَّيقة للتداولية بأحد أجزائها،... وتُعدّ رهانات التَّداوليَّة مشوقة جداً، إلا أنَّ القرارات المنهجيَّة لا تقل خطورة عنها"[٥٥].

وليتَ الأمر ينتهي بذلك القدر لـ"أرمينكو" حتَّى تكون إجابة السؤال السَّاذج ذلك نهايتها نتائج من قولها اعترافاً: "إنَّها تداوليَّات متعدِّدة إذن؟، فهل عليها الاعتراف بذلك؟"[٥٦]، إنَّها تداوليَّة قوائم معرفيَّة متعدِّدة: كالمناطقة، واللِّسانيين، والبلاغيّين، والسيكو- سويولوجيين، والعلاجيين،... مقاربةً "كما هو الأمر في الرسم، فإنّنا نجد البعض [كذا]، أصحاب شكل، وتشكيل، وحقيقة، وتكعيب، وآخرين أصحاب ألوان، وانفعال، وزخرفات، كما لو كنا نشير إلى فلورانس، والبندقية، وبيزانس،... إنَّها إذن تداوليَّات عديدة؟ ولماذا لا تكون كذلك؟ إنَّه تعداد، دون مراعاة لروح النَّظريَّة التي توحّد دائماً. ما دامت التَّداوليَّة تمارس سلطة إدماجيَّة، قبل أن تكتسب وحدتها الدَّاخليَّة"[٥٧].

ولقد لا تفضي بنا قراءتها إجاباتٍ على تساؤلاتٍ حتَّى تتضافر هذه النَّتائج بما سبق لها من طروحات، لتنتهي إلى أنَّ الاصطلاحات التي تطرحها التَّداوليَّة موضع التَّساؤل، يمكن أن تكون في أطروحتين متناقضتين[٥٨]:

الأطروحة الأولى: التَّنافر أو التَّوحُّد، في سؤال: هل تُعدّ التَّداولية مجالاً متنافراً؟. وهل يمكن إدراك تداوليَّة موحَّدة بحكم هذه الانجازات الكبيرة؟.

الأطروحة الثانية: الاندماج أو الاستقلال: إذ يمكن للتداوليَّة أن تندمج بطريقتين، إمَّا باختزالها وامتزاجها في المجال الدَّلاليّ، فتكون بيسر تامةً في نظريَّة الإنجاز التَّداوليَّة. أو مندمجة كجزء من السِّيميائيَّة الثلاثية الأبعاد، وهو ما ينسجم مع فعلها ودلالتها.

وبناءً على ما تقدَّم من طرح ستكون النّتائج، وهي ما توصَّلت إليه[٥٩]، متضاربة ومتعارضة؛ لأنَّ التَّداوليَّة، إمَّا أن تكون مكوّناً تجريبياً بسيطاً متنافراً ومتآكلاً، وهو ما يدعو به اللِّسانيّون والنَّحويّون والدَّلاليّون والأدبيّون. وإمَّا أن تكون كقاعدة إدماجيَّة للنظريَّة اللِّسانيَّة، كدرس جزئيّ شكلياً مع التَّوحيد والتَّأسيس للقدرة على وصف شروط إمكان التَّواصل، وهو ما يدعو به المناطقة والفلاسفة، وهم في الغالب سياقيّون.

نحن إذن، أمام صراعٍ لإثبات الذّات معرفةً، تكون التَّداوليَّة فيه تشخيصاً وإجراءً مستقلّاً، أو لا تكون، وذلك عند البحث عن المعنى وإدراك مستويات التَّحليل، وأين يمكن أن يكون إجراؤه وتطبيقه أفي اللِّسانيّات، فيتجلَّى المستوى الدَّلاليّ بالاندماج، أم خارجها، فتظهر مشروعيَّة التَّصوُّرات التَّداوليَّة[*].

وهل كان هذا ليخرجنا مع "أرمينكو" من دوائرها المختلفة، أو كان لنا منها تعيين، سواء أكانت أطروحات التَّداوليَّة أنفسها التي لا تتوقَّف عن الانحسار أمام أطروحات الدّروس التي تظهرها هامشيَّة غير مستقلَّة[٦٠]؟، إنَّها تداوليَّات متعدِّدة، وليست تداوليَّة موحَّدة، كما قدَّمه بذلك إفصاحها وتأكيدها غير مرةٍ مع علماء آخرين.

وأقول: لماذا اكتفت "أرمينكو" تقديم "المقاربة التَّداوليَّة" بلا بديل من تقديم نظريَّة أصليَّة للتداوليَّة، سوى إعطاء بعض المفاتيح المفيدة بطريقة موسَّعة ما أمكن[٦١]؟. ولماذا عزفت عن اجتراح حدٍّ للتداوليَّة، على الرغم من المقاربات الجادّة التي أثارتها، سرداً، ومواثقةً: أصولاً ورؤى؟. أكانت تخشى من النَّقد مثلاً، وهي في محاولة للقيام بهذا التَّركيب الصَّعب، كما تقول، فضلاً عن الحدود؟. أكانت تُسرُّ إكباراً لمفهوم التَّداوليَّة إلى حدّ لم تعرض لمفهوم خاصّ لها بها؟. وهل وجدتْ ما قدَّمتْه وافياً، وأنَّ التَّداوليَّة هي هذه المجاميع الكُلِّيَّة من المحاولات الفكريَّة التي بها تكون، ولا تداولية بواحدة منها دون أُخرى؟. ولماذا كانت حريصة أكثر، وهو قولها، على الإشارة إلى مبادرات الفلاسفة المناطقة، وما أثير من ممارساتهم في هذا المجال من اقتراحات هامّة؟.

هل يمكن القول مجازفةً، أكانت "أرمينكو" تُضمر نتيجةً لم تُفصح عنها تصريحاً، افتراضها، أوَّلاً: نفي أن يكون للتَّداوليَّة دالٌّ معيَّن، وبمجازفة أكثر نفي لها، وبعنوان جدليّ أكبر: لا توجد تداوليَّة!. ثانياً: إثبات لمنجز علميّ ضخم، يتّسم بالتَّنوُّع والاختلاف، بل هي سمة فيه، يشتغل إجماعه الكُلِّيّ على كلّ ما يرصد المعنى، ويعالج القصد، بطرائق شتى من مستويات التَّحليل والوصف والتَّفسير، أخذت بنفسها نحو فلسفات من التَّكوين والتَّوصيف؟!.

أقول: الذي يبدو لي أنَّ الأخير لا يستلزم الأوَّل، ولكنَّه يبحث عنه!.

مع "سِتيفِن ك. ليفنسُون":

وهل كان "ستِيفِن ك. ليفنسُون"، وهو يضع كتاب "البراجماتيَّة اللُّغويَّة" بعيداً عن هذا التَّساؤل أيضاً؟، إنَّه لينتهي، بعد وضعه خلاصة قول باستقراء وإحصاء ومناقشة نقديَّة لمجمع التَّعريفات التي قدَّمها للتَّداوليَّة – وستأتي لاحقاً – إلى

رأي أنَّه من الصُّعوبة جداً وضع حدّ للتداوليَّة. يقول: "في هذا الكتاب محاولة تعريف... ومع ذلك فهذا ليس من السّهل إطلاقاً تقديمه،..."[٦٢].

وقد يأخذ به النَّظر بعيداً حين يعتقد أنَّه على الرّغم من وجود إمكانات متعدِّدة، فضلاً عن تنوّعاتها وأخلاطها الأكاديميَّة، إلا أنَّها، بحسبه، لم تَعُد كافيةً لتحقيق أكثر من تحديد ملامح لعدد من مناطق البحث فحسب، وإن كانت ثمَّة محاولات في تحديدها وتعريفها، على كثرتها، إلا أنَّها، كما يقول: "نادراً ما تكون مرضية تماماً"[٦٣]، أو "ليست في الحقيقة مرضية للغاية"[٦٤]، أو "قليلة الجدوى"[٦٥]، أو "أكبر ممّا هي حقيقة"[٦٦]، أو في الأقلّ، ليست بعيدةً عن مشكلات النَّقد والاعتراض؛ ولهذا لم يرتض بسهولة أن تكون التَّداوليَّة ممثّلة بالمستوى الثالث مقابلة بالنَّحو في بحث الخواص التأليفيَّة، والدّلالة في المعنى، مع قول: "البراجماتيَّة: هي بحث الاستعمال اللُّغويّ"[٦٧]؛ لأنَّه، غير كافٍ، بل يحيط به النَّقص فهماً أيضاً.

والسّبب في تصوّره، أعني: "ليفنسُون" يعود لأمرين[٦٨]: الأوَّل: ليس المفهوم مألوفاً بشكل زائد. ثانياً: ليس من السهولة المضي بيسر لبيان فيما يعمل فيه باحثو البراجماتيَّة حقيقةً.

إنَّ نفي "ليفنسون" موضوع التَّداوليَّة حدّاً، ونفي المجال الاشتغالي الذي يعيِّن معالم موضوعها، بلا شكّ، لا يعني إنهاء وجودها: التَّداوليَّة، بل يفضي إلى قول: كيف يكون ثمَّة تعريف إذن؟!، ولهذا قدَّم جملة تعريفات للتَّداوليَّة كان الغرض منها: بماذا وعمَّاذا يبحث التَّداوليُّون[٦٩]، نعم إنَّه كان يرجو من الباحثين أن يُصار أمر تعريفهم ونظرهم، إلى نتائج تصحيحيَّة في: "كيف ينبغي أن تُصاغ بدقَّة نظريَّة براجماتيَّة"[٧٠]، بعد هذا الجهد البحثيّ.

مع "جاك موشلر":

وهل كان "جاك موشلر" غائباً عن وقائع هذا النزاع وإشكاليّاته أيضاً، وهو يستحضر أفنان عُدّته الكبيرة في تشييد "القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة"، وما فيه من مقولات كبرى، وإجراءات مفاهيميَّة عليا، مثَّلت أبواباً معرفيَّة مختلفة؛ لكي يكون جوابه وافياً بمضمرات ما استوعبه ذلك الاستفهام: ما التَّداوليَّة؟.

ألمْ تشكِّل عتبة عنوانه الكُلِّيّ: "القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة"، ولا سيَّما نسبة اللام الملكيَّة فيه، قراءةً تدعو إلى تأمُّل ما، حتَّى كأنَّها إجابةٌ ذات شمائل مختلفة لا ترضى أن تكون واحدة منها بامتياز إلا وهي متماهية مع الأخريات؛ تكاملاً؟. هكذا: التَّداوليَّة هي مفهوم ما فيه هذا الكتاب الموسوعيّ من خطوط: نظريّات ومعالجة، وربَّما سيُضاف إليه فيما بعدُ.

وهل كان تقديمه لما نسبه مجهولاً من تعريف للتَّداوليَّة(*) عموماً مقابلة باللِّسانيّات، اكتفاءً به؟، ولماذا لم يكن خالياً من نقده لنفسه، مثلاً، حين قال: "على وجه العموم، تُعرَفُ التَّداوليَّةُ بأنَّها دراسة استعمال اللُّغة مقابل دراسة النِّظام اللِّسانيّ الذي نعني به تحديداً **اللِّسانيَّات**"[٧١]، وما كان من نظره في إشكاليَّة ما يعنيه مفهوم "استعمال اللُّغة"، في كونه غير محايد لجانب دون آخر من حيث تأثيراته حين النَّظر والتَّحليل، سواء في العمليَّة التَّواصليَّة أم في النِّظام اللُّغويّ نفسه، وهو الأمر الذي يشي بأنَّ اللِّسانيات لا تنفكّ عن الاستعمال وظروف السِّياق مطلقاً. يقول "موشلر": "فمن نافل القول، فعلاً، أن نشير إلى أنَّ بعض الكلمات (المشيرات الدّالة على الزمان أو المكان أو الأشخاص من قبيل الآن وهنا وأنا) لا يمكن تأويلها إلا في سياق قولها. وأقلّ سذاجة أن نذكّر بأنَّنا، عند التَّبادل اللُّغويّ، نبلّغ من المعاني أكثر ممّا تدلّ عليه الكلمات. وليس من الساذج أن تقول أخيراً إنَّ استعمال الأشكال اللُّغويَّة ينتج عنه بالمقابل إدراجٌ للاستعمال في النِّظام نفسه. فمعنى القول يقوم على شرح لظروف الاستعمال أي لأداء ذلك القول"[٧٢].

هل كان "موشلر" في قراءته النَّقديَّة لانفصال الاستعمال اللُّغويّ عن النِّظام إلى إيجابيَّة الاتّصال بينهما ثمَّة، قراءة تُفصح عن تأكيد ما تقرَّر من قراءات البحث اللِّسانيّ وبرامجها الخاصة في الوصف والتَّحليل والكشف عن المعاني والمقاصد الإنسانيَّة، تلك التي تقوم مداراتها المحوريَّة بالاستناد إلى ما في ملحظ رسوم السِّياق ومكوِّناته المتعدِّدة وما لها من أثر فاعل في التَّوجيه، أو "البحث عن الوظائف التي تؤدّيها [اللغة] في التَّواصل: العناصر، والأصناف، والآليّات التي تتدخل فيها"[٧٣]، أو ربط النِّظام اللُّغويّ بالتَّصوُّرات الأدائيَّة، أو كيفيّات توظيفه لأداء المعاني[٧٤]، وعلى قاعدة: "من النادر أن يوجد نشاط إنسانيّ لا يستخدم اللِّسان"[٧٥]، وأنَّ دراسة اللُّغة منفصلة عن الخطاب غير مجدية، بل عقيمة، أو بما في مقاربة "ميتشل" من إدراك: "غالباً ما يكون من الصّعب أن نفصل بين مستويين تقريرين: المستوى السِّياقيّ، والمستوى اللُّغويّ (أي المصاحبات اللُّغويَّة والمصاحبات اللُّغويَّة الممتدة)، إذ إنَّ الموقف يقرّر إلى حدّ كبير نوع المصاحبات اللُّغويَّة في أيّ نصّ معروف"[٧٦]. أو مقاربة "فان دايك" وقراءة المناسبة في شروط القبول والرفض القوليّ، وتجريد السِّياق وأنواعه[٧٧]، أو ملحظه بما في الاستعمال اللُّغويّ من تفاعل مؤسّس للغة وأنظمتها، إذ "إنَّ استعمال اللُّغة ليس هو إنجاز فعل مخصوص فقط، وإنَّما هو جزء كامل من التَّفاعل الاجتماعيّ. فأنساق اللُّغة هي أمور متواضع عليها، إذ هي لا تنظم ضروب التَّأثير والتَّأثر الاجتماعيّ فحسب، وإنَّما مقولات تلك الأنساق وقواعدها تنمو وتتطوّر تحت تأثير بنية التَّفاعل داخل المجتمع"[٧٨]. ومن قبْلُ ما أفادته "فرانسواز أرمينكو"، وهي تؤسِّس لقراءة آثار السِّياق وظروفه في كلّ مقاربة تداوليَّة[٧٩]، أو رؤية "جيوفري ليتش" في مقاربة الدَّلالة بوصفها التَّواضعيّ، بالتَّداوليَّة؛ بوصفها النَّظريّ الاعتباريّ[٨٠]، فضلاً عن قراءته لكيفيَّة رسم التَّداوليَّة نفسها على "الخريطة اللِّسانيَّة"، إذ رصد ما لـ"ليكوف" "Lakoff" مع آخرين من احتجاج "بأن التَّركيب النَّحويّ لا يمكن أن ينفصل على وجه مشروع عن دراسة تداول اللُّغة واستعمالها،..."[٨١]. أو قراءة "جيني توماس" في مداركها لمستويات المعنى[٨٢]، أو قراءة "إميل بنفنيست" في محوريَّة الكلام؛ بوصفه "سيرورة تحتم تبادلاً،... فلكي يؤكِّد الكلام "التَّواصل" يجب أن يكون مؤهّلاً فيه من طرف اللُّغة، التي لا يمثِّل سوى تحقُّق لها"[٨٣]. إلى قول: "الخطاب... هو اللِّسان محتملاً من قبل الإنسان الذي يتكلَّم، وفي إطار التَّفاعل الذَّاتيّ وحده يجعل التَّواصل اللُّغويّ ممكناً"[٨٤].

أكان "جاك موشلر" يؤطِّر ذلك النَّقد الابتدائيّ إلى ما كان ينشره "هايمز" وقراءة أثر السِّياق في فهم عمليّات التَّواصل اللُّغويّ، بقول: "السِّياق... يحصر عدد المعاني الممكنة، وأنَّه يساعد من جهة أخرى على تبني المقصود،... بإمكان المقام أن يساعد على تحديد عدد من المعاني، فعندما تُستَعمل صيغة في سياق ما، فإنَّها تستبعد كلّ المعاني الممكنة لذلك السِّياق والتي [كذا] لم تشر إليها تلك الصّيغة. والسِّياق بدوره يستبعد كلّ المعاني الممكنة لتلك الصِّيغة التي لا يحتملها السِّياق"[٨٥].

هل كان "موشلر" في ذلك النَّقد الابتدائيّ، يتكئ على مرجعيَّة يوافق فيها على ما جرّده "هايمز" من خصائص السِّياق، تلك التي يكون وجودها ضرورياً لتحديد دلالات الأحداث التَّواصليَّة في خطاب ما، وهي: الباث، والمتلقِّي، والمستمعون، والموضوع، والظَّرف، والوضع الجسميّ، والقناة، والشفرة، وصيغة الرِّسالة، والحدث، والطَّابع والغرض[٨٦].

ألمْ يكن نقده للسانيين؛ لعدم معرفتهم بالبعد التَّداوليّ الذي قدَّمتَه الأبحاثُ التَّداوليَّة، وما فيها من اتّجاهات معرفيَّة مختلفة مثَّلت بُعدَها التّاريخيّ، هو نفسه نقداً في الأسئلة التي أثارتها الأبعاد التَّداوليَّة للغة وما فيها من إشكاليَّات، هكذا يقول "موشلر": "مكَّن اكتشاف الأبعاد التَّداوليَّة للغة من طرح الأسئلة التالية: هل تُمثِّل التَّداوليَّة مكوِّناً من اللِّسانيَّات؟ هل يمكن الحديث عن تداوليَّة لسانيَّة؟ ما الصّلات التي تقيمها التَّداوليَّة مع اختصاصات أخرى كالفلسفة وعلم النَّفس وعلم الاجتماع والذكاء الاصطناعي؟"[٨٧].

هل كان غرض "موشلر" من ذلك النَّقد الموجَّه للسانيّين[٨٨]: غرابتهم ودهشتهم، هو الانتهاء منها إلى تحديد صبغة ما لماهيَّة التَّداوليَّة: سرها، وموضوعها؟، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يقترح بديلاً عن ذلك التَّعريف الذي قدَّمه منقوداً

أوّلاً، سوى ظواهر تداوليَّة كأداء القول، والاستدلال والتَّعليمات، لمعالجة ما غاب من إشكاليّات: الشَّكل والمعنى[٨٩]؟، حتى كأنَّها نقطة ابتداء، لأميال تبدأ بخطوة؟! ولماذا نلحظ مفارقةً، بل تناقضاً إذن، في طرحه الأوَّل من أنَّ الاستعمال غير محايد؛ لأنَّه يتخلّل النِّظام اللُّغويّ، وأنَّ التَّداوليَّة التي تمثّله درساً كشفيّاً خارجة عن ذلك النِّظام؟، أكانت فعلاً خارجة عن النِّظام اللُّغويّ، فتكون مقاربةً ومقابلةً له؟، أم أنَّه كان يفسِّر ويوضِّح المدار الاشتغاليّ ليس غير ذلك؛ إقراراً منه؟، كما في قراءة ما انتهى إليه "ليفنسون" نفسه: "من الصَّعب أن يوضع تعريف يستوعب بشكل موفق كلا الجانبين. ولكن لا ينبغي للمرء أن يثير ذلك الانطباع بأنَّ البراجماتيَّة خلطة، تعالج جوانب متناقضة ولا علاقة بينها؛ فالبراجماتيون مهتمون بالأحرى بشكل مميَّز للغاية بعلاقات التَّبادل بين بنية لغويَّة ومبادئ الاستعمال اللُّغويّ"[٩٠].

على أنَّ الأغربَ من كلّ ما تقدَّم من توصيفٍ هو شهادة ما أبداه في مكان آخر، أعني: "موشلر"، من حسرة متأسِّفاً لهذا الفَصْل المستمر بين التَّداوليَّة والعلوم المعرفيَّة التي توافقت ونشأتها الأولى[٩١]، ذلك الفصل الذي سبب لمفهومها إرباكاً معرفيّاً؛ بسبب إهمالها، وعدم الالتفات إلى قراءتها وأهمِّيّتها في وقت مبكر، يقول: "النَّتيجة التي تثير أسفنا هي الفصل الدائم بين التَّداوليَّة في بداياتها والعلوم المعرفيَّة في بداياتها"[٩٢].

التَّصوُّر المرجعيّ العام إذن، هو أنَّ "التَّداوليَّة... برنامج بحثٍ يرتكز على استراتيجيَّة مفتوحة"[٩٣].

لقد أفضى التَّداوليُّون[٩٤]، وبضمنهم "موشلر"، فيما يبدو لي، إلى محاولات لوضع أُسُس لنظريَّة تداوليَّة متفاعلة مع اللِّسانيّات تحاول الوصول ما أمكن إلى "تحليل ظواهر إنتاج اللُّغة وتأويلها"[٩٥]، ولكن المفارقة بلا تعريفٍ جامع مانع، وهو، وإن كان، ففي إطار من رؤية خاصَّة، فضلاً عن إخراجها من اللُّغة، وما عُقِدَ من توصيف مستوياتها النِّظاميَّة؛ وذلك لسعة ما يدخل في حيزها من أبحاث وموضوعات وظواهر ومعارف لا تنحصر، ناهيك بالمشترك منها، فضلاً عن عدم الانسجام.

ولعلَّ هذا ما ألزم به "موشلر" نفسه اعترافاً، يقول: "علينا أن نتفق، بدءاً، على ماهية التَّداوليَّة، وأقلّ ما يمكن أن يُقال هو أنَّ ازدهار نظريّات "تداوليَّة" حديثاً لم يجعل هذا الميدان متّسماً بالبساطة. فقد تكون النّقطة بين هذه المجموعة الواسعة من النَّظريّات المُسمَّاة تداوليَّة هي، إلى حدّ ما على الأقلّ، مجال البحث، فالظَّواهر التي تهمّ التَّداوليَّة... هي الظَّواهر التي تتدخّل في تأويل الأقوال، ولكن لا يعالجها التَّركيب ولا تعالجها الدَّلالة: ويشمل هذا ظواهر متنوِّعة جداً تتّصل باللُّغة في استعمالها، وفي السِّياق، وبإسناد الإحالات ورفع اللّبس، وإسناد القوة المتضمّنة في القول... إلخ"[٩٦]. وهل كان، وهي مسألة لم يبد فيها من حسرة متأسفاً، إلا لهذا الفصل بين المعارف التي واكبت ظهور التَّداوليَّة وما سببه ذلك من إرباك معرفيّ؛ بسبب الإهمال – كان يقول: "النَّتيجة التي تثير أسفنا هي الفصل الدائم التَّداوليَّة في بداياتها والعلوم المعرفيَّة في بداياتها"[٩٧].

مائدةٌ فيها كُلُّ شيءٍ مختلِف ألوانُهُ – العشاءُ الأخير:

أيمكنُ أن تجذبنا مقولة الاستفهام السّاذج تلك: ما التَّداوليَّة!، وما تثيره من إشكاليَّات داخليَّة موضوعيَّة وخارجيَّة ارتباطيَّة، إلى منطق التَّشكيك بالإجابة جدلاً، ثُمَّ منه إلى جهة من النَّفي فوق التَّشكيك، على الرغم من وقائع بحوثها الكثيرة سعةً، المكّثفة إنتاجاً؟!.

أَلَا يمكن القول، مثلاً: إنَّ التَّداوليَّة قيامة اللُّغة، وجوهرها المخصوص الذي يمثِّله إنسانها روحاً ومادَّة، بلا انفصال، بل باتصال تتواثق أصوله بين فلسفة النِّظام واستعماله كياناً، وهو، وإن كان، أعني: الانفصال بينهما، فهو أمر، بلا شكّ، إبستيمي مفتعل لغاية من قانون التَّجريد النِّظاميّ والدَّرس الذي هيمن سلطةً على الدِّراسات اللُّغويَّة حين أقصت حقل:

المعنى، والسِّياق[٩٨]، والكلام الفردي[٩٩]؛ بحُجّة من صعوبة إدراكه؛ لتعدّده وكثرة إشكاليّاته؛ لـ"أنَّه حمَّالٌ ذو وجوه"، فضلاً عن عدم الضَّبط والتَّقييد، من ساحة النَّظر المعرفيّ، والتمست من إطار التَّصنيف النَّظريّ سمةً وبحثاً ونتائج.

أَلَا يكفي الإمضاء بها قولاً بلا نقضٍ، ، أو رأياً بلا نقدٍ– وأنَّى له ذلك –: إنَّها ابتداءٌ خبره منفتح على مقولات حمليَّة، يستبطن خطابُ أسئلتها الأصوليّ قضايا عقليَّة . فكريَّة . منطقيَّة، تتشخَّص مداركها بطابع من التَّصنيف والتَّوصيف والنَّظر؛ يمكن أن تتمثَّل كُلِّيّاتها، وباختزال شديد التَّعقيد جداً، كَمّاً وكيفاً ونوعاً، بنصِّيَّة من أسئلة "**إنسان اللُّغة**"، وما فيها من سلميّات معرفيَّة تراكميَّة تفاعليَّة تتجلَّى فاعليّاتٍ اشتغاليَّةً تستند إلى مرجعيّات مختلفة، وأصول متنوِّعة؛ أمشاج، منصهرة سبكاً؛ للكشف عن حفريات المعنى، وكنوز القصد، ثُمَّ غايات "المُراد الجديّ"[١٠٠]، تلك الشؤون التي يتشكَّل بها السّلوك الإنسانيّ، نشاطاً: قولاً، وفعلاً.

أَلَا يعني قول "أرمينكو": "ليست التَّداوليَّة درساً منكفئاً على نفسه، فهي تصدر مفاهيمها في اتّجاهات متعدِّدة..."[١٠١]؟. إرسالاً تصديقيّاً لذلك المحمول المعرفيّ عندما نصادفُها تظهر على أنواع كثيرة، وبتسميات مختلفة، كالتَّداوليَّة الاجتماعيَّة، واللُّغويَّة، والتَّطبيقيَّة، والعامة[١٠٢]، واللِّسانيَّة، والفلسفيَّة، والمعجميَّة، والأدبيَّة، والتَّداوليَّة الموضعيَّة[١٠٣]، والمُدمجة، والدّرجيَّة، والعرفانيَّة[١٠٤]، والكبرى، والصُّغرى[١٠٥].

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا نجدها تتلوَّن متكيِّفةً بفاعليّات كبرى – هذا إذا تركنا محاورها البحثيَّة الأُخَر، وما قُدِّم فيها من موضوعات/مفاهيم افتراضاً، كما سيأتي ذكره – في تحليل الخطاب والحجاج، وفي مراتب الحوار وأصول التَّواصليَّة، والتَّلفُّظ والمنطوق، أو مستويات المعنى[١٠٦]، وفي تمثيل أصول الدَّلالة بالعلاقة التَّخاطبيَّة[١٠٧]، وفي تصحيح مسارات اللُّغة وفلسفتها[١٠٨]، وفي تعديل مفاهيم النَّصّ وفهمه واستيعابه، فضلاً عن معايير تحليله، وسلوكيّات توظيفه[١٠٩]، وفي كونها برنامجاً تصحيحياً لترميم النَّقائص والأخطاء، أو مرجعيَّة لسدّ الثَّغرات الذَّاتيَّة والامتيازيَّة بين النَّصّ والخطاب[١١٠]، وفي الأدبيَّات وسرديّاتها، على الرّغم من المفارقات بين العوالم الواقعيَّة والتَّخييليَّة[١١١]، وفي المستويات الإدراكيَّة والعصبيَّة والنَّفسيَّة والمعرفيَّة الأُخَر... إلخ[١١٢].

ولقد يرتقي الأمر فيها صرحاً، وهو لأمر عجَبٌ مثيرٌ يستلزم قراءة أُخرى أيضاً، إلى أنْ نألفها تهمين على كلّ شيءٍ غرضه "المعنى"، غايةً مركزيَّة، بل إلى كونها "مدبّرة لأسس المعرفة"، وفلسفاتها التَّكوينيَّة: مرجعيّاتٍ وأهدافاً، أيضاً، كما في اقتباس "أرمينكو": "هي [أي: التَّداوليَّة قطعاً] تلمّ بالعنصر الشَّكليّ للمعرفة وللاعتقاد – كما توضّح السّتراتيجيّات القبليَّة، التي توجِّه كلّ مجادلة، وكلّ نقاش، وكلّ حوار – الذي يكشف فيه، حسب ف. جاك، عن "البحث المُدبِّر لأُسُس المعرفة". إذ ينتظم من خلالها التَّطبيقيّ والنَّظريّ؛ لأنَّ الخطوات نحو الحقيقة، ترتبط بحركة التَّواصل المباشر نحو المعنى"[١١٣].

التَّداوليَّة على ذلك إذن، تصوُّر فعليّ في كلّ شيء يمتّ إلى حياة الإنسان بصلة، كما يقول "جروج يول" ابتداءً لمعالجةٍ: "إنَّ التَّفسير الأوسع للتداوليَّة هو إنَّما دراسة الفعل الإنسانيّ القصدي"[١١٤]، ثُمَّ نتيجةً: "كلّ فعلٍ في الحياة هو جزء من التَّداوليَّة"[١١٥]، متوافقاً في عمومها التَّصوُّري مع "فيرشورن": تدرس التَّداوليَّة كلّ شيء إنسانيّ في العمليَّة التَّواصليَّة، سواء كان نفسيّاً أو بايولوجيّاً أو اجتماعيّاً"[١١٦]. بل أبعد من ذلك أيضاً، إذ "ليست هناك أيَّة ظاهرة تستطيع التَّداوليَّة تجاهلها"[١١٧]. ولعلَّ هذه التَّصوُّرات هي التي قادت "فرانشيسكو يوس رّاموس" إلى الاعتقاد: "بأنَّ التَّداوليَّة تجمع سلسلة من المنجزات التي تصلح كنماذج لحلّ مشاكل محتملة، وتعود علاوة على ذلك، بمنافع من نظريَّات وأهداف على كلّ المجتمع العلميّ"[١١٨]، إنَّها "نموذج"/"نماذج"، بـ"معناه الكوهني"، وهو أمر في حساب "راموس" يفترض إطاراً أكثر اتّساعاً، يتجاوز إطار النَّظريَّة، "إطاراً تشكّله مجموعة من الافتراضات المؤسّسة على ما يقوم به المرء إزاء طبيعة الموضوع نفسه وحدوده، ومنهج الدِّراسة، وما تعتبره كشيءٍ واضح ويحدّد الشِّكل الذي تأخذه النَّظريّات"[١١٩].

أقولُ، مُندهشاً: ما أشدَّ سذاجتي إذن!، كنتُ أفتّشُ عنها، وهي في كلّ شيءٍ!.

أهي فِعلاً كذلك!؟. هل كان سؤالي السّاذج ذلك: "ما التَّداوليَّة"؟ مُخطِئاً فِعْلاً، تجاوزتُ فيه حدود الفعل اللَّفظيّ في التَّهذيب اللُّغويّ، والإنجازيّ في السّلوك الاستفهاميّ، والتَّأثيريّ في فعلي الخطِّيّ الآنَ... حين استعملتُ فيه علامة "ما" دالّاً به، بحثاً عن ماهيَّة وهُويَّة في مجمع نظريَّات مختلفة، وملتقى بحوث متنوّعة، كأنَّها جسدٌ متقطّع الأجزاء والأوصال، تشكَّل في هيأة "فرانكنشتاين"[١٢٠]، أو كشبح تجلَّى في ظلامٍ، لا يُفصح عن ذاته بياناً، أو كثقبٍ أسود يلتهم كلَّ شيء،... ثُمَّ عن أيّ موقفٍ من إجماعٍ يتحرَّك منه، وبه، علماؤُها اعتماداً عليه، ينطلقون منه وصفاً وتفسيراً ومعالجةً ونظراً لمسائل وقضايا ما يقع منها تحتَ معمليَّة الاشتغال، ثُمَّ يعودون إليه قياساً وتوجيهاً كـ"ميكانيزم" مخصوص الجوانبِ والعتبات؟.

وما الذي يمكن أن يعنيه، وأقصد: سياق التَّساؤل، وهو بهذه الأسلوبيَّة الاستفهاميَّة من التَّوارد والتَّتابع؟، هل يعني أنّي خرجتُ بهِ من دائرة الخطاب الاعتياديّ، إلى ما يُضمره من احتمالات: متضمّنات قول، وافتراضات، لا سبيل من حجْبِ خواطرها، أو ستر ظنونها على فكر متلقٍّ، أو قلبِ مخاطَب؟، وعن أيّ مبدأ، سيُرصَد الخروج، إن كان كذلك، من قواعد التَّخاطب والحِكَم يا تُرَى: أعنِ الكم، أم النَّوع، أم الكيف، أم العلاقة، أم الحالة والأسلوب؟، وما الذي يمكن أن يستلزمه نصُّهُ، خطابُه، حوارُه، إن كان ثمَّةَ خرقٌ أو انتهاك لحدود الطَّبيعة، ومنها البحثيَّة، أيضاً؟. وهل هو مكرّرٌ أيضاً؛ ولأنَّه كذلك، فهو قبيح الإيراد؛ لعدم إعلاميّته وإفادتها بالمفارقة، أو أنَّه جديدٌ في كلّ وقتٍ من سياق متغيّر، أو حالٍ متبدّل، على طريقة "هرقليطس"[١٢١]: "إنَّكَ لا تستطيع أن تخطو خطوتين في نهر واحد؛ لِأنَّ مياهاً أُخرى لا تنفكّ تجري إليك"[١٢٢]. وهو الأمر الذي يعني أنَّه لا يدخل في إطار من التَّكرار الذي يأخذ منه النَّقد موقفاً، بل على مستوى عالٍ من الإعلاميَّة!.

أيتُّها الحروفُ، اسمحي لي أن أسالَكِ إذن: لماذا أنتِ صابرةٌ معي، أُشكّلُكِ عوالمَ بألفِ ألف بحثٍ عن التَّداوليَّة؟!.

ـ أنأ فيكَ، ومنكَ، وإليكَ،... أفتشُّ عن طلاسمي التَّداوليَّةِ أيضاً!. صحيح أنَّ ترجمتي لها، قد لا تُفصح عن كلّ شيءٍ، ولكن رُبَّما تعبّر عن شيءٍ ما فيها!.

هل هي طَلاسِمُ فعلاً؟!، أليست هي المسؤولةَ عن كشفها... تبحثُ عن حلّها؟. أخشى أنّي أكتبُ طَلاسِمَ، حروفاً بلا تنقيط: ترقيم وإعجام،...!. أرجو ألّا احتاج لـ"ابن سيرين" يكشفُ غيبَ الألغاز والرُّموز إنْ كنتُ أحلمُ...!. هل أصبَحَ سؤالي يتوسَّمُ الجنونَ وشاحاً كبحث "ديوجين الإغريقي"[١٢٣]،... كان يحملُ قنديلاً في وضح النَّهار، يبحثُ عن الإنسان؟!. أو كـ"مجنون ليلى" يكتبُ عنها، وهو فيها؟!. وأنّى لي بـ"كراتيليوس"[١٢٤]، يصنعُ لي من الأسماءِ،... كي أُعبّرَ بها عَنها، مميّزاً لها، بلا اختلاطٍ، من حقائق سائر الأشياء...؟!. ولكن هيهاتَ؛ إنّي لا أَملِكُ هُدْهُداً يجلبُ نَبأً، فضلاً عن عِفْريتٍ يأتي بعرش!.

سأتعاملُ مع تداوليَّة ثنائيَّة السّؤال والجواب إذن، بحصافة أكثر، وبحذرٍ شديدٍ جداً، لعلّي أبلغُ بها الخروجَ من دائرة السَّذاجةِ تلك،... وسأحوّلُ السُّؤالَ مِنها، إلى فلسفةٍ أخرى، بوسيلة أُخرى!. بعد أن أُبقِي على اسمي بلا تغيير، لا كما فعَل "أدونيس"!.

تُرَى، هل سأُمسِكُ لحظةً بتلابيب التَّداوليَّة؟، أو إنَّها عصيَّة على الجمع بثوبٍ واحد!. هل سأخرج من جلباب ليليها إلى زهور نهارها،... قبل أن ينفدَ زيتُ قنديل،... أتنفسّ عِطراً...؟!.

هل سأحظى يوماً بإجابةٍ عنها، منها، أو مِن سواها، لا فرق...؟!. رُبَّما سَئِمَ ساعي البريدِ من سؤالي، لعلَّ رسالتي ليس فيها طابَعٌ مثالي، فأَرْجأَها، أو أَهملَها، وربَّما رَفَضَها،.. أعلمُ أنَّ الخطابَ لا بدَّ له من ظرفٍ وطابَعٍ مرسوم؛ فيُجازُ استقبالُه. ولكن أَنَّى لطابعٍ مع تقنية تحاولُ أن تُمسكَ بالسَّماءِ، بعدَ الأرض؟!. إنَّ اللُّغةَ مرهونة بكلماتها، والأُخرى بنقاطها؛ ترجمةَ شعور؛ أدبَ دلالةٍ، ونيَّة إرسالٍ،...

ولهذا قلتُ: كَمْ أُحبُّ فيكِ لغتي،... إنَّها تَأْبَى اعتباطيَّةَ "سوسور"، لتنحو نحوَ قصديَّة "سيرل"،... ولعلِّي أفهمُ بذلكَ من الأخير رُؤى "شكسبير". وَلِأنِّي أَخشى،... لَذا لا أسألُ من الحروف شَيئاً عندما تَتجلَّى بكِ بهاءً. إنَّها كلماتي،... وهي فيكِ، دليلٌ على أنِّي أتنفّس،... تظهرُ شعوراً، فيقشعّرُ به قلبٌ. نَعَم، وَلكِ أَعترفُ، أنِّي لا أكتبُ فيكِ شيئاً لا يُذْكَر. لقد تجسَّدَ خَيالُكِ في عوالمي روحاً، فأَصبحتُ إنساناً. وهكذا فَعلتُ: مَزجْتُ حكايتي بطابعي الإنسانيّ، ولم أخرج عن ذلكَ البُعْدِ الاستعماليّ في سُؤالي!. فهل وَضعْتُ النِّقاطَ على الحُروف؟!.

إنَّ نفسي تساورني محاورة: لا تفتّش عن التَّداوليَّة حدّاً ماهويّاً؟. إنَّها إشكاليَّة كإشكاليَّة اللُّغة، وسؤالها، الذي لا يُعرَّف[١٢٥]!، وكإشكاليَّة النَّصّ، والنَّصِّيَّة، التي تتأبَّى على الحدّ[١٢٦]!، وكإشكاليَّة الخطاب، الذي يعارض القيد[١٢٧]... وهي في عمومها كعموميّات الكلمة[١٢٨]، والمعنى(*) والسِّياق[١٢٩] وإشكاليّاته المتغيّرة التي تستعصي على منطق الضَّبط!، إنَّها كالمعرفة وفلسفة إشكاليَّاتها التَّصوُّريَّة والإدراكيَّة: تشكيلات، وتنوُّعات... وإذا أردتَ، بعدُ، كوناً في عموم أعمّ من ذلك كُلّه، ولكنَّه يناقض نفسه، فيكون خاصّاً في بعض الأحيان، فهي كالإنسان الذي يشكِّل قَطب الرّحى لهذه الإشكاليَّات والمقولات كُلّها، تأسيساً ونظراً، منه وإليه، وكالعالم، كالحياة، و...!.

ما الحياة؟، ما الرُّوح؟، ما العالم؟، ما الإله؟... ما الإنسان إذن؟. وهل يبحثُ الإنسانُ عن نفسهِ فيها؟. هل تحوَّلت التَّداوليَّةُ من كونها "الهيُولي"[١٣٠] إلى فلسفة...؟!. إنَّ جذورها المِسماريَّة الأولى فلسفيَّة صحيح، ولكن أن تكون هي الأصل... إنَّه نظر "باليوغرافي"[١٣١]، رُبَّما، يُسجِّلُ قراءةً!.

وكأنِّي أَتصفَّحُ روايةً عن متاهةٍ – والروايةُ متاهة – يدير أحداثها رواةٌ، بتعدُّديَّة أصوات،... بلا زمكانيَّة، بل في فضاءٍ من معنى،... منهم فلسفيّ، ومنطقيّ، ولغويّ،... وبلاغيّ، وأديب، وسيميائيّ، وسيكولوجيّ، واجتماعيّ... أدركوا أنَّهم في متاهةٍ، وأنَّها لغزٌ، وتيقَّنوا أنَّهم هم مَن ينبغي عليهم حلُّها. ذهبوا بعد اجتماعٍ بانتظامٍ، متفرقينَ،... كُلٌّ منهم يَبحثُ في مجالهِ، رغبةً في أن يجدوا مِن سرّها هدفاً فمخرجاً، ولكن بلا تفاعل، أو مشاركة لما يصل إليه أحدٌ منهم فيها،... إلى أجلٍ مُسمًّى،.. باتت أوراقُهم مبعثرةً في كلّ مكان،... وهي إذ تُخبر عن اشتغالٍ وملاحظَ باجتهادٍ، تنتظرُ مَن يكشفُها جمعاً وقراءة، فإذا بسرّها نفسِه، يتجلَّى يتجسَّدُ،.. يكشفُ غطاءً عن ذاتهِ فيها، تارةً بصورة لُغةٍ، وأخرى بحياة،... وأُخرى بإنسانٍ يعود إليه،... وأُخرى على مدار سؤالٍ: عمَّاذا، ولماذا؟، ولأيّ هدفٍ هذه المتاهة؟!،... على أنَّ ما يلفت النَّظر من إحدى تلك الأوراق، أنَّها كانت تبحثُ عن سرّ في تداوليَّة الإله حكمةً،...!!.

وأسرَّها في نفسه، هل ثمَّة تداوليَّة للإله،...؟!.

ألَا ليتَهم كانوا، يتشاركون ما يصلون إليه من كشفٍ لتلك الأسرار التي شكَّلتْني عوالمَ،... ليتَهم انطلقوا متعاضدينَ بـ"عقل جمعيّ"،... لكانَ ثمَّةَ مخرجٌ بمنطق واستدلال إلى هدفٍ وغاية!.

الآن حَصحَصَ السرّ، أنا راودتُهُ عن قلمهِ، ولكنَّه لم يستعصم، فدَخَلَ البحثَ، بلا حين!.

هل سأخرج يوماً من هذا الكهف،.. سأرى حقيقةً إذن، وأيّ حقيقةٍ بلا ظلالٍ، أو تزاورُني الشّمسُ ذاتَ اليمين وتقرضُني ذاتَ الشمال،...؟. هل سأبقى في بطنِها أبحثُ عنها في تسبيحٍ،... أو ينبذُني الحوتُ في عَراء، فتنبّتُ شجرةُ اليقطين معرفةً، يظلنُي يفنُها؟... هل سأبقى في غَيَابَةِ الجُبِّ، أو أخرج منها مَلِكاً، مُعبّراً عن توصيفِ ما فيها من أحلامٍ ورُؤى،...؟. هل سألتقي بها، أو تبيضّ عيناي من البحث عنها؟. هل سأخرجُ من محرابها بإشارةٍ، بكلام، أو سأبقى قائماً بقراءة صِلاتها،...؟. هل سيُقضى الأمر فيها، وأرسُو على جُودِيّ، أو سأبقى في بحار البحوث المتلاطمةِ بلا إقلاعٍ من وحي سماءٍ، أو نتائج من أرض؟... هل سَتُنْبِئُني بلقاءِ ذات الصَّخرة، أو سأَمضِي عن عينِ الحياة بلا كأس،... فيتّخذ الحوتُ سبيلَه في البحرِ سرباً، بلا معرفةٍ لسرّ فيها، أو حلٍّ للُغز منها، عجباً؟. هل سأوثّقُ عقْداً وأَبقى أَسأل،... أم تفارقُني

لجَهلٍ مني بالغيب، بالقَدَر؟. ليتَ أمي لم تقذفني في التَّابوت، في اليمِ،...!. ليتَها آنستْ بي مُسمًّى موسوماً بعلامة وسمة؟.

تذكَّر مستحضِراً جنَّةً كان فيها رغيداً: ألا ليتَني لم آكل من الشَّجرة الأولى،... ولم أكن لأخدع بحوارٍ معسولٍ مسموم فيه قسم، أَلَا ليتَني اكتفيتُ بصدِّ فضولي، وأخذتُ بنصيحة ربّي، ولم أقتربْ منها؟. لقد كان خياري سيئاً،... لقد نزلتُ،... أَطفِقُ أَخصفُ عليَّ من ورقِ الأبحاث...!.

هل سيتوبُ عليّ ربّي إن سألتُ، ويغفر لي بالتَّكليف إن وجدتُ؟. هل سيكفي زادي القِرائيّ فيها، أو أقفلُ راجعاً؛ لبعد السَّفر؟.

ثمَّةَ تفاحةٌ،... استرجعَ خائفاً يترقَّبُ!،...

هناك صوتٌ من ضمير: إنَّها ليست تفاحةَ خروجٍ،... بل لَعلَّها تفاحةُ ولوج...!.

أيا خاطري، أرِح عقلي وجسدي... قلمي، ضَعفي، وتكسُّري!!. أَتراني أمتلِكُ أشجارَ الأرضِ، أم صحائفَ السَّماء،.. ما أنا إلا عبدٌ صغيرٌ، لا يتوقَّفُ وجودُه إلا على هَواءٍ لا يملِكُه؟!.

لقد آلت الأبصارُ إلى تداوليَّة السُّؤال تارةً أُخرى!.

. لماذا لا تتوقَّف عن طرح أسئلةٍ ليس جوابُها يسيراً أبداً؟!. كأنَّك طفلٌ،..!.

. لله درُهُ إذن، إنَّه يفكِّر!... الأشياء؟، لِمَ،... وكيفَ تعملُ؟، وكيفَ تُستعمَلُ؟!.

. أَوَتُدرِكُ ما تعنيهِ أسئلتُكَ؟!.

. قد لا أعلمُ!،.. ولكنِّي أُحاولُ،... فَلِكي أَفْهَمَ ينبغي عَليّ إذن، أن أسألَ... فيطمئِن قلبي، والدَّليل براءتي!. أكانت معرفتي خاطئةً حين رَكَزَتْ قاعدتُها على استفهامٍ... إنَّ مَن يُكثِر قرْعَ البابِ يُوشَك أن يُفتحَ لَه؟!. ما رأيُكَ...؟!. أم أنا من "المُهرطقين"؟!. ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ، لَأدرَكتُ حقيقةَ المعنى والقصدِ قَطعاً، وما التجأتُ إلى السُّؤال والتَّأويل أبداً؛ لإمكانِ سوءِ الفَهْمِ احتمالاً...!.

ولستُ أدري، هل سأبقى أدورُ في حلْقة مفرغة، كـ"طائر الفينيق"[١٣٢]!، أبحثُ في تداوليَّة السّؤال، منها، وعنها، بلا انتهاء،... لقد ضاعت معالمُ البحث وسماته إذن، إنَّه يجري على بياضٍ في وقت قصير. أو استرجعُ قول "يان هوانغ" نفسه، مستحضراً ما كان من عُدّته في "معجم أوكسفورد للتداوليَّة": "ليس بمقدور أيّ شخص أن يكون متخصِّصاً بالفعليّات كلِّها"[١٣٣]. أليست التَّداوليَّة في تحديدها الموضوعيّ: النَّوعيّ، والكيفيّ، والكمّيّ،... متعدِّدة، تنوُّع رُؤى، ومجمع ثقافات!. أو كما في عبارة "فرانشيسكو يوس": "التَّداوليَّة فسيفساء متعدِّدة التَّخصّصات"[١٣٤].

ما لها كأنَّها قالبُ ثلجٍ، فإذا ما وُضِعَت تحتَ أشعة البحث، تبخَّرت...!. وهل يمكن جمعُها؟، وإذا كان بإمكان ذلك، فهل تعود كماءٍ، بلا طعمٍ، بلا لونٍ، بلا رائحة،...!؟. حقيقةٌ تؤصِّل حياةً، وكما بدأنا نعود!.

وكأنِّي أرقُمُ في ماءٍ، أو أكتبُ في هواء، فلا صورةَ، ولا تجسيدَ،... أينَ يمكن أن أعثر عليها؟، كيفَ لي أن أُمسكَ بها؟!. سمكة تنفلت من قبضة اليد بلا شِباك!،... كيفَ لي أن أرتوي منها، وهي بحر، كُلَّما شربت منه أزدت عطشاً؟!... وما لها، لله شأنُها، تعطيك أملاً،... ثُمَّ ما تلبث أن تستردّه منكَ، قهراً، تبقى حائراً... بين حقيقةٍ وسراب؟!. إنَّها جدلٌ قائم على مفارقاتٍ: تجلٍّ وخفاء،... لا يستوي فيها الضِّدُّ تسميةً، إلَّا بآخر!. وإذا ما تكوَّن بها مبتدأٌ ضاع خبرُه؛ كأنَّها تربَّعت على عرش غيبٍ، لا تظهر،...!. سرٌّ فَخَرَ نفسَه بالصَّمتِ لغةً، فاختَزنَ لُغْزاً.

يا لبوصلتي تشيرُ إلى كلّ الأبعادِ والاتجاهات بلا فرقٍ، بلا امتياز،... كأنِّي تائه على قاربٍ في بحرٍ لُجِّيّ، بلا هادٍ أو دليل... أَلَا ليتَ خرائطَ السَّماءِ تُسعفُني!...

أين التَّداوليَّةُ إذن؟. لا توجد تداوليَّة!. إنَّها وهمٌ تصدَّرَ مشهدَ اليقين!.

لقد قامتِ القيامةُ إذن، مأواكَ جهنمُ، وبئسَ المصيرُ!. لقد خرجتَ من سوارِ العقل إلى الجنون!. تبّاً لكَ!، كيفَ تجرؤ!!؟. إنَّك سبلتَ منها تعريفها الذي اتفق علماؤها أنفسهم – وهو اتفاقهم الوحيد فيها – على أنَّه لا يُرسل تصديراً إلَّا مقروناً بنقدٍ، أو مصحوباً باعتراض، أو موسوماً بعدم رضا...، بل بمجمع من إشكاليّاتٍ لا تُقيّدها إجاباتٌ مقنعةٌ لحظةً بعد سؤال!، وكأنَّهُ هُدِمَ بهم "برجُ بابل"[١٣٥]، فَبَلبَلَ بعد ألسنتِهم تداوليّاتِهم!. لا سلطانَ لكَ، لا برهانَ لديكَ!. ستُعاقَبُ على التَّأويلِ، كما ستُعاقَبُ على البحثِ والتَّنزيل!.

عجباً، إنْ أناْ إلّا بشرٌ يسألُ، يَستَفْهِم!... فتحتُ نافذةً على عوالمَ من أسرارٍ، فخطرَتْ في بالي كلُّ حروفِها في الإنشاء، وعلاقاتها في النَّظم والتَّكوين، ولكنِّي لم استطع أن أنتقي منها شيئاً... سوى هذا الاعتراف، وهو أنِّي لا أُجيدُ الكتابةَ فيها إلَّا سؤالاً...!. فهل كانَ سؤالي عنها ذنباً أو خطيئةً،...؟، وهل هي منه باستثناءٍ؟!. أَلَمْ يحكموا بمنطق الاتِّساق ملازمةً ومناسبةً: أنَّ السّؤال يقتضي إجابةً؟!، فإذا كان الأمر كذلكَ، فهل الإجابةُ عنه خطيئة...؟!.

وعلى فرْض أنَّها استثناء من ذلكَ،... أَليستْ هي شيئاً = تصوُّراً، يُسألُ عنه، يُذْكَر، أو لا، فلا؟!. إنِّي أُفكِّرُ فيها؛ إذن، فهي موجودةٌ، كما في منهج[١٣٦] "ديكارت"؟!. ولماذا أَسألُ عنها؟، هل أبحثُ عن ذاتي فيها؟!. إنِّي لم أقطعْ عَهْداً وأَبدَأ بالسُّؤال، حتَّى أَحدَثتْ هِي لي مِنهُ ذِكْراً، فَطلبتُ أنقشُ بإزميلِ شريعتي استفهاماً...؟!. لقد عملتُ على أنْ أُضيءَ ذاتي بشيءٍ من فكر، بعد أن أدركتُ أنَّ "العقلُ هو أحسن الأشياء توزُّعاً بين الناس (بالتَّساوي)... [تلك] الحقيقة التي تُسمَّى بالعقل أو النُّطق، تتساوى بين كلّ الناس بالفطرة، وكذلك يشهد بأنَّ اختلاف آرائنا لا ينشأ من أنَّ البعض [كذا] أعقل من البعض الآخر، وإنَّما ينشأ من أنَّنا نوجّه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كلٌّ منّا في نفس ما ينظر فيه الآخر؛ لأنَّه لا يكفي أن يكون للمرءِ عقلٌ، بل المهم هو أن يُحسن استخدامه،..."[١٣٧]. وهأنذا أعملُ على استعماله ليس أكثر، بعد أن أفرَغتُ "سَلَّةَ التُّفاحِ"؛ لأُعيدَ ترتيبها من جديد!.

ولستُ أدري، هل سأبقى تائهاً في فَنَن هذا الاستفهامِ وجدل افتراضاته، كحيرة "ابن جني" وسؤاله اللُّغة الشَّريفة، بحثاً عن حكمتها ومقاصدها الباهرة[١٣٨]: أأنتِ سماويَّة، أم أرضيَّة، أم محاكاة؟، "فأقف بين تينِ الخَلتَّين حسيراً، وأكاثرهما، فأنكفئ مكثوراً..."[١٣٩]. أو أحاول أن ألتمسَ من حكمة "الخليل" وقراءته، اجتهاداً، فلسفةَ الرجل الحكيم[١٤٠] في وصفه رسومها، وهندسة نظمها، وتكوثر علائقها، وإبداع حكمتها[١٤١]، قطرةً من بحر!.

هل أقتربُ، أو اغتربُ من حقيقتها؛ إذا قلتُ: إنَّ الإجابة على إشكاليَّات الاستفهام تلك ستبقى غير منسجمة، بعيدة أن تكون بدالّ موحَّد بلا اختلاف؛ لأنَّها تنسج نفسها في ألوان من طيفٍ، لا تلتقط الفرشاةُ منه إلا لوناً واحداً حين التَّجلّي والظُّهور، وعلى مستويين من التَّوليف العقليّ للأفكار، عموديّ، وأفقيّ، الفراغ والإملاء، ثُمَّ استحالة نطق فكرتين معاً في الوقت نفسه، ثُمَّ ما في ذلك من عمق الإدراك، قراءات ومناهج مخصوصة بالنَّظر لا يكفّ فيها القول من إطلاق نفسه: إنَّها متعدِّدة تعدُّد كثرة كاثرة، فضلاً عن التَّداخل والاختلاط، وإلَّا سوفَ تتقلَّبُ التَّداوليَّةُ برحمةٍ من ربّك في سماءِ الفكر حائرةً تبحثُ عن قبلةٍ ترضاها.

أخشى أنَّي سأخرجُ من الطِّينِ اللّازب هذا بلا هيأةٍ، أو شكل،...!.

سأدعو ربِّي أن ينفُخَ فيه، تضرُّعاً!.

ينبغي عليَّ إذن، أنْ أُحوّلَ تداوليَّةَ سؤالي السَّاذج ذلك من توظيف "ما"، إلى استعمال لغة "كيفَ"، فيما يعرض، أو يطرَأ...!، إن صحّ لسانُه نَظماً، واستعماله تداولاً، يدلّ على معنًى؛ كي أقفَ، في الأقلّ، على سرّ منها!. ولعلِّي ارتقي منه إلى آخر في تداوليَّة من لغة "لِمَ"؟، أو لماذا؟، ولأيّ شيءٍ؟... أرجو ألَّا يخيبَ أملي، وتساقط عليَّ رُطَباً جَنيّاً!. فـ"بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا"[١٤٢]:

كيف تكون التَّداوليَّةُ إذن، وبأيّ شيءٍ تُعْنَى يا تُرَى؟.

اللَّوح الثاني

الخروج من مأزق الاختلاف في التَّوصيف الحدِّيّ

من المفهوم إلى الإجراء – تفسير مهمّات، وعقد آمال على رهانات ومسؤوليّات:

كيف السَّبيل إذن، للخروج من هذه المأزق والإشكاليّات الإبستمولوجيَّة التي أوجدتها التَّداوليَّة... نفسها في حدّ نفسها وتعيين مجالاتها المفاهيميَّة؟. وما الحلّ في مقاربة سياق لحقلٍ معرفيّ أخذ بذاته نحو التَّأسيس والنَّمو والازدهار، طامحاً لبناء نظريَّة؟. أيبقى الأمر فيها رهين النَّظريات الحديثة والمجالات البحثيَّة المتعدِّدة التي يَسِمُها مجموعُها الكُلِّيّ المتكوثر بـ"التَّداوليَّة"[١٤٣]، بلا عنوان اصطلاحيّ يدلّ عليها، دلالةَ اشتغالٍ، منهجاً، ورؤيةً، ثُمَّ وظيفة، ومهمَّة، وهدفاً، بعقلنة وفلسفة، أم ينحلّ بضياعها للعتبة الأولى التي تُمثِّل هُويّتها ومنطلق برامجها الأصوليَّة ومسؤولياتها البحثيَّة، ومشكلاتها السِّتراتيجيَّة؟. أ لها مبدأٌ تترشَّح منه، وتعود إليه قياساً، أو جهاز يُعبِّر عنها، خصائص وسماتٍ؟. ولماذا التَّداوليَّة، صوت الدَّرس اللِّسانيّ وخطابه الأخير الذي رهن نفسه مستقبلاً بها[١٤٤]، وهي لا تقع تحتَ مقولات الضَّبط والتَّقييد[١٤٥]؟!.

مِن أجل ذلك عُهِد لأُسس التَّفكير المنهجيّ، أنساقه[١٤٦]، مسؤوليَّة تعيين مفاهيمها، أعني: التَّداوليَّة، وتوضيح مبادئها على ساقٍ له أصول فلسفيَّة: نظريَّة وإجرائيَّة؛ فقدَّم التَّداوليُّون – وقد مرّ بنا بعضُها – على مختلف مشاربهم وانتماءاتهم الفلسفيَّة واتجاهاتهم الفكريَّة، تعريفات[١٤٧] كثيرة جداً لها، أخذت أشكالاً متنوِّعة، بمرجعيَّات متعدِّدة، ومفاهيم مختلفة، تمظهرت بثنائيّات ضدِّيَّة، تارةً تظهر بنحو عام، وفي محاولةٍ لجمع أشتات، وألوان معرفيَّة متباينة غير متجانسة، مستندة في أغلب تكوينها إلى أبجديات من تاريخها الأوَّل، وهو الأكثر منها، وتارةً على نحو خاصّ يلتزم أصولها المبدئيَّة وبحسب ما تبغيه أهدافها من مقاصد سياقيَّة ومقاميَّة، أو اعتمادها آليَّات للكشف، ووسائل للبحث عن المعنى التي عجزت الوحدات اللِّسانيَّة عن تفسيرها وتحليلها بعد الرّصد والملاحظة، وتارة أُخرى شارحةً لمجالاتها الإجرائيَّة بنصِّيَّة من أمثلة كلاميَّة افتراضيَّة، يُختَبر بها إمكاناتها البحثيَّة ومدياتها الاشتغاليَّة، اتفاقاً أو افتراقاً، وامتيازها في كونها هي المسؤولة للإجابة عنها. يقول "ليفنسُون": "استُخدِم المصطلح براجماتيَّة بمعانٍ مختلفة عدّة، تنطلق جميعها من تقسيم موريس الأصليّ للسيميوطيقا: بحث الكم الضَّخم من ظواهر نفسيَّة واجتماعيَّة، ترد في أنظمة علاماتيَّة بوجهٍ عام أو في لغة مميزة... أو بحث تصوّرات مجرَّدة محدَّدة تستند إلى عناصر أساسيَّة... أو بحث المفاهيم المؤشرة أو الإشاريَّة..."[١٤٨].

ولعلَّ التأمُّل بما وضعه "جين إتشسن" للأبحاث التَّداوليَّة من فصول كتابه "اللِّسانيّات" في عتبة "الدَّوائر الخارجيَّة" من جانب، والتَّنقُّل بين مفاهيمها وما تدلّ عليه من عدم الثَّبات لإمكاناتها الاحتماليَّة من جانب آخر، دليل آخر يوضّح بعضاً من هذه الرُّؤى المتضاربة، ويجلي بعضاً من إشكاليّاتها التَّصوُّريَّة، يقول "إتشسن": "تُمثِّل "التَّداوليَّة" [١] فرعاً من فروع "اللِّسانيّات". وهو الفرع المعنيّ بدراسة جوانب المعنى التي لا يمكن الوقوف عليها، عبر التَّحليل الذي تُقدِّمه النَّظرياتُ الدَّلاليَّة المختلفة. [٢] وإجمالاً، يمكننا أن نقرّر أنَّ "التَّداوليَّة" تبحث في الكيفيَّة التي يوظِّف بها البشر اللُّغة، على نحو لا يمكن التَّنبُؤ به عبر المعرفة اللُّغويَّة وحدها. [٣] فإنْ شئنا تحديداً أدقّ، قلنا: إنَّها تبحث في الكيفيَّة التي يتوصَّل بها سامعو الكلام إلى المعنى الذي يقصده المتكلّمون (= المعنى المراد). [٤] وأمَّا إذا اجتزأنا بالتَّحديد العام لموضوع هذا الفرع المعرفيّ، فيمكننا القول بأنَّه يتعامل مع المبادئ العامة التي يتبعها النّاس، حين يتواصل بعضهم مع بعض"[١٤٩].

ومهما يكن مِن أمر، فإنَّ ما طُرِحَ من تعريفات للتَّداوليَّة، يمكن أن يُقسَّم على نوعين رئيسين؛ الأوَّل: محاولات لرسم خرائط للخروج من متاهاتها الحدِّيَّة والتَّعريفيَّة، أو كشفٍ لبعض من قضاياها المحوريَّة والمركزيَّة، والثاني: اقتراحات لمعالجات تصحيحيَّة، في ضوء رُؤى معرفيَّة لبناء نظريَّة دراسةً ومنهجاً. وهل تُرِكَ ما أفضى إليه كلٌّ من النَّوعين؟!، لقد

قُطِفَت ثمار من نتائج، ثُمَّ جُمِعَت رُؤى في مباحث وفصول تمهيديَّة، كتَبَت لنفسها أن تكشف سرَّها وتعريفها، بيد أنَّها لم تخرج إلا مقاربات، يصاحبها النَّقد والاعتراضات من دون تقديم البدائل، جمعاً بلا تفريق.

على أنَّ مفتاحها الأوَّل، الذي يُعدّ المنطلق الرئيس – وذُكِر آنفاً – لكلّ أبجدياتها إجمالاً وتفصيلاً، هو ما وضعه الفيلسوف الأمريكي "شارلز موريس"، في تقسيمه الثلاثي للاختصاصات التي تعالج اللُّغة: النَّحو، والدَّلالة، والتَّداوليَّة، وتوصيفه الأخير بكونه جزءاً من السِّيميائيّات، التي تهتمّ بعلاقة العلامات بمستعمليها، أو مؤوليها[١٥٠]، ثُمَّ جاءت من بعدُ كلّ قيم التَّوصيف الحدِّيّ، متخذةً من شيوعه المعرفيّ مذاهبَ واتجاهاتٍ، لم تكن فيها مقولة خالصة من لون نقدٍ.

فمن ذلك مثلاً ما طرحه "فيرشورن"، محدّداً لأبعادها، قائلاً: "تدرس التَّداوليَّة السّلوك اللَّفظيّ الإنسانيّ، والبُعد الذي تدرسه التَّداوليَّة هو الصِّلة بين اللُّغة وحياة الإنسان بشكل أعمّ. لهذا فالتَّداوليَّة هي الصِّلة بين اللِّسانيّات وباقي العلوم الاجتماعيَّة"[١٥١].

وكذلك ما قدَّمه "فان دايك" كوحدة معالجة للنصّ بالسِّياق تكويناً وفهماً، يقول:

١. "التَّداوليَّة كأكبر مكوّن ثالث لأيَّة نظرية سيميوطيقية semiotic ينبغي أن تكون مهمتها دراسة العلاقات بين الرموز والعلامات والمستعملين لها، وإذا كانت التَّداوليَّة متمايزة عن علم النفس والعلوم الاجتماعية، فإنَّ هذه لا تخبرنا إلا بشيء قليل عن غرض الوصف والتَّفسير..."[١٥٢]. ٢. "تعالج قيود صلاحيَّة منطوقات لغويَّة (أو أفعال كلامية) وقواعدها بالنسبة لسياق معيّن، وبعبارة أكثر إيجازاً: تدرس البراجماتيَّة العلاقات بين النَّصّ والسِّياق"[١٥٣].

وما قدَّمته "جيني توماس"، في النَّظر إلى المعنى وطرائق الكشف عنه، تقول: "حدّها المعنى في إطار الاستخدام، أو المعنى في إطار السِّياق"[١٥٤]. وكذلك "جيوفري ليتش"، في وضع أسس لتداوليَّة عامَّة، يقول، بعد تمييزها عن السّيمانطيقا موازنةً: "تتمايز عن السّيمانطيقا بكونها تختصّ بالدَّلالة في علاقتها بموقف فعل كلاميّ"[١٥٥]، وبناءً على مقدّمة وتمهيد، يقول: "إنَّها تدرس كيف أنَّ ضروب التَّلفُّظ بالعبارات تكون لها دلالات في مواقف معيَّنة"[١٥٦].

وهو الأمر الذي تتواثق نتائجه مع تعريف "كريستال" في قول: "دراسة العوامل التي تحكم اختيارنا للغة في التَّفاعل الاجتماعيّ وتأثيرات هذا الاختيار في الآخرين"[١٥٧]. ثُمَّ "جون ليونز" في تكميل علم الدَّلالة الشّكليّ، وتوصيفه مُتمِّماً للتَّداوليَّة، في قول: "(دارسة الأقوال الفعليَّة) أي: دراسة الاستخدام أكثر من المعنى، دراسة جانب المعنى غير المتصف بشروط الصِّدق بصورة بحتة، دراسة الأداء أكثر من القدرة... إلخ"[١٥٨].

وما تحدَّثَ به "فيليب بلانشيه"، مستنداً إلى أصول ومرجعيّات، يقول: "في الغالب، فإنَّ التَّداوليَّة تُعرَّف عموماً، كما يلي[١٥٩]:

١. "في الموسوعة الكونيَّة": "التَّداوليَّة هي مجموعة من البحوث المنطقيَّة اللِّسانيَّة...، وهي كذلك الدِّراسة التي تُعنى باستعمال اللُّغة، وتهتم بقضية التّلاؤم بين التعابير الرمزيَّة والسياقات المرجعية والمقامية والحديثية والبشرية". ٢. عن "أ.م. ديلر": "أنَّها تمثّل دراسة تهتم باللُّغة في الخطاب، وتنظر في الوسميات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التَّخاطبي". ٣. عن "ف. ريكاناتي": "دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابيَّة وتواصليَّة واجتماعيَّة، في نفس الوقت". ٤. عن "ل. سفز": "هي الدراسة أو التَّخصص الذي يندرج ضمن اللِّسانيّات، ويهتم أكثر باستعمال اللُّغة في التَّواصل".

وأمَّا "أوزوالد ديكرو"، فقدَّم "التَّداوليَّة" مفهوماً بنقدٍ في ثلاثة أماكن، بمعنين أساسين، الثَّالث مشتقّ منهما، وصفاً، وجهازاً مرجعيّاً عاملاً في التَّحليل ومدى مقاربتها من ذلك، وبَعْدَ سؤالٍ: عندما "يكون علينا أن نصف لغةً من اللُّغات،

فضمن أيّ مقياس يجب أن ننظر إلى الغايات المختلفة التي يستطيع المتكلِّمون استخدامه فيها؟"[١٦٠] – قدَّمها على نحو ما يأتي:

١. في "مكوّنات الوصف اللِّسانيّ"، يقول: "تدرس التَّداوليَّة [وَوَصَفَها برقم ١] كلّ ما يعود في معنى العبارة إلى المقام الذي استُخدِمت فيه العبارة، وليس فقط إلى البنية اللِّسانيَّة للجملة المستخدمة"[١٦١]. مضيفاً: أنَّ اللُّجوء إلى المقام من أجل التَّأويل غالباً ما يكون منصوصاً عليه وتحدّده المادَّة اللِّسانيَّة"[١٦٢].

٢. في "مقام الخطاب"، يقول: "إنّنا لنعرف التَّداوليَّة غالباً بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة... ثُمَّ مفهوم آخر، أكثر قرباً من الاشتقاق، وليس متميّزاً دائماً من الأوَّل، حيث تكون التَّداوليَّة هي دراسة إمكانات العمل المسجَّلة في اللُّغة"[١٦٣].

٣. في "اللِّسان والفعل"، يذكرُ: أنّنا لنعطي أحياناً اسم التَّداوليَّة لدراسة استعمال اللِّسان[١٦٤].

وأمَّا "سِتيفِن ك. ليفنسُون"، فكان بناؤه "للبراجماتيَّة التَّداوليَّة" وقفاً على بيان ما تعالجه التَّداوليَّة، وبيان مجالاتها المختلفة، وهو مَطْمَحُه هدفاً، وسنأتي إليه؛ لذا لم يكن شرح حدودها بخمسة عشر رقماً التي قدَّمها تلبّي له مطلباً، إلَّا مقترناً بنقدٍ مُوجّه، أو مصاحباً لاعتراض بدليل، وإن كانت بعضها أكثر مقبوليَّة بوصفهِ؛ لأنَّها تعيّن "حدود مجال البراجماتيَّة اللُّغويَّة بشكل تقريبيّ"[١٦٥]، أو تكاد تكون، فحسب، ومن هذه الحدود ما يأتي:

١. أنَّها بحث تلك المبادئ التي تفسِّر لماذا تكون مجموعة معيَّنة من الجمل منطوقات شاذَّة أو غير ممكنة[١٦٦].

٢. بحث اللُّغة من منظور وظيفيّ، أي: يحاول أن يفسِّر مظاهر البنية اللُّغويَّة بالاستناد إلى قوى وأسباب غير لغويَّة[١٦٧].

٣. تُعنى فقط بمبادئ الاستعمال اللُّغويّ، ولا ينبغي أن يكون لها أيّ علاقة بوصف البنية اللُّغويَّة[١٦٨].

٤. بحث تلك العلاقات بين اللُّغة والسِّياق، التي صُيِّرت نحويَّة، أو هي مشفَّرة في بنية لغويَّة[١٦٩].

٥. علم كلّ الجوانب الدَّلاليَّة التي لا تستوعبها نظرية دلاليَّة، هكذا: البراجماتيَّة = المعنى – شروط الصِّدق[١٧٠].

٦. علم العلاقات بين كلام وسياق، وأثرهما الأساس في شرح الفَهْم اللُّغويّ[١٧١].

٧. بحث قدرة مستعملي اللُّغة على ربط جمل بالسِّياقات التي كانت مناسبة فيها[١٧٢].

ولقد كان الممكن أن يكون كلّ حدٍّ من هذه الحدود توصيفاً لما يقوم به، وعليه، مفهوم التَّداوليَّة، فضلاً عمَّا فيه من أبعاد موضوعيَّة وأهداف؛ لسبب يسير جداً، وهو أنَّها مقولات علميَّة مسجَّلة لم تكن لتَصدُر مجازفةً، بلا موارد من تمثيل لخصائصها وسماتها أو تكوينات قائمة على ملاحظات وافتراضات إجرائيَّة سابقة على نتائج التَّوصيف من اللِّسانيين والتَّداوليين أنفسهم، ولكن من الغرابة أنَّ كُلّاً من هذه التَّعريفات وسواها لم يكن ليحظى بالرّضا والقبول، مفهوماً للتداوليَّة: وصفاً وتفسيراً ومعالجةً، بلا احتدام من جدل أو ردّ، وكأنَّ كُلّاً منها يمتلك سرّاً من جملة أسرار توَزَّعت أقساماً وأنواعاً موضوعيَّة على هذه التَّعريفات المختلفة، ولم يكن أحد منها كافياً؛ ليكون تاجاً أو عنواناً كُلِّيّاً دائماً على التَّداوليَّة يدلّ به عليها، بل إنَّ كُلّاً منها، كما تشير "جيني توماس"[١٧٣]، يُمثِّل مدخلاً فرعيّاً إلى ذلك المفهوم الموسوم بالتَّداوليَّة.

أقول إنَّ مَن يتأمَّلُ فيما تقدَّم من حدودٍ ورسوم لمفهوم التَّداوليَّة، ثُمَّ يقرأ استحالة وجودها بلا نقدٍ مُوجَّه لنقصٍ، أو خللٍ، أو عمومٍ، أو اشتراكٍ؛ إرادةً لاستقامة حدٍّ، جمعاً ومنعاً، وبحسب قانون التَّنظيم الماهوي، يجزِم قاطعاً أنَّها تمتنع عن التَّقييد، بل تأبَّى وبشدّةٍ أن تكون محصورةً بموضوع معيَّن فحسب دون النَّظر إلى آخر. وأنَّ مجمعَها الكُلّيّ ليشي بأمرين متضافرين معاً: الأوَّل: قدرتها على تنظيم مجالات معرفيَّة شتى من شؤون النِّشاط الإنسانيّ، ثانياً: خصوصيَّة ما تسعى إليه من الكمال اللامتناهي في تكوين دراسة شاملة لمركزيَّة امتيازٍ تقومُ عليها تلك الرسومُ التي وَضَعَت أَنفسَها في التَّداوليَّة، كُلّها، وهي اللُّغة، ميزة اختباريَّة تتمتع بها التَّداوليَّة لا توجد بسواها من المعارف الأُخَر سوى الفلسفة، هذا إذا لم نَقُل إنَّها هي في واقع التَّفسير والتَّحليل والكشف، كأنَّها أكسير متكامل لا يتجسَّد إلا باللُّغةِ في ضوء من فاعليّاتها. يقول: "فرانشيسكو يوس رَاموس"، وهو يؤصّلها وحدة جامعةً في ضوء تعدُّدها وانشطارها على جهات ومدارس، شكَّلت رفضاً لها:

"إنَّ هذا التَّعدُّد النَّظريّ،... يتمتع بالفعل بنوع من الوحدة، أي: الوحدة التي يمنحها له الأمل في دراسة اللُّغة خلال استخدامها،..."[١٧٤]؛ وهو ما تتمتع به التَّداوليَّة؛ ذلك أنَّ لها ميزةً جامعة، وهي البحث عن منظور شامل لدراسة اللُّغة[١٧٥].

ومن هنا يمكن القول، مقاربةً، إنَّ كُلّاً من الحدود المُتقدِّمة، فيما يبدو لي، ترفضه التَّداوليَّة بعد التَّفكيك؛ وإن وقَع في دائرة استفتائها وكان موسوماً لها تعريفاً علميّاً؛ وذلك لمحايثته، وعدم إيفائه، بل قصوره بما تطمح إليه من غايات وما نذرت له نفسها من أهداف؛ إكباراً لشأنها وعلواً لمقامها، حتَّى تلك النَّظريّات التي تُنشِئُها لنفسها رغبةً في فلسفة الاختلاف والمغايرة، يقول "جيوفري ليتش": لا "يكفي أن أُعرف التَّداوليَّة تعريفاً سلبياً، وكأنَّها مظهر واحد من مظاهر الدِّراسة اللِّسانيَّة التي لا يمكنُها أن تتلاءم مع اللِّسانيات الخاصة. بل الأحرى أنَّه ينبغي للإنسان أن يُنشئ النّظريَّات ومناهج الوصف ممّا يكون غريباً عن التَّداوليَّة ذاتها"[١٧٦]، هذا من جانب، ومن جانب آخر إمكان إجازة كُلٍّ منها تجوُّزاً واحتمالاً على نحو من سُلِّم الارتقاء في الالتقاء والنَّظر الجانبي ليس إلَّا، مع إقرار أنَّ جمعها الكُلِّيّ ذا الأبعاد المتعدِّدة، هو ما يَتمثَّل في مفهوم التَّداوليَّة لا العكس، سمةً عليا كـ"الطَّيف الشَّمسيّ"، الذي لا يكون بلون دون آخر، بل شاهدةً بالمجموع والاختلاف.

ولهذا ظَلَّت التَّداوليَّة تبحث عن بدائلَ حدِّيَّةٍ جدِّيَّة، صحيح أنَّ تمثيلها الموضوعيّ والمجاليّ البحثيّ إمكانُه كائن في المجموع المتقدِّم على نحو عام؛ عنواناً على النِّشاط الإنسانيّ ودراساته المختلفة في إطار اللُّغة وفاعليّاتها الكبرى عموماً، وهو، بلا شكّ، ميزةٌ فيها، وامتيازٌ لها، ولكن صحيح أيضاً أنَّه يُشكِّلُ جدَلاً معرفيّاً عقيماً لا ترغب فيه التَّداوليَّة نفسُها؛ لأنَّ هذا الأمر بقدر ما يُشكِّل مجالاتِها المتعدِّدة، فهو أيضاً سبب إشكاليّ تفقدُ به صفاتها التَّكوينيَّة التي تسعى جاهداً لتحقيقها، بل لعلَّه يُشكِّل ظلماً لها أيضاً، كما يقول "أوزوالد ديكرو": قد أُظلِمَت؛ "لكثرة المعاني التي أُعْطِيَت لهذا المصطلح"[١٧٧].

أقول: ومن هنا لم تجد التَّداوليَّة عنواناً لنفسها يكون شموليّاً تتطوَّق به إلَّا باللُّغة(*)، وسيلةً ممثَّلة بالمعنى كُلّه، وقاعدة كبرى، وسمة عُليا على كُلّ المكوِّنات الأُخَر التي تضمَّنت وتشكَّلت فيها التَّعريفات والرسوم امتيازاً، كالتَّواصل، والوظيفة، والتَّلفُّظ، والسِّياق، والمقام، والمتكلِّم، والمخاطب، والاستعمال، وكلّ شروطها وعلاقاتها المُضمرة الأُخَر؛ وذلك لأنَّها تيَّقنت أنَّه لا منطلق لها إلا بهذا العالم . اللُّغة. يقول: "فرانشيسكو يوس رّاموس": "إنَّ صِلة الوصل بين مختلف المقاربات التي تندرج تحت مُسمَّى تداوليَّة هي الاهتمام المشترك بدراسة اللُّغة في وضع الاشتغال، وبالسِّياق، وبمجرى اللُّغة الأكثر تفاعليَّة... تحاول كلُّ العلوم، بهذا المعنى،... شرح اللُّغة..."[١٧٨]، وكيفَ لا تكون كذلكَ؟!. إنَّها هي مَن تقلبُ الواقعَ، وتغيّر الأحداث، بل مجريات السّلوك والتَّاريخ!. هذا إذا تركنا قول "روي هاريس": إنَّ اللُّغة... تُمثِّل المفتاحَ لفهمنا العالم حولنا"[١٧٩].

وقد يعترض أحدٌ منتقداً – ولا غرابةَ، إذ لا مجال من مجالات التَّداوليَّة، يخلو من نقد واعتراض، فلماذا لا يكون ثَمَّ أيضاً، إنَّه لأمرٌ جيد في مقاربات بنائيَّة وتقويميَّة؟ – لغرابة هذا الالتفات؛ لما لهذه اللُّغة/القاعدة المحوريَّة من إشكاليَّات العموم من جانب. وخصوصيَّة التَّداوليَّة في الاستعمالات اللُّغويَّة وعلاقاتها بالظَّواهر السِّياقيَّة من جانب آخر؛ وذلك لأنَّ اللُّغة مجالها النِّظام اللِّسانيّ الذي يتجسَّد بالتَّجريد وقوانينه المنطقيَّة عموماً، ولا علاقة لهذا التَّكوين الثَّابت بالسِّياق المتحرِّك، أو المكوّنات الأُخَر التي تمثَّلت بها الحدود. وأمَّا التَّداوليَّة، فلأنَّها فاعليَّات متحرِّكة في الاستعمال اللُّغويّ والسِّياق، ولهذا قاربت النِّظام اللُّغويّ مقابلةً؛ كأنَّها تسدّ نقصاً، أو خطأً فيه!.

أقول: إنَّ اللُّغة مقولة كُلِّيَّة اختزاليَّة، متعاليَّة جداً، معقَّدة جداً، كالإنسان، وهي، بلا شكّ، منه، وإليه، إنشاءً ومعنًى، قصداً وفعلاً، وغاية؛ بل هي، بداهةً، لا تكون بسواه، ميزة أخرى تتصدَّرُ به كلَّ أنظمة العلامات والإشارات والرموز. إنَّها النَّواة المركزيَّة التي تترشَّح منها كلُّ الأصول النَّظريَّة والعمليَّة: المجالات والمعالجات الاستعماليَّة: التَّواصليَّة، والحواريَّة، والبيانيَّة، والإبلاغيَّة والانفعاليَّة، بل في كلّ امتداداتها(**)... أقول: وإنَّها لكذلك؛ لأنِّي أفكر بها، وأمضي بها إنساناً:

متكلِّماً . متلقِّياً، ومجتمعاً، في سياقٍ، زماناً ومكاناً؛ لمعنى وفعلٍ، وقصد، وهدف، وغاية. لقد تمثَّلت اللُّغةُ إذن، فِيَّ فكراً وإحساساً وبياناً وإبلاغاً وتأثيراً، وفي هذه المكوّنات والملابسات التي تكتنفُها روحاً، وهي بدورها ظهرت فارتقت باللُّغة، ولولا اللُّغة لما كان لها محلّ من نظر ولا اعتبار من فكر، إنَّه لا معنى: قوليّ . فعليّ، بلا استعمال ودليل من لغةٍ، ولا إنتاج منهما ينتظر تأويلاً بلا لغة، وهل ثمَّة ثنائيّات بعْدُ، من كلّ ما تقدَّم وضعاً واستعمالاً بلا إنسان، ذلك المحور المركزيّ، الذي شكَّل نفسَه عوالمَ بلا قيْدٍ، فكراً وقصداً، باللُّغة. إنَّها ذلك الرحيق الذي تستقي منه التَّداوليَّات بداهةً، ومن ثَمَّ لا تكون به، مِن بعْدُ، نكرةً بلا مُعرِّفات!.

إنْ قلتَ، نعم، كُلّ شيءٍ ممَّا ذكرتَ يمكن أن يكون مستقلّاً بنفسه، إذ تبدأ بجزءٍ، ثُمَّ تنتهي به إلى كلٍّ، وهو ما يأخُذُ به النَّظرُ في التَّحليل والتَّركيب؛ لأنَّ الأمرَ كذلك في فلسفة البحث وأُسُسه العلميَّة، منهجاً ودراسةً، ولعلَّ فيه من النَّتائج الكبرى أيضاً.

أقول: هذا سديد جداً، وهو رأي جميل، ومستقيم أيضاً، ولكنِّي أدعوكَ، إن شئتَ أيُّها الكريم، مُتفضّلاً، إلى البحثِ معي عن التَّداوليَّة مفهوماً، وأينَ يمكن أن تكون فيما تقول موضوعاً وبحثاً، لعلَّنا نجد منها حظّاً!. ولا أقول لكَ، سيِّدي الكريمُ، إنَّ النَّتائجَ التي يُتوصَّل إليها بالاستقلال غير ناهضةٍ، بل لعلَّها كذلك؛ لأنَّها ممَّا يكون أو ينبغي في طبيعة البحث أصلاً، ولكن أَلَا تعتقدُ أنَّها تحتاج إلى جمع وتوحيد، ثُمَّ مقارباتٍ آخر، وليس إلى مقاربةٍ واحدة فحسب. إنِّي لا أقطعُ وردةً من حقلٍ، ولا أرفع سمكةً من بحر،... ولا كلاماً من لسانٍ، أو منه من لغة، ثُمّ أمزّقها مستويات وعوالم... كما أَفْهَمُ من قولكَ أنتَ، بلا نظرٍ لفاعليّاتها، وملحظ ما هو لها، وما هي له فيها، وما لذلك من أثر على نحو قيمتها وهويتها الكُلِّيَّة!. إنَّ القلبَ موسوم بوسم مكانهِ، وبما له من قدرات وظيفيَّة، وإلا فهو قطعة من لحم. وعلى أيّ حال لك حريَّة النَّظر والسّير على إيّ خريطة تقرأها، أو تنشِئُها!، إن شئتَ من النِّظام، أو مِن تنفيذه!. ولكن ما أجملَ أن تجمع بينهما نتائج: نظريَّات وممارسات!.

وكأنِّي بك الآنَ، تظنُّ أنِّي لا أفرّقُ مُميّزاً بين هذه المكوّنات، فلا فكرة لدي بما في عالم الدَّرس اللِّسانيّ الحديث، من أصول دراسة اللُّغة على نحو علميّ . نظاميّ . منهجيّ[١٨٠]، أو ما كتَب "دي سوسور" من مفارقاتها وخصائص ما تحت النّظم اللُّغويَّة، أو قواعد المفارقات وامتيازاتها، أو التَّداعي والتَّشكيل الخطِّيّ، أو ثنائيَّة: النِّظام، والتَّنفيذ، بشروط اللُّغة؛ بوصفها النِّظاميّ القياسيّ، والكلام؛ بوصفه الفرديّ، الاستعماليّ، أو "لوحة الشّطرنج"، وما في الدّائرة الكلاميَّة[١٨١]، أو ما يقارب ذلك، أو يوازيه من "فلسفة اللُّغة"، و"لعبة الكلمات"، عند "فِتجنشتاين"[١٨٢]، أو ما ابتدعه "جومسكي"؛ ردّاً، بمقولات المعرفة والعقل الإنسانيّ، وما فيه من متخيّلات البنية العميقة، والسَّطحيَّة، أو قدراته في "الكفاءة والأداء"، أو المعنى والاستعمال، أو ما تحتويه القواعد من المكوِّن: النَّحويّ، والدَّلاليّ والفونولوجي، أو القوانين التَّوليديّة والتَّحويليَّة[١٨٣]، أو ما تعرَّض له كلّ منهم من نقدٍ وبناء،... ثُمّ تصل من تلك الظُّنون إلى قناعة بالاتهام والتَّجهيل، بل إلى وقوعي في الشُّبهة، وعدم الفقه أيضاً،...!.

أقول: لا بأسَ، يا صديقي، لكَ الحقّ فيما تتصوَّر، ولا أحكم عليكَ، فلقد تعلمتُ من التَّداوليَّة سلوك "اللباقة والتَّهذيب"، وأعطتني باقةً من ملائكيَّة اللُّغة، وزهوراً من التَّعبير المؤدَّب في الخطاب!؛ فلعلَّ رأيي غريبٌ،... لأنِّي أفكر بطريقة ثانية، إذ أحاولُ أن أقتربَ من متعيّنات: كيفَ تشتغلُ التَّداوليَّة معرفةً؟، وكيفَ تُنفِّذُ ذاتها نسيجاً في المستوى الأفقيّ والعموديّ بالإرسال؟، كيفَ تخرجُ باللُّغةِ على هيأة خاصَّة، وأيّ لغة؟!. لرُبَّما أصلُ مِن ذلك إلى كنزٍ من آثارها بالحفر والتَّنقيب، مع الإلفات إلى أنَّ معاولي، قد لا تكفي!. بل قد تستهجنها "أركيولوجيا"[١٨٤] التَّداوليَّة؛ لضعفها، وقصورها!.

ولعلَّكَ يا صديقي، افترضتَ ممَّا أمضيتُ أيضاً، أنِّي أجعلُ كلّ ما في التَّداوليَّة مجمعها، وقفاً على اللُّغة، أو مرهوناً بها، ثُمَّ تفترضُ أيضاً، وكأنِّي بذلك أميلُ إلى جهةٍ، أو لتداوليَّةٍ معيَّنة دون أخرى!. الحقُّ أنِّي أؤمنُ أنَّ لكلّ شيءٍ لغةً،

ولغةً عليا،... يقوم بها وفيها، منها وعليها. إنَّ العالم كُلَّه لـه لغةٌ، لغةٌ خاصَّة، بآجروميَّة خاصَّة، ولكن أيُّ لغة؟!. هل هي لغةُ الإله؟!، ومتى كان الإله متكّلماً، صامتاً إلا بلغة(*)؟!،...

ولكَ بعدُ، أقولُ بلا تعقيد من عبارة: إنّي حين أفكّرُ، أترجمُ ما أفكّرُ فيه باللُّغة، فهل أنا في تداوليَّة "عرفانيَّة"، أو "لسانيَّة"[١٨٥]؟!. إنّي أكتبُ بلغةٍ تستلهم ذاتَها الطِّينيَّةَ من عيون العالَم كُلِّه، بلا فرْقٍ أو امتياز لِعَينٍ دون أُخرى، سَاَلتْ بقدرِها!. إنَّ التَّداوليَّةَ فاتحةُ يقين على حقيقة اللُّغةِ، حين كتبَت التَّداوليَّةُ على نفسها ألَّا تظهرُ إلا بكلّ ما تقولُه اللُّغةُ، وما تفعلُه اللُّغةُ باللُّغة. ولعلّي أُفاجِئُكَ ثمَّةَ، سيّدي الكريم، إنْ قلتَ لك: إنّي أظنُّ – وهو أمرٌ غريبٌ فيه مفارقة، وصادم أيضاً، وأحسبُهُ سيؤكّدُ اتهامَكَ السّابق لي موافقةً؛ لأنّي أبدو فيه متناقضاً حين وجهتُ نظريّ إلى كون اللُّغة فيها موضوعها، ومنها، وفيها، مع أنَّ نظرتي إليها كانت بأبجديَّة مفاهيم من لغةٍ عليا –: أنَّ التَّداوليَّة لا علاقة لها باللُّغةِ، خَطَأً، أو وحدةَ قياسٍ، تحليلاً وتفسيراً!. إنَّها بالنِّسبة للتداوليَّة بمنزلة القلب من الإنسان، وهي بالنِّسبة للغة بمنزلة الروح من الإنسان، ولا إنسانَ بلا قلبٍ، بلا حياة. ثُمَّ أقول: إنَّ التَّداوليَّةَ قصةٌ كتبتْ أحداثَ نفسِها بالإنسان في الأمس، واليوم، والغد، ولا قدر لها ولا قضاء إلَّا به موضوعاً وسرداً. إنَّها فلسفةُ تفسيرٍ لفعله، وإرادته: قبولاً ورفضاً، تنبيهاً واستجابةً وأثراً، تحت أشعةِ التَّواصل. وهل رأيتَ رملاً يتحوَّلُ إلى لؤلؤ؟!، إنَّه ذلكم فعل الإنسانِ كالمحَّار فيها!.

وأعودُ هنا، يا صديقي، لأخبركَ موثّقاً، مؤكّداً، إنْ سمحتَ، بما فهمتُ من قول "بنفنيست" – ولعلَّكَ وقفتَ عليه سابقاً – وهو يتحدَّثُ عن ذاتيَّة اللُّغة ومحوريّتها التَّواصليَّة وفاعليّاتها الإنسانيَّة، يقول: الذي "نجده في العالم هو الإنسان المتكلِّم، الإنسان المتكلِّم مع إنسان آخر، واللُّغة هي التي تقدِّم تعريف الإنسان نفسه،... إنَّ سيرورة الكلام تحتم تبادلاً، ممّا يفيد أنَّ هناك شيئاً ما نتبادله، ويبدو إذن أنَّه يؤدّي وظيفة أو ناقلة تدفعنا إلى التَّسرع في استبدالها بشيء معيَّن غير أنَّ هذا الدور يرجع إلى الكلام مرةً أخرى"[١٨٦]. ثُمّ يقول: "فلكي يؤكّد الكلام "التَّواصل" يجب أن يكون مؤهّلاً فيه من طرف اللُّغة، التي لا يمثِّل سوى تحقُّق لها،... فالإنسانُ لا يستطيع أن يتكّون باعتباره ذاتاً إلا في اللُّغة، لأنَّ اللُّغة تؤسّس وحدها مفهوم "الأنا" في الواقع. والذّاتيَّة... هنا هي مقدرة المتكلِّم على طرح نفسه باعتباره "ذاتاً"... إنَّ هذه الذاتيَّة ليست إلا ذلك الانتشار في كينونة خاصيَّة جوهريَّة للغة"[١٨٧].

أفتراه يا صديقي، يتحدَّث عن الإنسان، أم عن كائن آخر من كوكب آخر؟!، وهل كان رأيه هذا تكويناً إلّا بملحظ ما في ذلك الموضوع الذي يتحدَّث عنه، وهو اللُّغة، أداةً ممثَّلة في المعنى، في الإنسان، أو عمَّاذا كان يتحدَّثُ برأيك!؟. ولو عدنا إلى ما سُرِدَ من رسوم للتداوليَّة ابتداءً؛ لانكشف لنا الكثير ممَّا نحن فيه من وسمٍ لهذا الثالوث الكُلّي الأبعاد: اللُّغة ـ المعنى . الإنسان. ذي القوائم المنفتحة، ولا أقول لا قيمة لما في التَّعريفاتِ من الفصول والمكوّنات الأُخَر، بل إنَّها متضمَّنة في هذه المقولات الكبرى اختزالاً(*)، وإلا سوف نظلُّ نفتشُّ عن مفهوم للتَّداوليَّة إلى زمنٍ ليس فيه قيامة.

ولكي أثبتَ ما استقرَّ عليه ظنّي في ذلك مقاربةً، أعرضُ لك مستندين في معالجة وتفسير:

المستند الأوَّل: ما ذكره "جيوفري ليتش"، وهو في توثيق أطروحة لما تقدِّمه التَّداوليَّة من حلول "ضمن برنامج كُلّي لدراسة اللُّغة كنظام تواصليّ"[١٨٨]، وقناعته "بأنَّه لا يمكن أن نَفْهَم حقيقة طبيعة اللُّغة إلا إذا فهمنا التَّداوليَّة، وهي كيف نستعمل اللُّغة في التَّواصل"[١٨٩]، ثُمَّ قراءة الإمكانات التي تعتمدها في التَّفسير حتَّى ظهرت لديه بمفارقة ومقاربة، يقول: "إنَّ التَّواصل قائم على وضع الإشكال وحلّه. فالمتكلِّم من حيث هو متواصل يتعيَّن عليه أن يحلّ الإشكال: "وبافتراض أنّي أريد أن أحدث مثل هذا الأثر وهذه النتيجة بالتأثير على وعي المخاطب، فقد يكون التَّساؤل: ما هو أفضل طريق لإنجاز هذا الغرض باستعمال اللُّغة؟"، وبالنسبة للمخاطب، يوجد نوع آخر من المشاكل يتعيَّن عليه أن يحلّها وبتسلمينا بأنَّ المتكلِّم يقول هذا الشّيء أو ذاك، فماذا يعني بقوله هذا حتَّى يفْهَم ما قاله بالنسبة إليّ؟"[١٩٠].

ولا شكَّ في أنَّ هذا الاستعمال قائم على ما في مقولة اللُّغة كُلّها؛ لأنَّ تصوُّر المتكلِّم وتخطيطه لإنتاج عبارة ما في موقف ما، يقتضي تأويلاً من المخاطب، وكلامهما بلا شكّ أيضاً، قائم على ذلك النَّشاط الفكريّ . الاستعماليّ للُّغة، بل لا يكون إلا به بداهةً، ولهذا يقول "ليتش": "تتضمَّن التَّداوليَّة حلَّ المسائل من وجهة نظر المتكلِّم والمخاطب معاً. فمن وجهة نظر المتكلِّم، فإنَّ المشكل هو تصوّر وتخطيط (فإذا افترضت أنِّي أريد أن أغيّر الحالة الذهنيَّة للمستمع وأن أبقيها على هذا النَّحو أو ذاك، فكيف أنتج عبارة تجعل من الممكن حصول النَّتيجة؟)، ومن وجهة نظر المخاطب فإنَّ المشكلة هي مسألة تأويل: (فإذا افترضت أنَّ المتكلِّم تلفظ بالعبارة كذا فما هو السبب الداعي إلى حفز المتكلِّم إلى أن يتلفّظ بهذه العبارة؟) وتكون طرق حلّ الإشكال مختلفة تمام الاختلاف في هذه الحالات"[١٩١].

وأمَّا عن قراءة ما تعتمده التَّداوليَّة من العناصر التي تحدّد موقفاً للدلالة في الفعل الكلاميّ، فيذكر "ليتش": إنَّه لما كانت التَّداوليَّة تدرس الدَّلالة في علاقتها بموقف فعل الكلام، وكيف أن ضروب التَّلفُّظ بالعبارة تكون لها دلالات مختلفة في مواقف معيَّنة كانت الإحالة إلى وجه واحد أو إلى أكثر من وجه واحد من وضعيَّة أو موقف فعل الكلام هي المعيار المتخذ فيما يأتي[١٩٢]: ١. المرسلون، أو المرسَل إليهم. ٢. سياق التّلفُّظ بالعبارة. ٣. غاية التَّلفظ ومراده. ٤. التَّلفُّظ بالعبارة كشكل للفعل، أو النَّشاط: فعل كلاميّ. ٥. التَّلفظ كإنتاج لفعل كلاميّ.

فمجموع هذا التَّكوين التَّفاعليّ الذي تتجلَّى به التَّداوليَّة، هو ما تعيّنه اللُّغة في استعمالها، وهو ما خلص إليه "ليتش" نتيجةً، يقول: "ممَّا سبقت الإشارة إليه من عناصر (I) المتكلِّم والمخاطب (II) الغايات و(IV) قوة فعل الكلام و(V) التَّلفظ بالعبارة يمكن أن يؤلِّف مفهوماً عن موقف فعل كلاميّ، يشتمل كلّ تلك العناصر. وربَّما عناصر أُخرى أيضاً من نحو زمان ومكانه. فالتَّداوليَّة تتمايز عن السيمانطيقا بكونها تختصّ بالدَّلالة في علاقتها بموقف فعل كلاميّ"[١٩٣].

ولهذا كانت التَّداوليَّة عنده تبدأ بدراسة اللُّغة، وتنتهي متكاملة بها، محاولة لفهمها، وكيفيَّة استعمالها في التَّواصل المفعم بذلك المناخ المكوّناتي، أي: "دراسة استعمال اللُّغة باعتبارها متمايزة، ولكنَّها متكاملة مع اللُّغة ذاتها"[١٩٤].

أقول: هل ثمَّة بديل عن نشاط استعماليّ يظهر لولا خصوصيَّة باللُّغة، وفي اللُّغة، وما تحتكم إليه من سلطة، أو تقوم عليه من إمكانات تعمل على تحفيز كلّ العناصر التي اتفقت عليها مقولات الفكر اللِّسانيّ بضمن قاعدة إمكان الغرض المرسل في ضوء الوسائل والغايات. إنَّها النَّواة الأولى والأخيرة التي غرزها الإنسان في تركيب التَّداوليّات، لتصبح نشاطه، في ضوء لغة من "كيف"، بعد تحصيل "ما"، بداهةً؛ ولأنَّ لغة "ما" تجرَّدت فكراً فتمَّت في محاولات لتحقيق الثُّبوت، بقيت تداوليَّة "كيف" على طاولة التَّشريح اللُّغويّ استعمالاً. وكلّ ذلك بداهةً، إنَّما يجري حسابه في عالم اللُّغة، ممثَّلة بقدرة الإنسان وإرساليَّاته للمعنى. إنَّها سرٌّ من أسرار وجوده، وتمثيله وبقائه.

وأمَّا **المستند الثاني**، ففي قراءة ما تحتكم عليه نظريَّة "الفعل الكلاميّ" "speech act" من مكوّنات امتيازيَّة، تلك النَّظريَّة التي ابتدعها فيلسوف أوكسفورد "جون. ل. أوستين"[١٩٥]، على قاعدة: "أنَّ قول شيءٍ ما، على وجه مخصوص هو أداؤه وفعله. وبعبارة أُخرى أنَّ التَّكلُّم بكلام ما على وجه دون وجه هو أن نفعل شيئاً ما"[١٩٦]. وعلى محاولة لإجابةٍ عن تصوّر استفهام من قول: "كيف أنَّ قول شيء ما هو الأداء والتَّصرُّف، وبعبارة أخرى: أنَّ قولنا شيئاً ما، يعني أنَّنا قد تصرّفنا أو فعلنا شيئاً ما، أو على وجه آخر أنَّ النُّطق بشيء ما هو حصول تعلّق المفعوليَّة، إذ التَّصرُّف يحتاج في حدوثه إلى النُّطق... وهذا أمر واضح جداً. إنَّ النُّطق بشيءٍ ما في المعنى المعتاد، هو إيقاع الفعل وإحداث أمر ما، وهذا يقتضي أيضاً التَّلفُّظ بأصوات مقروعة، محمولة في الهواء، ثُمَّ... بكلمات مؤلَّفة بتركيب مخصوص، والتَّكلُّم، إنَّما ذلك كُلّه، هو الدَّلالة... يجمع المعنى والمرجع معاً"[١٩٧].

إنَّه قول رشَّح نفسه نظراً للُّغة باللُّغة، فصار نظريَّة إنجازيَّة(*)، اشرأبت إليها أعناق الدَّرس الفلسفيّ، واللُّغويّ . التَّداوليّ[١٩٨]، مع توكيدها أصولاً وثقافةً بأنَّه "لا توجد تداوليَّة مباشرة أكثر من هاته الدِّراسة"[١٩٩]، حتَّى أصبح الفعل التَّداوليّ "نواة مركزيَّة في الكثير من الأعمال التَّداوليَّة، وفحواه أنَّه كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ إنجازيّ تأثيريّ. وفضلاً عن ذلك يُعدّ نشاطاً ماديّاً نحويّاً يتوسّل أفعالاً قوليَّة Actes Locutoires لتحقيق أغراضاً إنجازيَّة Actes illocutoires (كالطلب والأمر والوعد والوعيد... إلخ)، وغايات تأثيرية Actes Perlocutoires تخُصّ ردود فعل المتلقِّي (كالرفض والقبول). ومن ثَمَّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيراً، أي يطمح إلى أن يكون ذات تأثير في المخاطب، اجتماعيّاً أو مؤسساتيّاً، ومن ثَمَّ إنجاز شيء ما"[٢٠٠].

لقد ميَّز "أوستين" بين ثلاثة الأنواع من الأفعال يمكن أن ينجزها المتكلِّم[٢٠١]، وهي: ١. **الفعل القوليّ:** وهو النُّطق بتركيب له معنى ودلالة. ٢. **الفعل الإنجازيّ:** وهو العمل الذي ينجز بفعل القول. ٣. **الفعل التَّأثيريّ:** وهو ما يصحب الفعل الكلاميّ من تأثير في المتلقِّي.

مع التَّنبيه على أمرين؛ الأوَّل: أنَّ هذا التَّقسيم ما هو إلا "تقسيم مصطنع لغرض التَّحليل. فهذه الأفعال غالباً ما تحصل جميعها في آن واحد عند النُّطق بالمقولة، ولا يختار المتكلِّم فعلاً دون آخر"[٢٠٢]، وفي إطار من فلسفة اللُّغة، الهدف منه وصف الواقع، والكشف عن علاقة اللُّغة به[٢٠٣]. والأمر الثاني: أنَّ النّوع الثاني، وهو الفعل الإنجازيّ، من هذه الأفعال هو المقصود من هذه النَّظريَّة برمتها؛ فهو محطها النَّظري والفعليّ ومدارها الاعتباريّ بدايةً ونهايةً، ولا سمة لنظريَّة الفعل الكلاميّ إلا به. يقول "أوستين": "إنَّ فعل "التكلُّم بشيءٍ ما"، بالمعنى الواسع لهذا المركّب إنَّما أسمّيه، بل أمنحه هذا اللقب، وهو إنجاز فعل الكلام locutionary act، ومن هذا السِّياق، فإنَّ دراسة العبارة المتلفَّظ بها هي في الحقيقة، ولنفس السَّبب دراسة أفعال الكلام، وإن شئت قلتَ دراسة الوحدات الشّاملة لعناصر التكلُّم speech اللُّغويّ. وإذا كان اهتمامنا متجهاً إلى فعل الكلام، فإنَّ ذلك بطبيعة الأمر إنَّما كان لغاية تمييزه عن سائر الأفعال الأخرى التي تشغلنا في المحلّ الأوَّل"[٢٠٤]، فضلاً عن مقابلته، بعد الحصر والتَّمييز، بالنوع الأوَّل والثالث، والابتعاد به عنهما نظريةً خاصة؛ احترازاً؛ ذلك لإمكان احتجاب مفارقته بالميل الفلسفيّ والدَّلاليّ[٢٠٥].

أفترى ياصديقي، هل كان لأوستين" من بدٍّ عن اللُّغة والنَّظر إليها في مجالها الاستعماليّ، ذلك الذي يتفتق امتيازه الكونيّ منها، ويتشكّل بوجودها، لقد تحوَّلت اللُّغة عند "أوستين" في النَّظريَّة منها إلى كونها لفظاً، ثُمَّ منها إلى كونها فعلاً، ثُمَّ منها إلى كونها سلوكاً بتأثير، فلا غرابة أن تبدأ نظريَّة الفعل الكلاميّ باللُّغة، ثُمَّ تنتهي بها إنجازاً، في فعليّات الإنسان الذي شكَّلها بقصدٍ بالغ؛ هدفاً لمعنى. وبعبارة يسيرة جداً، هل كانت نظريَّة الفعل الكلاميّ بلا لغةٍ؟!، عتبتها: "كيفَ ننجز الأفعال/الأشياء بالكلام/بالألفاظ". وهنا أذكر لك نصّاً على سبيل الدَّلالة، يقول "روبير مارتان": "الفلسفة التَّحليليَّة لأكسفورد (Oxford) [تعتقد أنَّ] كلّ شكل من التَّداوليَّة يخصّص شأناً فاصلاً على الدَّوام... لمفهوم حدث لغويّ. فاللَّفيظ يُعالج باعتباره نتيجة لحدث تلفُّظي: ليس هناك منطوق من غير نُطق، سواء أكان هذا النُّطق ملموساً فيزيائياً (مثل الانتاج الخطِّيّ أو الشّفاهيّ) أم لا (مثل الحديث الدَّاخليّ). وباعتباره نطقاً، فإنَّ الحديث فعل، وتسعى الفلسفة التَّحليليَّة إلى دمج هذا المعطى البسيط في النَّظريَّة اللِّسانيَّة"[٢٠٦].

أظنُّك، ياصديقي، الآنَ، قد استشعرتَ الإجابةَ!، ولعلَّها تبدو مستساغةً، كما أتصوّر!، ولكنّي لا أفترضُ أنَّكَ قد اخترتَ أيّاً منها!، فهذا ليس من حقِّي!؛ إنّي لا أملِكُ الحقيقةَ، بل أجنحُ آملاً إلى ما يقترب مِن دفعِ أَلَمِ عكسها، وعزائي أنّي لا أعرفُ نهايةً لعلمٍ، ولا انتهاءً لمعرفةٍ، وإن تفوَّهتُ بغير ذلك فَسأُجانب الصَّوابَ، والنَّتيجة إقرارها جهلٌ!.

ولقد تقولُ: إنَّ مراده، أعني: "أوستين"، منها الإنجازيّ فحسب، ولم تكن اللُّغة مطلبَه بدليل من قوله المتقدِّم نفسه، ولذلك أبعدَ الجانبين: النَّحويّ والدَّلاليّ، اللذين يمكن أن يكون في أحدهما أو كليهما النوع الثاني من الأفعال الكلاميَّة، نظراً ونقداً![٢٠٧].

أقولُ: وهل ما صدَر عن هذا المراد إلا بالأوَّل الذي لا يمكن أن ينفصل عن المصاحبين له بدليل من قوله نفسه أيضاً. لقد حاول "أوستين" أن ينفلت من اللُّغة، ولكنَّه لم يخرج منها أبداً على الرّغم من تحقيره لها ولاستعمالها وعُرفها؛ لما في الفعل الإنجازيّ من نظر في اعتباره، وليس في سواه، كما تقولُ أنتَ؛ اعترافاً بأنَّه لا يمكن لذلك الفعل أن يكون له من ظهور إلّا باللُّغة، صادراً عنها أوّلاً لفظاً تحصيله المرادي منه فعلاً، موافقاً للقصد(*)، يقول "أوستين": "إذن فنحن هنا قد ميزنا تمييزاً مختصراً بين ثلاثة أنواع من الأفعال: فعل الكلام. وقوة فعل الكلام، ولازم فعل الكلام،... تتعلَّق أولى ملاحظاتنا من المقولات الثَّلاث. بهذا المصطلح المدخول المبتذل، وهو استعمال اللُّغة، أو عرف اللُّغة"[٢٠٨].

وعلى أيّ حال يسوغ لنا القول: إنَّ النَّظريَّة بدأت باللُّغة قولاً، وانتهت بها فعلاً، وكلاهما لا يتحقّق إلا بالنِّشاط الإنسانيّ وفاعليّاته القصديَّة واقعاً بداهةً، وعلى العموم لا يتحقَّق نظرُها وإجراؤها إلا بهذا القانون الكُلِّيّ . اللُّغة . المعنى . الفعل . الإنسان، التي تضمّنتها مجاميع التَّعريفات السَّابقة للتداوليَّة، ودليلها أنَّ اللُّغة بكلّ ما فيها هي المسؤول عن كلّ فاعليّات النَّظر التَّداوليّ(**).

وأقولُ، ملخِّصاً: إنَّ قراءةً لِما يضمُّ علم اللُّغة من مادَّة تكون له محوريَّة اشتغال، ومجال نظر واختيار، ابتداءً، لخليق بتوثيق ما نحن فيه أصلاً وفرعاً، يقول "سوسور": "تضمّ مادّة علم اللُّغة جميع مظاهر الكلام عند الإنسان،..."[٢٠٩]، ومنه إلى نظرةٍ لتصحيح موضوعها، أعني: علم اللُّغة/اللِّسانيّات، وبأيّ شيء يمكن أن يكون، وإلى ما تُعزى أيضاً، يقول "كارل ديتربونيتنج": "إنَّ موضوع علم اللُّغة لم يعُد اللُّغة فقط؛ بوصفها تجريداً لوقائع كلاميَّة أو بوصفها نظاماً "يُعدّ أساساً" لكلّ ما يُتكلَّم، بل موضوعه الوقائع الكلاميَّة ذاتها، ولم يعُد يُسأل عن بنية النِّظام اللُّغويّ، وعن الوحدات اللُّغويَّة، بل الواقعة الكلاميَّة بوصفها "نشاط كلاميّ" [كذا] إنسانيّ تشكِّل إطار التَّحليلات. وبُحِثَت وظائف الأحداث اللُّغويَّة في إطار الفعل الإنسانيّ، وبخاصَّة الفعل الواقع بين الناس (التَّبادليّ). ويتبع ذلك بلا شكّ تحليل اللُّغة، بوصفها أهمّ وسيلة يستخدمها النَّاس في أفعالهم الرمزية..."[٢١٠].

لم يكن لتجد التَّداوليَّة إذن، وهو ما تكشفه عيون التَّعريفات السَّابقة، تأمُّلاً، من بُدٍّ عن نبْذ ذاتها في ذلك الأصل الكُلِّي: (إنسان اللُّغة)، ذلك الكون الذي يُمثِّل مجموعها مجمعها، كعلّتي الماهية والوجود، وتترشَّح منه كلّ برامجها التَّكوينيَّة واستراتيجياتها النَّظريَّة والإجرائيَّة. ومن هنا لست أغالي إن قلتُ، ممثِّلاً إجمالاً لأصولها الكُلِّيَّة: إنَّها مجمع الفكر نظاماً وممارسةً، في قراءة من عِلله: الماديَّة، والصُّوريَّة، والفاعلة، والغائيَّة[٢١١].

وبعبارة أخرى تفصيلاً، أقول إنَّ مقولة "اللُّغة" ذلك المحور الكُلِّيّ الذي تقوم عليه فلسفة التَّداوليَّة تُمثِّل كلّ أنشطة الفعل الكلاميّ . الإنسانيّ مطلقاً. ولنا بعد أن ننظر في ضوء ذلك متسائلين: هل كان الاستعمال ليتحقّق عرَضاً بـ"كيف" تمثّله هيأة لغاية بلا مادَّة؟!. إنَّ اللُّغة لتُمثِّل كلّ أشكال الاستعمال الذي مثَّلها صورة وأشكالاً، ولولاها لما كان بضمن التَّداوليَّة مقولة كُلِّيَّة تتضمَّن كلّ مجالات النَّشاط اللُّغويّ، إنَّ ذلك المصدر، أعني: "الاستعمال"، يشي بكلّ ما يصحّحه له فكر اللِّسانِ من قول وفعل، في: الكيف، والنوع، والكم، والأين، ناهيك بالجوهر، وفي اقتضاء من أداة شفويَّة، أو كتابيَّة، من مرسل/متكلِّم، ومرسل إليه/مخاطب، ورسالة إلى إبلاغ، ولا شكَّ في أنَّ هذا الأمر وَقْفٌ على الإنسان نفسه: تصوُّراته، أو قدراته وتمثّلاته العقليَّة، في أبعاد تواصليَّة اجتماعيَّة وظروف قبليَّة، لنتائج بعديَّة تأويليَّة. إنَّ الاستعمال اللُّغويّ، يقاربُ بركاناً، تتفجّر منه كلّ تفاعلاته الامتيازيَّة على نحو كُلِّيّ من سؤال الفكر. وهل يمكن الإحاطة به جمعاً، مزق نفسَه على أشلاء، واصطبغت به كلُّ محاولة؟!.

من الحدِّ والقيَّد منهما إلى النَّقد والرهان:

تقويض مبدأي الجمع والمنع في مفهوم التَّداوليَّة:

يمكن القول ليسَ من الصُعوبة إيجاد تعريف، بل تعريفات متعدِّدة للتداوليَّة، ذلك الكائن المألوف، ولكن من الصُعوبة جداً أن نجد لها حدّاً واحداً يتصف بكونه جامعاً مانعاً، وعليه إجماع واتفاق من اللِّسانيين، والتَّداوليين، ومن الصَّعوبة جداً أيضاً ألَّا نجد منهم نقداً لأيِّ تعريف لها، ولأجلها. وأيسر آية على ذلك ملاحظة ما قُدِّم لهذا المفهوم من قراءات وآراء نقديَّة جمَّة، فضلاً عمّا أثير حوله من إشكاليّات واعتراضات كثيرة، تلك التي تنزع بها إلى أن تكون تحت ضبطٍ من قانونٍ جامع مانع(*)، ولكن "هيهاتَ" كلمة تعلو بها التَّداوليّات على كلّ الحدود والأسوار، حتَّى تجلَّت بها فعلاً إنجازيّاً له تأثير بحثي لم ينقطع عن التَّواصل، أو ينثني عن الاستمرار أبداً.

ولَئِن تقدَّمت بعض من هذه القراءات مُثُلاً، فإنَّ العزوف عن ذكرها تكراراً ثمَّة، لا ينفي إيجاز بيانِها خلاصةً، وهي تقوم، في تأمّلٍ ما، على جانبين: الأوَّل: النَّظر إلى المعنى وما يحتويه من مستويات متعدِّدة تراتبيَّة أو تراكميَّة، لا تنحصر في مستوى دون آخر. والجانب الثاني منهما على محورين: ملاحظة كيفيَّة إنتاجه أوّلاً، وتأويله ثانياً في ضوء التَّواصل والتَّفاعل الإنسانيّ.

على أنَّ الأوَّل منهما مطلب لا يتحقّق إجراؤه إلا بالثاني نظراً، وهو ما سعت إليه بحوثٌ ودراسات(٢١٢)؛ نفاذاً إلى كشف ما ترومه نظريَّة الاستعمال وما تعتمد عليه من الخلفيّات المعرفيَّة والخبرات المشتركة، انطلاقاً من ثنائيَّة: اللُّغة والكلام، من ثاني اثنين من المعاني، وبماذا يمكن أن يتعلَّق مبدأ الاقتضاء، وجوانب اتصاله وانفصاله؛ وهي المعاني: المباشرة وغير المباشرة، أو الحرفيَّة/سياقيَّة الصفر/المنعدم، وغير الحرفيَّة، أو معاني الجمل، ومعاني الأقوال/العبارة/القضية، أو قيم التَّصريح والتَّلميح، وفي ثنائيَّة أُخرى من: القصد الإخباريّ، والتَّواصلي، أو الخطاب والاستلزام الحواريّ، في ضوء من إدراك أنَّ المتكلمينَ كثيراً ما يعنون، ويقصدون أكثر ممّا يقولون بالكلمات. أو قراءة النِّظام اللُّغويّ في التَّواضعيَّة الطبيعيَّة، والدَّلالة غير الطبيعيَّة، التي تقوم "على مقصد مزدوج: مقصد تبليغ محتوى، ومقصد تحقيق هذا المقصد نتيجةً لتعرُّف المخاطب عليه"(٢١٣)، أو بعبارة أُخرى وتفسير: "أنَّ القائل قصد شيئاً ما من خلال جملة معيَّنة، فذلك يعني أنَّ هذا القائل كان ينوي، وهو يتلفَّظ بهذه الجملة، إيقاع التَّأثير في مخاطبه بفضل فَهْم هذا المخاطب لنيّته"(٢١٤)، وذلك بعد تعيين مفهومي "الجملة"، و"القول"، ومفارقتهما في فعل التَّأويل، ذلك "أنَّ تأويل جملة ما غالباً ما يتجاوز كثيراً الدَّلالة التي نعزوها إليها بالمواضعة. ولهذا السَّبب يمكن التَّمييز بين الجملة والقول، فالجملة هي سلسلة من الكلمات التي يمكن... التَّلفُّظ بها في ملابسات مختلفة، ولا تتغيَّر بتغيّر هذه الملابسات. أمَّا القول، فهو حاصل التَّلفُّظ بجملة، وهو يتغيَّر بتغيُّر الملابسات والقائلين..."(٢١٥). أو كما في عبارة "ديكور": "أي: باعتباره حدثاً تاريخيّاً يحصل في زمان محدَّد، ومكان محدَّد، بواسطة شخص محدَّد"(٢١٦).

وهكذا تبقى "الجملة" تجريداً؛ ذات السِّياق الصِّفر/المنعدم، بوصفها النِّظامي الثابت: "كيانات تجريديَّة مستقلَّة عن السِّياق، أي: إنَّها لا ترتبط بزمان معيَّن، أو بمكان معيَّن، فهي وحدات في النِّظام اللُّغويّ الذي تنتمي إليه،..."(٢١٧)، و"القول" تلفُّظاً؛ بوصفه الاستعمالي التَّواصليّ المتغيّر. والنَّتيجة: "أنَّ الجملة لا تستنفذ تأويلها عندما يتمّ التَّلفُّظ بها في ملابسات مختلفة"(٢١٨)، ولك في "القول" بعد النِّظام استنتاج!. يقول "جون ليونز": "إنَّ معنى القول محصَّلة معنى الجملة والسِّياق، وعموماً فإنَّ معنى قول ما أكثر ثراء من معنى الجملة أو الجمل التي اشتقت منه"(٢١٩)؛ وذلك بسبب ما يُنسب إليه من تلك الجوانب التي لا ترتبط "بالجملة، وهو كلُّ شيءٍ يتعلَّق بالسِّياقات الخاصَّة بالقول مثل معتقدات أشخاص معيَّنين، ومواقفهم، والإشارة إلى كيانات معيَّنة في المجتمع، وتقاليد التَّعامل المهذَّب بين جماعات معيَّنة وهلم جرا،..."(٢٢٠)؛ وعلى أساس هذا الفَهْم من المفارقة والامتياز، والحديث لـ"جاك موشلر"، "فإنَّ الجملة كيان مجرَّد وهي نتاج

نظريَّة. إلَّا أنَّ المتخاطبين، عند التَّواصل لا يتبادلون جملاً، بل يتبادلون أقوالاً. وبالفعل، فقول ما يوافق جملة تتممها المعلومات التي نستخرجها من المقام الذي تُلقَى فيه. فالقول إذن نتاج إلقاء جملة ما، فإذا كانت الجملة موضوع اللِّسانيّات، فإنَّ القول موضوع التَّداوليَّة"[٢٢١].

ولعلَّ قراءةَ "جيني توماس"، تحاكي ما نحن فيه ثمَّة تصوّراً جمعاً، حين رصدَت اتجاهينِ من تلك الدِّراسات، وهي تطرح تعريف التَّداوليَّة نقداً، في: دراسة المعنى في الاستعمال، أو دراسته في السِّياق. الاتّجاه الأوَّل، يركِّز على ما يقصده المتكلِّم. وأمَّا الثاني، فعلى متلقِّي الرِّسالة، في تفسير معنى المنطوق/الكلام. وكلّ منهما، وإن كان يمثِّل مدخلاً من مداخل التَّداوليَّة، إلا أنَّهما يختلفان في النَّظر إلى المعنى ومستوياته[٢٢٢]. ولهذا بيَّنت "توماس"، ما يعنيه مفهوم "مستويات المعنى"، متّخذةً منه معياراً؛ لتعيين خصائص كلّ اتّجاه فيما أخذه، أو أغفله، من تلك المستويات، سلباً وإيجاباً، نظراً وممارسةً. وهذه المستويات: "مستويات المعنى"، التي حدَّدتها، استنباطاً من المحادثة والحوار، على ثلاثة أقسام: الأوَّل: المعنى المجرَّد/اللُّغويّ، وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الكلمات والضَّمائم والجمل، والثاني: معنى الكلام، أو المعنى السِّياقيّ، أو معنى المنطوق. والثَّالث: وهو المعنى الخاص، المعنى الكامن، أو الموجود بالقوة Force، وهو معنى المتكلِّم[٢٢٣].

ولكي تزيل الغموض عن المعنى المراد، عمدتْ، أعني: "توماس"، إلى سوق مجموعة من أمثلة؛ لتُعيّن ما كانت تقصده من تلك المستويات، مستندةً إلى مفهوم: أنَّ سوء فَهْمِ الناس للمعاني كثيراً "لا يرجع إلى سماعهم أو تحليلهم جملهم أو فَهْم كلماتهم... فالصَّعوبة في الاتّصال تكمن في أنّنا نخفق في فَهْمِ قصد المتكلِّم"[٢٢٤]. تقول "توماس"، تمثيلاً لبيان معنى القصد من وراء رسالة المتكلِّم الذي هو المعنى المراد والفرق بين مستوياته: "تخيّل إنْ قال أحدهم: "هل هذه سيارتك؟"، وافترض أنَّه بسبب السِّياق الذي سُئِل السؤال في إطاره ليس هناك لبس في المعنى أو الإحالة. فإنَّ اسم الإشارة "هذه" يدلّ على وحدة مفردة (سيارتك)، وإنَّ ضمير المفعولية يشير "إليك" وبالتالي، فعلى الرّغم من أنَّك لا تصادف مشكلة في فَهْم معنى المنطوق (المستوى الأوّل للمعنى الذي يقصده المتكلِّم) فإنَّك لا تَفْهَم بعدُ القصد من وراء هذا السُّؤال. هل يعبِّر المتكلِّم عن إعجاب أم أنَّه يعبِّر عن ازدراء؟ أهي شكوى من أنَّ سيارتك تعوق الطّريق؟ هل يطلب المتكلِّم أن توصله إلى المدينة؟ وهذه كلّها أمثلة عن المقاصد البراجماتيَّة (التَّداوليَّة) المختلفة التي قد يتضمّنها المنطوق نفسه"[٢٢٥]، وهي احتمالات معنويَّة دلاليَّة، لم يكن ليكون مستوى التَّعرُّف عليها بيسر وسهولة إلَّا بعد إدراك "مستويات المعنى"، ثُمَّ المراد المقصود منها في السِّياق التَّداوليّ.

للمعنى القصديّ، ("معنى المتكلِّم"، أو "معنى التَّفوّه/التَّلفّظ"، أو "القوة اللاكلاميَّة"، أو "إلقاء القول"، أو "العبارة"...) إذن، مداه الرصديّ، محوراً بالتَّأويل في تعريفات التَّداوليَّة، بل لعلَّه ما تسعى إليه مفاهيمها بلاغةَ نظرٍ بنهايةِ إجراء، على أنَّ معنى وضع اللُّغة في قيد نظام يفتقر إلى قيد استعمال . تواصل، مطلب ليس منه بدّ، بل ضرورة حتميَّة تبني عليها التَّداولية به إنتاج مشروعيَّة نفسها مقابلةً، في كلّ التَّعريفات التي سلف تسطيرها، ولكن تبقى محاولاتها قائمةً فيما تصبو إليه من تلك المستويات المتعدِّدة وسواها، التي تترشَّح من مفهومها البالغ حدّاً يؤسّس نفسه على نحو من إطلاق، ذلك المفهوم الذي يتعالى تكوينه على منطق اصطلاحٍ يتوسّم بالجمع والمنع علامة فارقة، مهما كانت التَّصوُّرات المنجزة.

ولهذا أخلصت "جيني توماس" وبعد جهدٍ كبير في الغوص في أعماق المقاصد وتحديد المعاني التي يمكن اكتشافها في لغة الحوار/التَّحاور، اقتراحاً قدَّمت فيه مفهوماً للتداوليَّة[٢٢٦]، صدَّره الأستاذ محمود أحمد نحلة، بعد ترجمته، توصيفاً بالاقتراب والإيجاز منها، يقوم مبتدؤه خلاصةً على دراسة اللُّغة وإمكان استعمالها. وهو: "دراسة اللُّغة في الاستعمال in use أو في التَّواصل interaction لأنَّه يشير إلى أنَّ المعنى ليس شيئاً متأصّلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلِّم

وحده، ولا السّامع وحده، فصناعة المعنى تتمثَّل في تداول negotiation اللُّغة بين المتكلِّم والسَّامع في سياق محدّد (ماديّ، واجتماعيّ، ولغويّ) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما"[٢٢٧].

أقول على الرّغم من وجاهة هذا المفهوم وما يمتلكه من شؤون جامعته المعرفيَّة ومقارباته الإبستيميَّة، إلا أنَّه يبقى في دائرة العموم أيضاً، ثُمَّ الشَّرح لتفاصيل خاصَّةٍ بمقولاته الكُلِّيَّة التي تتجلَّى في مفتاح التَّداوليَّة الأوَّل: وهو "دراسة استعمال اللُّغة"[٢٢٨]، غير مانع لما يمكن أن يكون فيه من قراءات أُخَر، ولا دافع لما يمكن أن ينضوي تحته من مجالات مختلفة. ولأجل دفع المدخولات وتأويلاتها المتعدِّدة التي يكتنزها ذلك المفهوم بالتَّعريف، حدَّدَ بعضُ الدَّارسين ما تتميَّز به التَّداوليَّة من غيرها، في البحث اللُّغويّ، لم تخرج، في تصوُّري، عن الإبهام والإطلاق أيضاً، وذلك على نحو ما يأتي[٢٢٩]:

١ـ تقوم التَّداوليَّة التي هي لسانيَّات الاستعمال اللُّغويّ على دراسة الاستعمال اللُّغويّ، فموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللُّغويّ في الاستعمال الفعليّ من حيث هو صيغة مركَّبة من السّلوك الذي يولِّد المعنى. ٢ـ ليس للتداوليَّة وحدات تحليل خاصّ بها، ولا موضوعات مترابطة. ٣. تدرس التَّداوليَّة اللُّغة من وجهة وظيفيَّة عامَّة: معرفيَّة، واجتماعيَّة، وثقافيَّة. ٤. تُعدّ التَّداوليَّة نقطة التقاء مجالات العلوم ذات صلة باللُّغة.

وعلى الرغم من هذا الاحتراز تعيَّنت بهذه الأفكار الامتيازيَّة مجموعة من رهانات، وعُقِدت عليها كثير من آمال، كان يرجو التَّداوليُّون تحقيقها وإنجازها، بعد الكشف عن مهامها الأُصوليَّة، التي أقرُّوا بأنَّها "لم تقلب جعرافيَّة الدِّراسات اللُّغويَّة رأساً على عقب. ولكن مجال البحث فيها يطرح مسائل لا تخلو من تأثير في اللِّسانيّات إجمالاً"[٢٣٠]. ولقد تجلَّت هذه المهام، بعد تصحيحها، بما يأتي[٢٣١]:

١ـ لا تدرس التَّداوليَّة "البنية اللُّغويَّة" ذاتها، ولكن تدرس اللُّغة عند استعمالها في الطّبقات المقاميَّة المختلفة، أي: باعتبارها "كلاماً محدّداً" صادراً من "متكلِّم محدَّد"، وموجّهاً إلى "مخاطب محدَّد" بـ"لفظ محدَّد"، في مقام "تواصليّ محدَّد"؛ لتحقيق "غرض تواصليّ محدَّد". ٢ـ شرح كيفيَّة جريان العمليّات الاستدلاليَّة في معالجة الملفوظات. ٣ـ بيان أسباب تفضيل التَّواصل غير المباشر، على سواه. ٤ـ الكشف عن أسباب فشل المعالجة اللِّسانيَّة البنيويَّة الصَّرفة في معالجة الملفوظات.

أمَّا عن قراءة رهاناتها وشرحها، فكانت عبارة عن تساؤلات تكاد تقارب التَّساؤلات المطروحة في ميدان اشتغالها، أو تكون، ولقد تمثَّلت بما يأتي[٢٣٢]:

١. كيف نصف الاستدلالات في عمليَّة التَّواصل، علماً أنَّ الاستدلالات التَّداوليَّة غير مُعَقْلَنة في كثير من الأحيان!.

٢. ما الأنموذج التَّواصليّ الأمثل (أهو التَّرميز، أم الاستدلالات).

٣ـ ما العلاقة بين الأنشطة الإنسانيَّة الآتية: اللُّغة والتَّواصل والإدراك؟ وما العلاقة بين الفروع المعرفيَّة المشتغلة بهذه الأنشطة (أي: علم اللُّغة، وعلم التَّواصل، وعلم النَّفس المعرفيّ).

ولكي تكتمل حلقة المفاهيم المتعدِّدة أصول شعبها صارت التَّصوُّراتُ فيها تدور في فلك من ثنائيَّة نفي ما التبس بها من موضوعات، وإثبات ما تختصّ به من أنشطة ومعالجات[٢٣٣]، وهي قراءة أُخرى أيضاً لم تخرج، في ظنِّي، عمَّا سبق من التَّفكير في مَهامها وأنشطتها، أو فاعليّاتها.

الخروج من التَّيه . مقاربات في براغماتيَّة/تسوية اختلاف الحدّ التَّداوليّ:

على الرّغم ممّا تحمله فصائل التَّعريفات وأجناسها من مفاهيم كبرى للتداوليَّة؛ إنجازاً، وامتيازها تراكماً معرفيّاً إجابةً لإجراءات معقودة سلفاً بفعل قبلي من استفهامٍ: ما التَّداوليَّة؟، فإنَّها باختلافها وتنوّعها تعترف بإضمار خجل من صعوبة جمع هذه الكُلِّيّات، وأنحائها المتعدِّدة، في دالٍّ معرِّف لتداوليَّة واحدة، بل إنَّها لتقرّ إظهاراً على إشكاليّاتها المفاهيميَّة،

وتحكم على أنَّها لا محالةَ تبقى تداوليّات، كما أمست نظراً، أصبحت توكيداً، بثنائيّات من اتصال وانفصال؛ كوّنتها فلسفات، وتطوَّرت بمناهج مختلفة بلا انسجام: موضوعاتٍ، وإجراءاتٍ. أقولُ على الرَّغم من ذلك التَّشييد الإبستيميّ الكبير، فإنَّ هذا البناء المعرفيّ الذي يمثِّله قصر التَّداوليَّة الضَّخم المتعدِّد الأركان، المتّسع المسافات، أنتج لنفسه بعضاً من مقاربات يمكن أن تُمثِّل خروجاً رشيقاً من أزمة التَّعريف الحدِّيّ التي خلقتها الاختصاصات المختلفة، تلك التي جذبتها التَّداوليَّة إلى ساحة قدسها ومزجتها بشبكة من مفاهيم تحت مسمَّيات من سلطة "الاستعمال اللُّغويّ"، وهي على العموم مقاربات قد تجعل من التَّداوليَّة، محطّ نظر في ثنائيّة نسبة من الإثبات، أو النَّفي، مصحوبةً بأدلَّة كلّ اتّجاه وما يذهب إليه، قد تحتاج إلى عنوان أكبر يتّسم بـ"الإنصاف في مسائل الخلاف"، لا تجري من مناقشاتها ثمَّة إلا شذراتٌ.

ولعلَّ من هذه المقاربات، وقد تقدَّم نبأ بعضٍ منها(*):

١. مقاربتها الاندماجيَّة/المدمجة التي تكون فيها التَّداوليَّة ذائبة في النِّظام اللِّسانيّ، بوصفها جزءاً منه، وذلك بتوسيع النُّظم الدَّلاليَّة ودوائرها الإجرائيَّة، وبضمن مشروع نظريّ أوسع هو السِّيميائيّات.

٢. مقاربتها الاستقلاليَّة عن النِّظام اللِّسانيّ، فتكون مقابلة له مصحّحه لإجراءاته في الشكل والمعنى؛ بوصفها كياناً خاصّاً بعيداً ومستقّلاً تماماً عن اللُّغة.

٣. مقاربتها الإجرائيَّة بالمباحث والمجالات الصَّدقيَّة التي يمكن أن تتناولها، تلك التي يمكن تقع بضمن معاملها الاشتغاليَّة، على طريقة "لا تدخلوا من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة"، لهذا القصر المشيَّد، تكون التَّداوليَّة فيه تداوليَّات متعدِّدة، بنظريات مختلفة بلا جامع ولا ناظمٍ؛ وليست خاصَّة ببحث دون آخر، بل بمجمع بحوث وعوالم متنافرة غير مُوحَّدة.

ولي أن أنبّه قبل الدُّخول في توصيف بعضٍ من معالم هذه المقاربات، أقول: يظهر أنَّ هذه المقاربات لم تكن لترشِّح أنفسها بدائل عن حدّ التَّداوليَّة، إلا محاولة لتحديد موضوعها الأساس من سائر ما يتداخل معها من معالجات اشتغاليَّة في تلك الحدود، على أنَّ جوهر الإشكال في كلّ منها، كما تقدَّم بنا سابقاً، هو، محوريَّة "المعنى"، ذلك الكائن الشَّبكي المعقَّد، وما فيه من دوائر: مركزيَّة، أو هامشيَّة، وأين يمكن أن تكون شفرته موضوعاً يمثِّل النَّظرَ محورَ المعالجة، أفي لسانيّات النِّظام اللُّغويّ حصراً، أم في لسانيّات الاستعمال/التَّداوليَّة توسّعاً، وهل هو وحيد، أو متعدّد ذو مستويات وطبقات؟، وهل هي تراتبيّة متسلسلة، أو لا؟. وإذا كان على طبقات أو مستويات، فهل أنَّ أحدها أصل للآخر؟. وأيّاً منها يمكن أن يكون هو المقصود بالذات دون سواه؟. وعلى من تقع مسؤوليَّة كشفه أعلى محور اللُّغة، أم على شؤون السِّياق، أم على كليهما جمعاً اتصالاً أو انفصالاً، أم على شيء آخر يختلف عن كلّ ما تقدَّم؟. وما الفرق بين الدَّلالة، أو القصد، والمعنى إذا تجاوزنا مقولة النِّظام؟، هذا على فرض إمكان تعريف المعنى بداهةً؛ وذلك لعدم وجود طريقة سهلة لوصفه والدَّلالة، أو بيانهما وقياسهما، كسائر الأنظمة اللِّسانيَّة الأُخَر: الصَّوتيَّة، والصَّرفيَّة، والنَّحويَّة، كما يقول: "بالمر": "ليستْ هناك لسوء الحظّ طريقةٌ سهلة متشابهة لوصف الدَّلالة. إنَّه من غير الواضح أبداً ما الدَّليل لأيّ بيان عن المعنى"(٢٣٤)؛ مع استدراك لوسائطه؛ لأنَّه من الحقيقة أنَّه "لا يمكن تعريف المعنى... بشكل مستقلّ عن اللُّغة، إنَّنا لا نستطيع أن نحدِّد مجموعة معيَّنة من المعاني إلا بواسطة مجموعة أخرى منها، أي: إنَّنا لا نستطيع أن نصفَ اللُّغةَ إلا بواسطة اللُّغة"(٢٣٥).

نحن أمام مقاربتين رئيستين إذن؛ الأولى: إمَّا أن تكون التَّداوليَّة في الدّائرة الضّيقة، أو الموسَّعة في النَّظر إلى المعنى، وكلاهما فيه جدل بين اللِّسانيين؛ ذلك لأنَّ المعنى المنظور، إمَّا أن يكون متصلاً، أو منفصلاً في التَّداوليَّة، وهذا ما أشار إليه "دومينيك مانغونو" بعد ذكره لتصنيف "موريس"، وقراءته أنَّ التَّداوليَّة مكوِّن ثالث انبثق من مكوِّنات اللُّغة: التَّركيبيّ والدَّلاليّ، والتَّداوليّ، وأنَّها "تهتم بالعلاقات القائمة بين الأدلَّة ومستعمليها واستعمالها وآثارها، من حيث معناها الضَّيق،..."(٢٣٦)، وهي من هذه الناحية تختصّ بدراسة المكوِّنات التَّداوليَّة الخاصة فقط، تلك التي تصف معنى الملفوظ في سياقاته المختلفة، يقول "دومينيك مانغونو": "تطلق التَّداوليَّة إذن على التَّخصص أو التّخصصات التي تُعنى بالمكوِّن التَّداولي، عندما نتحدّث عن المكوَّن التَّداوليّ أو عندما نقول إنَّ ظاهرة ما خاضعة لـ(عوامل تداوليَّة)، فإنّنا نقصد بذلك

المكوِّن الذي يعالج وصف معنى الملفوظات في سياقها: فنفس الملفوظ: (بول ليس هنا) مثلاً، يؤوَّل حسب السِّياقات، كملفوظ تهكمي أو لا، أو كدعوة لاحترام النِّظام، أو كنتيجة لمحاجة إلخ. والسؤال الذي يطرح حينئذٍ هو معرفة ما إذا كان المعنى قابلاً لأن يفصل عن التَّداوليَّة، هناك جدل قائم بين من يدعو إلى إدماج التَّداوليَّة في صلب نظام اللُّغة، والقائلين بإبقاء الانفصال قائماً بين الدَّلالة والتَّداوليَّة"[٢٣٧].

وإلى هذا الجدل وعدم التَّمييز بين المكونين، تشير "ماري نوال غاري" أيضاً، تقول: "إنَّ التَّمييز بين التَّداوليَّات والدَّلاليّات، لا يبدو في كلّ الأحوال واضحاً؛ ذلك لأنَّ المحتوى الدَّلاليّ للجملة، لا يستقّل عموماً عن علاقته بالمتكلِّم أو المرسل إليه"[٢٣٨]. ثُمَّ تقول بالانفصال والتَّمييز الدَّلاليّ عن التَّداوليّ بالنَّظر إلى نحو المعالجة الموضوعيَّة: "لا يتّفق علماء اللِّسان حول معالم الحدود بين هذين الفرعين (ولا حتَّى حول ضرورة الفصل بينهما)، بيد أنَّه يمكننا أن نتخذ الوضع الآتي: فإذا ما اعتقدنا بأنَّه على اللِّسانيّات أن تتولَّى وصف معنى الملفوظ؛ بوصفه مسجَّلاً ضمن فعل التَّلفُّظ، فذلك يعني أنَّ الدَّلاليَّات، تتمركَّز حول دراسة الأشكال التي تكوِّن هذا الملفوظ، في الوقت الذي تنصب فيه "التَّداوليَّات" على دراسة فعل التَّلفُّظ نفسه، ضمن نطاق موسَّع"[٢٣٩].

وهو الأمر الذي يخرجها من الإطار اللُّغويّ إلى مستوى آخر، لا يجري فيه رأيٌ إلا وينعكس مداره النَّظري والإجرائيّ، إلى إرادة إجاباتٍ مختلفةً على أسئلةٍ لإشكاليّات أُخَر أيضاً، وهي: هل أنَّ اللُّغة نظام محايثة، ثابت، بلا ديناميكيَّة خارجيَّة، وبعبارة أخرى: نظام نظريّ ميّت محلّه الفكر ليس إلّا، ولا علاقة له بالواقع، وبالاستعمال أبداً، وكيف لا يضرّ بوظائفه، تلك التي من أجلها أُنْشِئَ غايةً، وعُقِدَ عليها هدفاً؟، هذا من جهة. وأنَّ الدَّلالة فيه مقصورة على رصد المعنى الأوَّل، والثاني فحسب، ولا علاقة لها بالمستوى الثالث: المعجميّ، والنَّحويّ، والسِّياقيّ من جهة أخرى؟. أو أنَّها، أعني: الدَّلالة، وسيطٌ بين اللُّغة كنظام تجريديّ واستعمالها كنظام تفاعليّ تواصليّ، ومسؤولة عن الوصل بينهما؟. وهل أنَّ التَّداوليَّة بمنزلة جهاز إنعاش لهذا النِّظام حين الاستعمال/التَّنفيذ، وأنَّ بيان المعاني القصديَّة للمتكلِّم، وكيفيَّات كشوفها، تتعيَّن بالتَّداوليَّة فحسب؛ لما لها من مكوّنات ومحدّدات/قرائن ومميزات، تتضّح قيماً بالسِّياق والظُّروف، أو المناسبات القوليَّة والتَّواصليَّة، وعلى نحو تصوُّرٍ كُلّيّ، وهو: "لا تنظر إلى المعنى، وانظر إلى الاستعمال"[٢٤٠]، فحسب، أو مبدأ: "عندما استعمل كلمة يكون معناها هو المعنى الذي أختاره لها فقط لا أكثر ولا أقلّ"[٢٤١]، في حين أنَّ الدَّلالة، بذلك مثلاً، لا علاقة لها بهذا التَّصوُّر على الرَّغم من أنَّ دراستها الجوهريَّة هي المعنى جوانباً؟. وهل يمكن أن تقترب الدَّلاليَّة توسُّعاً من وقائع التَّداوليَّة لما بينهما من نسبة اشتراك في المحور الذي تقوم عليه أصول اللُّغة من غايات وأهداف، أو أنَّ بينهما تزاحماً، قد ينكسر فيفضي إلى تكامل، أو لا، فيبقى الصّراع قائماً يثير جدلاً لا ينتهي من بحوث الإشكاليّات؟، أو كما في عبارة "فرانشيسكو يواس": "قد يكون ضرورياً فَهْم علاقة التَّداوليَّة بعلم الدَّلالة على أنَّها علاقة تكامل،... وتوضيح المواقف التي تنشد هيمنة علم الدَّلالة على التَّداوليَّة (المذهب الدَّلاليّ semanticismo)، أو ما إذا كانت التَّداوليَّة هي التي تهيمن على علم الدَّلالة (المذهب التَّداوليّ pragmaticsmo)"[٢٤٢].

وعلى أيّ حالٍ ثمَّة خريطتانِ، كلٌّ منهما يزعم أنَّه يملك مفاتيح الكشف عن كنز "المعنى"، ولاسيَّما المعنى القصديّ/قوة معنى المتكلِّم منه، موضع النَّظر، وهما: ١ـ إمَّا بسلوك النِّظام اللُّغويّ متساوقاً مع شؤونه الدَّلاليَّة الضِّيقة الأفق، المحدود النَّظر للقياس والمعياريَّة، من جانب، أو بتوسيع مداره الأفقيّ في كونه يتمشى وآفاق الإنسانيَّة وتطلعاتها القصديَّة السِّياقيَّة تلك التي جعلت منه قيماً تواصليَّة لا يمكن أن يفصل عنها بأيّ حال؛ لأنَّها منه وفيه واقعاً من جانب آخر، وهو رأي. ٢. أو باستعمال ذلك النِّظام وتشغيله، وهنا يتأتى للتَّداوليَّة أمرها، بل مشروعيتها الكبرى؛ لتأخذ بيد ذلك النِّظام الجامد إلى مرحلة ترفع من شأنه مكانةً، وتنحو، إذ ترتقي به روحاً، إلى مستوًى لم يكن ليبلغه، أو يستطيع الوصول إليه؛ بحُجَّة من استقلاليته فكراً، بل قصوره في الكشف عن المعاني القصديَّة للمتكلِّم تلك التي أغفلها النِّظام اللُّغويّ المجرَّد،

وعجز عن إيفائها مطلباً، ولا سيَّما السِّياق ومظاهره الكثيرة المتحركة، وهو ما يتجلَّى في دراسة مبادئ غير اللُّغويَّة، تنأى بنفسها أن تكون كذلك، إلى أُخَريات من لسانيَّات سياقيَّة، مقاميَّة، تواصليَّة، نفسيَّة، اجتماعيَّة، فكريَّة، منطقيَّة، استدلاليَّة،... وهو رأي. أو الجمع بينهما، وهو رأي آخر.

التَّداوليَّة . من الاستقلاليَّة إلى الاندماجيَّة:

بدهي القول: إنَّ ثنائيَّات "دي سوسور"، وتمييزه بين "اللُّغة"، و"الكلام"(٢٤٣)، وما يمثّلاه من موضوعيَّة واشتغال، ناهيك بالانتقال من مكوّنات الفكر النِّظاميّ إلى التَّنفيذ الفرديّ . الاستعماليّ، وكشف ما لخصائص كلٍّ، اعتماداً أو مفارقة، قد ألقت بظلالها المركزيَّة والهامشيَّة على مجمل التَّفكير اللِّسانيّ.

ولا شكَّ في أنَّ التَّداوليَّة، في قراءة "موريس" للسِّيميائيّات/"علم العلامات"، وتقسيمه الثّلاثي لمكوّناتها التي تكون فيها اللُّغة فيها علامة: النَّحويَّة، والدَّلاليَّة، والتَّداوليَّة، نتيجة، متأتيَّةٌ من ذلك التَّقسيم الثنائيّ: اللُّغة والاستعمال؛ إدراكاً لما بعد اللُّغة من إمكاناتٍ، تنطلق من توصيف كونها "نشاطاً تواصليّاً أساساً،... ذات أصل وطبيعة اجتماعيَّة" (٢٤٤). فإذا كان "التَّركيب النَّحويّ" هو دراسة العلاقات بين العلامات، وكيفيَّة تنظيمها في تتابع معيَّن، وأيّاً من هذه التَّتابعات سيكون سليم البنية. وإذا كان "علم الدَّلالة" هو العلاقة التي تعيِّن المعنى الحقيقي بين العلامات وما تدلّ عليه، أي العلاقة بين الصّيغ اللُّغويَّة والكيانات الموجود في العالم، وكيفيَّة ارتباطها بالأشياء – فإنَّ التَّداوليَّة، ستكون مختصَّة بدراسة العلاقات بين الصّيغ اللُّغويَّة/العلامات ومستعمليها، أو مؤوّليها(٢٤٥).

ومن هنا تمايزت دراسة المعاني والمقاصد بمبرراتها إشكاليّات، فكانت طرائق من نظر بين مدّ وجز، تارةً على نحوٍ يسعى إلى رسم ما أمكن من الحدود والفواصل بين تلك المكوّنات، وتارةً أُخرى على نحو من عدم ذلك إلى دراسات تتواصف ومفهوم الشّموليَّة، التَّكامليَّة، على حين أمست الدَّلالةُ مرتبطةً ببنية النِّظام اللُّغويّ؛ وذلك لتركيزها على السِّمات الدَّلاليَّة للوحدات المعجميَّة والجمل في التَّحليل. وصارت التَّداوليَّة متصلةً بالكلام والخطاب؛ وذلك لاهتمامها بالمنجز والمتحقِّق والمستعمل من العبارات والجمل والأقوال(٢٤٦).

إنَّ هذه المفارقة بين الدَّلالة والتَّداوليَّة التي أَسستها قراءة التَّعيين الموضوعيّ وأين يمكن أن يكون مسجَّلاً، هي التي أفضت إلى القول باستقلاليَّة التَّداوليَّة عن الدَّلالة/النُّظم اللُّغويَّة، وأن تكون بعيدةً عن مستويات التَّحليل والوصف اللِّسانيّ، فعلى حين أضحت اللُّغة، في ضوء هذه المفارقة، نظاماً تجريديّاً ثابتاً لا علاقة له بالواقع والاستعمال الفرديّ، تتمثَّلُ في اللِّسانيّات فكرة دراسيَّة على نحو العموم، وما سواه سيكون في "سلة مهملات"، تعيَّنت مبادئ استعمال اللُّغة فعلاً في سياق تواصليّ بخطاب مخصوص، يضطلع بدراسته الشَّأن التَّداوليّ، لم يكن له من مجال اعتباري في خطاب النِّظام. يقول "بالمر" وهو يُفصح عن هذا الانفصال ومبرّرات إمكانه؛ بسبب محورية المعنى وإشكالياته: "إنَّ المعاني لا تبدو مستقرّة، بل إنَّها تعتمد على المتكلّمين والسامعين والسِّياق. مع هذا فإن كانت اللِّسانيّات علماً وجب عليها أن لا تهتم بالأمثلة المحدَّدة، بل بالتّعميمات. لهذا السّبب فقد افتُرِضَ عموماً أنَّ بالإمكان إجراء التَّمييز بين النِّظام اللُّغويّ واستعمال هذا النِّظام من قبل المتكلّمين والسَّامعين"(٢٤٧).

يتشاكل التَّوصيف اللِّسانيّ في تقاطع إذن. ولكن هل ثمَّة، فعلاً، تقاطع وانفصال، بين هذه المكوّنات التَّواصفيَّة، أو مفارقات بين الدَّلالة والتَّداوليَّة، وقراءة نحو السّيميائيّات تُعنَى بكلّ شيءٍ دراسة خصوصيَّة وعلاقات(*)؟!.

يبدو أنَّ القراءاتِ كثيرة في هذا الشّأن، فضلاً عن اختلاف مستويات التَّلقِّي والمناهج، ولعلَّ منها قراءتين يكشف عنهما "هرمان باريه"، وهو في رحاب إيضاح ماذا تعني التَّداوليَّة المدمجة، مصطلحاتٍ، وتوصيفها، على المستوى الأدنى والأقصى، وكيف أنَّ "موريس" في ترتيب المكوّنات الثلاثة كان موضوعيّاً، وأنَّ التَّصوُّر الأدنى للتَّداوليَّة يفضي إلى أنَّ

مجالات السِّيمياء الفرعيَّة متجاورة تقوم بينها علاقة تكامل، فهي إذن منظمة أفقيّاً، وقد يتحوّل مستوى تنظيم هذه المجالات الدَّلائليَّة الفرعيَّة فيكون عموديّاً. ثمَّة اختياران إذن[٢٤٨]:

الأوَّل: يقدِّم الإعراب والدَّلالة والتّداوليَّة على أنَّها مكوّنات صماء للدَّلائليَّة. والثاني: ينظر إلى أنَّ هذه المكوّنات منضدة بالقاعدة التَّداوليَّة كارتباطها بأساسها، وهو التَّصوُّر الأقصى للتَّداوليَّة باعتبار "أنَّ المجال التَّداوليّ هو قاعدة التَّركيبة الجامعيَّة حيث الإعراب والدَّلاليَّة لا يحتلّان إلَّا مواضع التَّجريد دون توافق منطقيّ نظريّ ما لم يرتبطا بقاعدتهما المؤسّسة"[٢٤٩].

وعلى الرّغم من خصوصية كلٍّ مِن هذين المستويين ومداركهما، فضلاً عن التَّداخل مرةً، والتَّناقض بينهما في أُخرى، تقترح التَّداوليَّة اللِّسانيَّة، المسمَّاة "التَّداوليَّة المدمجة"، أو "الاندماجيَّة"، أن يكون البرنامج التَّداوليّ بضمن اللِّسانيّات، أي أنَّها: "تسعى إلى أن تكون مندمجة في اللِّسانيّات لا كتكملة لها، بل كجزءٍ لا يتجزأ منها"[٢٥٠]؛ وهي تداوليَّة تنطلق من ملاحظة "أوزوالد ديكرو" في "أنَّ الدَّلالات اللُّغويَّة تتأثَّر بشروط استخدام اللُّغة، وهي شروط مقنَّنة ومتحقِّقة في اللُّغة"[٢٥١]. وبعبارة اصطلاحيَّة أخرى: "هي نظريَّة دلاليَّة تدمج في الشّفرة اللُّغويَّة (اللِّسان بالمعنى السوسيري) مظاهر عمليَّة القول"[٢٥٢].

لقد ألفت "ديكرو"، نقداً، أنَّ على اللِّسانيّات أن تُعنى بشؤون التَّلفُّظ ولسانيّاته الاستعماليَّة[٢٥٣]، وألَّا تقصر مجالها على النِّظام النَّظريّ المجرَّد، وذلك بطريقة عكسيَّة، فبدلاً من البقاء في تجريد النِّظام اللُّغويّ، كمادة فحسب؛ يمكن النَّظر في استعماله ووظائفه، فضلاً عن تفسيره التَّلفُّظ، ذلك لأنَّ اللِّسان في الأصل تقبع فيه مكوّنات سَننيَّة تخصّ عمليَّات القول وإلقائه. يقول "ديكرو": "لنميز، من الناحية المنهجيَّة، بين مجال الأحداث الذي يشكِّل حقل الملاحظة اللِّسانيَّة وبين النِّظام النَّظريّ الذي ينشئه اللِّسانيّ، ولتوضيح ذلك، فسوسير يُسمِّي القابل للملاحظة "كلاماً" (parole) ويُسمّي النِّظام "لساناً" (langue). إنَّ اختيار كلمة "كلام" (وكثيراً ما يقصد إليها بكلمة "استعمال" (لتعنيَ مجال الأحداث، نفَهْم منه أنَّ الموضوع النظري – على النقيض من ذلك – يجب ألَّا يحتوي أيّ إشارة إلى فعل القول. ومن ثمَّة جاءت فكرة أنَّ هذا الموضوع (أي اللِّسان) يتألَّف من سَنَن مقرّر بوصفه توافقاً بين الحقيقة الصَّوتيَّة والحقيقة النَّفسيَّة اللتين يُعبِّر بهما ويُتَواصَل بهما... ولكن اللِّسان ذاته (أي القانون)، قد لا يحتوي على أيّ إشارة إلى الاستعمال إلا بوصفه أداة لا تحيل على مختلف استخداماتها"[٢٥٤].

لم يرتض "ديكرو" بهذه المفارقة بين اللِّسان والقول، بل قرَّر عدمها قراءةً، حتَّى على افتراضها المنهجيّ، يقول: "لو حافظنا على التَّفريق المنهجيّ بين ما هو قابل للملاحظة – المتكوّن من التَّطبيقات اللُّغويَّة – والمادة النَّظريَّة القائمة لتفسيره – وهي المادَّة التي يمكن مواصلة تسميتها "لساناً" –، فإنَّنا نرى أنَّ هذه المادة تحتوي بطريقة مركَّبة، تعيينات تخصّ عمل القول، فهذه المادة تحتوي وصفاً عامّاً وترتيباً لمختلف وضعيّات الخطاب الممكنة، كما أنَّها تحتوي تعليمات تتعلّق بالسلوك الإنسانيّ، أي بخصوص بعض أصناف التَّأثير التي نمارسها عند الكلام، وخصوصيَّة بعض الأدوار التي يمكن أن نتخذها لأنفسنا وأن نُلزم الآخرين بها، وتفترض لسانيّات التَّلفُّظ أنَّ مجموعة من الأشكال النَّحويَّة ومن مفردات المعجم ومن الصِّيغ ومن التَّراكيب، سِمَتُها الاعتيادية أنَّنا باستعمالها نُنْشئ أو نُسهم في إنشاء علاقات مخصوصة بين المتخاطبين. وإذا كان من الممكن مجدَّداً اعتبارُ اللِّسان سَنَناً، فإنَّ ذلك ليس في معنى أنَّ السَّنَن يصلُح لتسجيل محتويات الفكر، ولكن في معنى أنَّنا نتحدَّث عن سَنَن التأدُّب، باعتبار قائمة من السلوكات [كذا] الاجتماعيَّة"[٢٥٥].

ومن هنا قدَّم "ديكرو" أطروحة التَّمييز بين ثنائيَّات تقابليَّة[٢٥٦]، وهي: الجملة، والقول، ثُمَّ التَّلفُّظ، وبين الدَّلالة والمعنى، ثُمّ "الذات المتكلِّمة"، وتمثيل مفهوم "تعدُّديَّة الأصوات"، فضلاً عن افتراض عدم التَّمييز بين المعنى الحرفي، وغير الحرفي؛ للوصول إلى مستوى إدراكي لما تقوم عليه بنية السَّنن اللُّغويَّة في التّلفُّظ والاتصال أو الاندماج التَّداوليّ في

اللِّسان، يقول "ديكرو": إنَّه من المعتاد أن نميّز بين الجملة، وهي كينونة لسانيَّة مجرّدة، ويمكن أن تُستَخدم في أوضاع مختلفة لا نهاية لها، وبين العبارة، التي هي إنجاز خاص للجملة تقوم به ذات متكلِّمة محدَّدة في مكان معيَّن، ولحظة معيَّنة. ويجب أيضاً تمييز التَّلفُّظ من هذين المفهومين: إنَّه الحدث التَّاريخي الذي يتكوَّن من عبارة تمّ إنجازها..."[٢٥٧].

وأمَّا ثنائيَّة "الدَّلالة، والمعنى": مستوى القيم والإلقاء الدَّلاليّ، فإنَّ الأولى هي القيمة الدَّلاليَّة التي تسند إلى الجملة، وتُسمَّى "دلالة الجملة" في النِّظام اللُّغويّ، وهي: مجموعة المفردات المؤلّفة وفق قواعد النَّحو، وأمَّا المعنى فهو القيمة الدّلاليَّة التي تُنسب إلى القول، وهي معنى القول/الملفوظ. والفرق بينهما كما يرى "ديكرو" فرق منهجيّ[٢٥٨] أيضاً، ذلك "أنَّ الجملة، ومن باب أولى وأحرى الدَّلالة المرتبطة بها ليست معطى ملموساً وقابلاً للملاحظة. بل هي حصيلة بناء نظريّ يبّنيه اللِّسانيّ. أمَّا ما يمكن ملاحظته فهو المعنى المرتبط بالقول. وإن كان القول حصيلة إلقاء القول، فإنَّه لا يُمثّل رغم ذلك معطى ملموساً أو ثابتاً أكثر من الجملة. ولذلك تفترض التَّداوليَّة المدمجة إذن أنَّ كل متكلِّم قادر على تقديم فرضيات حول معنى قول ما (هو ما يسمّيه "دكرو" الفرضيّات الخارجيَّة)..."[٢٥٩].

وعلى أيّ حال، تبقى "دلالة الجملة"، – وتوضيح القول لـ"جاك موشلر" – "في التَّقليد اللِّسانيّ إنَّما هي "المعنى الحرفي" وتدلّ عبارة المعنى الحرفيّ على ما يبقى ثابتاً من الجملة بين تحقّق وآخر... فمن ناحية لم تَعُد دلالة الجملة أمراً يمكن قوله، ولكنَّها بالأحرى مجموعة من التّعليمات تمكّن بالرجوع إلى مقام الخطاب، من النفاذ إلى معنى القول. ومن ناحية أُخرى فإنَّ قصد المتكلِّم المنشئ للقول لم يعد يتمثّل في الانتاج الآلي لدلالة الجملة، ولكن في أن يُطلِع مخاطبه على استنتاج معيَّن هو ما يستهدفه إذ ينشئ القول... يمكن القول إنَّ معنى القول هو تمثيل أدائه القولي الخاصّ"[٢٦٠].

وتأسيساً عمد "ديكرو" إلى تشخيص ثلاثة مفاهيم من التَّداوليَّة[٢٦١]، وهي، في تصوّره، لا تخرج من دائرة النَّقد، وما يكون منها في التَّحليل اللِّسانيّ، وكونها مدمجة فيه، وجزءاً منه، مع عدم إغفالٍ لقراءة ما يقيمه السِّياق والمقام من آثار على العبارة ودلالتها، ولكن لا على أثر المقام فيه، كما تسمو به بعض المفاهيم التَّداوليَّة، بل بالعكس. أو ما يمسّ إشكاليَّة الوظيفة التي يقوم عليها تكوين النّظام، بلا قراءة من استعمال. كلّ هذا إنَّما يرجع إلى تصوّرات تتمثَّل تعليماً في النِّظام اللِّسانيّ الذي تنعكس فيه عمليّات إلقاء القول وإنتاجه، ولهذا كان، أعني: "ديكرو" يوجّه نقداً لتلك التَّداوليَّات، ومنه:

١. أنَّ اللّجوء إلى المقام من أجل التَّأويل غالباً ما يكون منصوصاً عليه، وتحدِّده المادَّة اللِّسانيَّة نفسها، وهكذا، فإنَّ الضَّمير "نحن" يبدو أنَّه يحتوي، في معناه الجوهري، على تعليمات تتعلّق بالبحث عن المرجع: المقصود به أشخاص ينتمون إلى مجموعة، يعلن المتكلّم أنّه يُعدّ جزءاً منها[٢٦٢]. ٢. لا ينعكس تأثير المقام على الكلام، بل العكس إذ يؤثِّر الكلام على المقام، فمعظم العبارات تعطي في وقت واحد معلومات عن العالم، وتقييم، أو تزعم أنَّها تقييم بين المشاركين في الخطاب نموذجاً خاصاً من العلاقات، يختلف باختلاف فعل اللُّغة المنجز، ويختلف أيضاً تبعاً لمستوى الخطاب المختار، ومن جهة أخرى، فإنَّها تفرض صورة معيَّنة للمتكلِّم في اللحظة التي يتكلَّم فيها، وإنها لتفرض على المتلقي أيضاً صورة عن ذاته، فتعزو له، في اللحظة التي نتوجه بها إليه في هذا الموقف، أو ذاك[٢٦٣]. ٣. أنَّ اللِّسانيّات على مسيرتها التَّاريخيَّة لم تنفكّ عن طرح حقيقة، وهي خضوع البنية للوظيفة، وتأكيد أنَّه يجب معرفة لماذا اللِّسان يكون، بغية معرفة كيف يكون: إنَّ المتصورات المؤهّلة مع وصفه لا يمكن أن تستخلص إلا بالتَّفكير في وظيفته[٢٦٤].

ومهما يكون من أمر فالتَّداوليَّة اللِّسانيَّة/المدمجة تميّزت عمّا سواها، بجملة من أطروحات، لخَّصها، "جاك موشلر"، بجملة من مُسلَّمات، منها[٢٦٥]:

. "أنَّ النِّظام اللُّغويّ وضع لغاية التَّواصل باعتبار أنَّ معنى القول مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعمليَّة قوله، لذا نقول إنَّ بنية اللِّسان تعكس عمليَّة إلقاء القول أو تشير إليها".

ـ "لا يُمثّل اللِّسان مجموعة من الإمكانات النَّحويّة فحسب داخل الجملة إذ توجد شروط لغويَّة دقيقة تقيّد تسلسل الأقوال، وتعاقبها...".

. "إنْ كانت التَّداوليَّة مدمجة في الدَّلالة (أو في الشفرة اللُّغويَّة) اقتضى ذلك أنَّ دراسة معنى قول يشتمل على جانبين هما: دلالة الجملة (المجال اللُّغويّ)، ومعنى القول (المجال البلاغيّ، أو التَّداوليّ) إنَّ التَّمييز بين الدَّلالة والمعنى ضروريَّة كلَّما أردنا التَّمييز داخل عمليَّة بناء المعنى بين دور العناصر اللُّغويَّة ودور العناصر غير اللُّغويَّة".

أقول، هل يمكن أن تعود التَّداوليَّة إلى المجال الدَّلاليّ، ذلك الأصل الأوَّل الذي يلخِّص فاعليَّة الانتظام اللُّغويّ هدفاً في دراسة جوانب المعنى، كما تفعل هي؟، وهل يمكن أن تستند التَّداوليَّة إلى مرجعيَّة من نظام مشفوعاً بوظائفه وما تقتضيه مستلزمات غاياته، وتكون ذائبة في ذلك المستوى الدَّلاليّ الذي يمكن أن يستوعبها مسائل وموضوعات؟.

يبدو أنَّ مدارك التَّلقِّي تأبى إلا قيام الموصوف بما في مفاتيح تكوينه الاصطلاحيَّة، فإذا كان بالإمكان أن تعيد الدَّلالة هيبةً الدَّرس اللِّساني إلى ساحة الظُّهور بعد النَّقد التَّداوليّ، فإنَّ هذا لا يعني انعدام المفارقة التي تقوم عليها مستويات الدَّرس اللُّغويّ وما في مداخلها، سواء القول بالاندماج، أم بالاستقلال، ولعلَّه لهذا يقول "جون لينز": "إنَّ لي نظرة واسعة لعلم الدَّلالة فهو بالنسبة لي يعني حسب تعريفه دراسة المعنى. أمَّا علم الدَّلالة اللُّغويّ فهو دراسة جميع أنواع المعنى المختلفة التي يرمز إليها على نحو نظاميّ في اللُّغات الطبيعيَّة، وبالتالي فإنّي أضمّ إلى علم الدَّلالة اللُّغويّ قسطاً كبيراً ممّا يعدُّه العديد من زملائي تابعاً للجانب الذرائعي (براكماتيكس) على أنّني أميّز بين الكفاءة والأداء (أو القدرة والإنجاز) من ناحية، وبين المعنى والاستعمال من ناحية أخرى"[٢٦٦].

ولهذا لم تكن في قراءة الاندماج التَّداوليّ . الدَّلاليّ، رؤية كافية لتفسير مفهوم التَّداوليَّة بلا نقدٍ، أو من غير تقديم قراءة أُخرى تسمو بها إلى نحو مِن تكامل، فـ"جيوفري ليتش" مثلاً، يطرح قراءة تنحو بها نحو الانفصال الشَّفاف بينها وبين الدَّلالة مرةً، والغليظ في أُخرى، حين وازن بين المجال النَّحوي، والتَّداوليّ[٢٦٧]: "النَّحو (في أوسع معانيه) ينبغي أن ينفصل عن التَّداوليَّة"[٢٦٨]، وما انتهى به من توصيف "النَّحو التَّواصليّ"[٢٦٩]، الذي يعمل، جامعاً، على ربط المستويات الثَّلاثة: التَّركيب والدَّلالة والتَّداوليَّة، وإدراك القوة التَّداوليَّة، وفي ضوء نظرة تفاعليَّة تكامليَّة لفَهْمِ اللُّغة[٢٧٠].

ولقد تجلَّت هذه المفارقة بين الدَّلالة والتَّداوليَّة فيما طرحه من ممارسة ترتكز مرجعيّتها الأولى على مسألة أنَّ التَّمييز بين اللُّغة، والكلام/الاستعمال بمفهوم سوسور، مختلف فيهما كالاختلاف والتنازع بين السيمانطيقا والتَّداوليَّة، وهما، وإن كان كلّ منهما يدرس الدَّلالة، إلا أنّهما يفترقان في حدود من المعنى والقصد في حيز الاستعمال، يقول "ليتش": "كلا الحقلين يهتمان بالدَّلالة. لكنَّ الاختلاف بينهما يمكن أن يُرسَم من خلال استعمالين لفعل to mean يفيد معنى من نحو:

١) ماذا تعني س؟ what does X mean?.

٢) ماذا كنت تقصد بـ(س) what did you mean by x?.

وعلى ما جرى به العرف فإنَّ السِّيمانطيقا تتعامل مع الدَّلالة كعلاقة ثنائيَّة dyadic كالحال في (١)، في حين تعالج التَّداوليَّة مسألة الدَّلالة كعلاقة ثلاثية Triadic من نحو مثال (٢). ذلك أنَّ الدَّلالة في التَّداوليَّة تتحدَّد بالنَّظر إلى المتكلِّم أو المستعمل للغة، في حين أنَّ الدَّلالة في السيمانطيقا تتعرَّف على نحو خالص كخاصية للعبارات في لغة معيَّنة بغض النَّظر عن الموقف الخاص والمتكلّمين أو المستمعين..."[٢٧١].

ومن هنا كان تحديده للتداوليَّة قائم على نحو من مفارقتها السِّيمانطيقا إجابةً، بعد سؤال: "كيف نعرف بأننا نتعامل مع الظواهر التَّداوليَّة ولا نتعامل مع الظَّواهر السّيمانطقيَّة؟"[٢٧٢]، في كونها: الدَّلالة التي تختصّ بإدراك المعنى الذي يتعلَّق بالموقف الكلاميّ[٢٧٣].

ولأنَّ فكرة المفارقة بين السّيمانطيقا والتَّداوليَّة، في اعتباره، يسهل تقييمها من الوجهة الذَّاتيَّة، ولكن من الصَّعب تبريرها من الناحية الموضوعيَّة[٢٧٤]، وَضَعَ "ليتش" جملةً من مسلَّمات نشر قراءتها تأسيساً للأنموذج التَّكامليّ: النِّظام، الصُّوري . الاستعمال، الوظيفيّ، الذي سعى، بعد اقتراحه، إلى توصيفه بتعيين جملة من المفارقات بين السّيمياطيقا والتَّداوليَّة، وهذه المسلّمات، أو المبرّرات هي[٢٧٥]:

١. أنَّ التَّمثيل السيمانطيقي (أو الصُّورة المنطقيَّة) للجملة يكون متمايزاً عن تأويله التَّداوليّ.

٢. أنَّ السّيمانطيقا مضبوطة القاعدة النحويَّة. أمَّا التَّداوليَّة العامة، فهي مضبوطة المبدأ، بمعنى: أنَّها في مبدئها خاضعة لحكم خطابي.

٣. إنَّ قواعد النَّحو هي بالأساس قائمة على المواضعة والاتفاق. أمَّا مبادئ التَّداوليَّة، فهي بالأساس غير قائمة على التَّواضع، أي: أنَّها معلَّلة بالنَّظر إلى أغراض التَّحاور.

٤. إنَّ التَّداوليَّة العامة تربط معنى (أو دلالة نحويَّة) التلفُّظ بالعبارة بقوة كمال الإنجاز قوة فعل الكلام. ويمكن أن تكون هذه العلاقة على نحو نسبي مستقيمة مباشرة، أو ماثلة على نحو غير مباشر.

٥. إنَّ ضروب التَّشابه النَّحويّ في وضعيَّة معيَّنة تحدّده عناصر التَّطابق، على حين أنَّ ضروب التَّناظر التَّداولي تحدُّده المشاكل وإيجاد الحلول لها.

٦. أنَّ التَّفسيرات النَّحويَّة هي في أصلها وفي المقام الأوّل منها إنَّما تكون صوريَّة، في حين أنَّ التفسيرات التَّداوليَّة تكون في المقام الأول وظيفيَّة.

٧. أنَّ النَّحو معرفيّ التّصوُّر، والتَّداوليَّة قائمة على العلاقة بين الأشخاص وعلى التَّناص.

٨. بوجه عام يمكن أن يوصف النَّحو بمقولات منفصلة ومحدودة، وتوصف التَّداولية بواسطة قيم متصلة، وغير محدَّدة.

ولا ريبَ في أنَّ هذه المُسلَّمات تفضي سِمة معرفيَّة على نحو المفارقات بين النّظم اللُّغويَّة التَّواضعيَّة، والمبادئ الاستعماليَّة في الخطاب، ولكن، على الرّغم من أنَّهما، بحسب "ليتش"، تؤكّدُان وجود حقلين، وأنموذجين مختلفين في البحث اللِّسانيّ، إلا إنَّهما يؤلّفان أنموذجاً مبتكراً جامعاً في اللِّسانيّات[٢٧٦]، ولهذا حاول أن يرسم نظرة كُلِّيَّة عن اللُّغة بخريطة تفاعليَّة تكامليَّة بينهما؛ إدراكاً حقيقةَ اللُّغة مع زيادة من فهم، يقول: "أنّني أركّز على الاحتجاج لنظرة مخصوصة عن الفارق بين النَّحو والتَّداوليَّة. غير أنَّ موضوع هذا الاحتجاج ستكون له استنتاجات أساسيَّة عن الطَّريق التي أنظر به [كذا] إلى اللُّغة. ومن الناحية الجوهريَّة فإنَّ ما ندعيه هو أنَّ النَّحو (أي: النِّظام الصُّوري المجرَّد للغة)، والتَّداوليَّة (أي: مبادئ أو أصول استعمال اللُّغة) ميدانان متكاملان ضمن اللِّسانيّات. فنحن لا نستطيع أن نفَهْم طبيعة اللُّغة بدون دراسة هذين الميدانين والتَّفاعل بينهما"[٢٧٧].

ولكي يثبت هذه الهوية النَّظريَّة، بما فيها، بمنهجيَّة تفاعليَّة التَّكامليَّة، عمل على توضيح كيفيّاتها العمليَّة بالقول: "تتضمَّن هذه النَّظرة إثبات مركزيَّة اللِّسانيات الصُّوريَّة بالمعنى الذي يعطيه تشومسكي لمفهوم "الكفاية" إلا أنَّه إقرار يجب أن يتطابق وأن يضع إجابة عن أعمّ إطار بحيث يجمع التَّفسير الوظيفيّ والصُّوري"[٢٧٨].

ولهذا استند في التَّحليل إلى المنوال النَّحويّ، على الرّغم من أنَّه لم يرَ فرقاً في الابتداء أيكون منه إلى السّيمانطيقا، ثُمَّ إلى التَّداوليَّة، أم العكس، لأنَّها، بحسبه، متكاملة. حين يقول: "إذ لا سببَ يدعو لأن نفصل اتّجاهاً عن آخر؛ إنَّه من الناحية العمليَّة يكون من الطَّبيعيّ أن نشرع بما هو متعارف وواضح – وهو التَّركيب النَّحويّ – وأن نتّجه منه إلى ما هو متغيّر في السِّياق وغير واضح – أعني التَّداوليَّة..."[٢٧٩]. ثُمّ يقول: "وهناك سبب آخر لتفضيل العمل انطلاقاً من التَّركيب النَّحويّ إلى التَّداوليّة، أو إن شئت انطلاقاً من الشَّكل إلى الوظيفة ويتمثَّل هذا السَّبب في صعوبة الإقناع بما هي عليه قوة

التَّلفُّظ بالعبارة بافتراض أنَّ قوة التَّداوليَّة هي... أساساً صيغة غير نمطيَّة ومتغيّرة تبعاً للسِّياق، وبافتراض أنَّ الوصف التَّداوليّ يقتضي الشّيوع، وعدم التَّحديد واستمراريَّة القيم..."[٢٨٠].

وهو الأمر الذي يعني أنَّ الثَّابت النِّظامي: التَّركيب النَّحويّ والدَّلالة، لم يكن فيه إشكاليَّة، بل يبقى قياساً ضرورياً؛ لإدراك مستويات التَّغيير والمواقف السِّياقيَّة غير الثابتة تلك التي تقع تحت ملاحظة التَّداوليَّة، بوصفها: مبادئ عامة ترصد العدول من القياس في الاستعمال، أو دائرة التَّواصل/التَّخاطب، مع أدوار الكلام والتَّلقِّي وضروب اللزوم التَّحاوري، إذ لولاه لما كان ثمَّة مقارنات، أو إجراءات قياسيَّة أو وصفيَّة ممكنة(*). يقول "ليتش": "إذا نحن نقرّرنا الانطلاق من هذا الاتجاه، فيشبه أنَّنا اتخذنا ضميناً موقف المخاطب الذي ينجح في الوصول إلى قوة التَّلفّظ بالعبارة، بفكّ رمزها ومعناها. وحينئذٍ، عن طريق طرق حلّ الإشكال استكشافياً، يستنبط قوتها أو ما يؤل إليه تأويلها التَّداوليّ... ومن الوجهة المنطقيَّة، فإنَّ هذا يظهر أسلم طريق لكي نتناول شرح القوة التَّداوليَّة، حينما نتفق بأنَّ التَّداوليَّة مثلها مثل السيمانطيقا هي دراسة التَّبليغ التَّواصلي للدلالة على وجه فصيح في ملأ من النّاس، ومن ثُمَّ، فإنَّه يكون حتماً لازماً أن نبتدئ بالنَّصّ ذاته ممّا هو ملاحظ عن الملأ من الناس، ونحاول حينئذٍ أن نعيد انطلاقاً منه بناء الدَّلالة التي وقع بها التَّواصل بوضع بعض الافتراضات وبنوع من المعرفة التي يتقاسمها كلّ من المتكلِّم والمخاطب،..."[٢٨١].

وعلى افترض من كلّ ما تقدَّم من رؤية ونَصّ، يبقى تصوُّر "ليتش" لتلك النَّظرة التَّكامليَّة إلى اللُّغة غايةً، وأيّ غاية!، والسَّبب، والرأي له، هو "أنَّه من المحال أن نرسم الحدّ الفاصل أو الحدود بين التَّلفُّظ بالعبارة التي يستلزم بها المتكلِّم قضية ما،... وبين التَّلفُّظ بالعبارة التي تكاد توصل المعلومة غير المقصودة ممّا يقتضيه المتكلِّم"[٢٨٢]. هذا من جانب. ومن جانب آخر "أنَّ التَّواصل اللِّسانيّ يتعلّق تعلّقاً كبيراً بالافتراض القائل، بأنَّ ما يقصده المتكلِّم يتأوّله والمخاطب على نحو ما، ومن وجه ما. وهذا التَّداخل الموجود بين المعنى "المقصود"، والمعنى "المبلغ عنه" هو ما يحتل المركز في التَّداوليَّة وقواعد العلاقة والأحوال الأسلوبيَّة هما الضامنتان لمركزيتها"[٢٨٣].

أقول لم تكن ثنائيَّة الاتصال والانفصال بين الدَّلالة والتَّداوليَّة إذن، إشكاليَّة بقدر ما كانت ميزة تعمل على تحديد خصوصيَّة كلٍّ وما هي له؛ إدراكاً المعنى وجوانبه المتعدِّدة، والجامع الأوَّل، بلا ريب، هو اللُّغة، التي كوَّنت لكلّ من الدَّلاليَّة والتَّداوليَّة مشروعيَّة عملٍ، في نظرة تفاعليَّة تكامليَّة من تلك المستويات الدَّاخلية الخارجيَّة، أو ما ينبغي أن تكون عليه، لِفَهْم حقيقتها، جوهراً وفعلاً.

وعلى نحو من منهجيَّة الاستحسان لنظرية التَّفاعل والتَّكامل بين الدَّلالة والتَّداوليَّة يجري ما يقترحه "ليفنسُون"، ولكن مع إبقاء إشكاليَّة الانفصال بينهما أيضاً؛ وذلك لخصوصيّة كلّ منهما، وقراءة ما يمكن أن يستوعبه كلّ مجال منهما، أو لا يمكن، من المجالات التي تعالج جوانب المعنى؛ لكي لا يذوب أحدهما في الآخر وما يسببه ذلك من إشكاليَّات؛ ولهذا نقد تعريف التَّداوليَّة الذي يقوم على فكرة دراسة كلّ "تلك الجوانب الدَّلاليَّة، التي لا تستوعبها نظريَّة الدَّلالة"[٢٨٤].

والسَّبب في ذلك، كما يرى، أمور منها[٢٨٥]:

ـ ضياع التَّعريف في شموليَّة الدَّرس الدَّلاليّ؛ لأنَّ تعريفه: "علم المعنى في كُلِّيّته"، فكيف يمكن أن تكون ثمَّة بقية للتداوليَّة؟!.

. اقتصار علم الدَّلالة على شروط الصِّدق، بلا إخراج منه، مع أنَّ التَّداوليَّة تتناول الجوانب الدَّلاليَّة للمنطوقات بلا إحالة مباشرة إلى شروط الصِّدق للجملة المنطوقة.

ـ التَّناقض الذي يشوب تعريف الدَّلالة، فمرةً بنحو من اتِّساعه، وأخرى بتقييده داخل النَّظريَّة اللُّغويَّة، فعلى حين تكون الأخيرة ذات مبادئ متماسكة، منسجمة، ستكون الأولى، بخلافها، فضلاً عن ظهور الاندماجيَّة على المشهد، ثُمّ أيّ منهما الدَّلالة؟، وأيّ منهما التَّداوليَّة؟.

ولهذا رفَض ذلك التَّعريف، لاحتمال صدقه على كلِّ تعريف للتداوليَّة يسعى أن يكون مكملاً للدلالة بلا تقاطع، هذا من جانب، ومن آخر: وجود مجالات مهمَّة لا يمكن أن تُوضَع داخل أيّ نظريَّة دلاليَّة مفردة مبنيَّة على مبادئ متجانسة[٢٨٦]. كما اعترض على التَّعريفين اليسيرين: الدَّلالة بكونها دراسة المعنى "المبسط"، والتَّداوليَّة بأنَّها بحث الاستعمال اللُّغويّ[٢٨٧].

من أجل هذا صَاغ "ليفنسُون" اقتراحه في هذا المجال، وكبديل عن شموليَّة الدَّلالة، لاعتماده المفهوم الأضيق منها، وقدَّمه على أنَّه نظريَّة تعالج قضية بحث في كتابه، يقول: "سوف نفترض في هذا الكتاب فرضية بحث، وهي نظريَّة دلاليَّة خاصة بوظيفة الصِّدق..."[٢٨٨]. وذلك لأسباب، منها؛ أوّلاً: كونها النظريَّة الوحيدة المتاحة في الوقت الحالي، وتُعدّ دقيقة ومؤكَّدة، إذ تتيح بحث الحدّ بين الدَّلالة والبراجماتيَّة، أو التَّفاعل بين كِلا المكوّنين أساساً. ثانياً: يمكن أن يُبرهن على أنَّ أغلب النظريات الأخرى مثلاً القائمة على أساس مكوِّنات دلاليَّة يمكن أن تُدمَج في هذه النَّظريَّة باعتبار أنَّها تُبنى بشكل متماسك ومنطقيّ. ثالثاً: رُبَّما تكون، برغم بعض الآراء والإشكاليَّات التي لم تُحَلّ، هي النَّظريَّة ذات الدّعم الأكبر في الأوساط اللُّغويَّة[٢٨٩].

وعلى الرّغم من دعوته لفَهْمِ هذا الاتجاه بالاقتراب منه، فإنَّه يفترض أنَّه مِن الجِدَّة أن يبقى عالم البراجماتيَّة لا أدريّاً عن أيّ نظريَّة دلاليَّة يمكن أن تكون له فرضية بحث؛ وذلك لكثرة ما يمكن أن يدخل في الجوانب الدَّلاليَّة التي يمكن أن يعالجها البحثُ الدَّلاليّ، وهو الأمر الذي لا يقيم نظريَّة منطقيَّة مترابطة متماسكة بها مع التَّداوليَّة[٢٩٠].

بيد أنَّه في نهاية النَّقد لم يكن ليخرج من هذا النَّظر إلا ليؤكِّد على تَهْجِين القضية، بين الاتجاهين: الدَّلاليّ والتَّداوليّ معاً. ومع أمل يحدوه في أن يكون لكلّ منهما مباحث متجانسة. يقول: "مع ذلك فالمحور هنا أيّ نوع من نظريَّة دلاليَّة يمكن أن تُفترض دائماً أيضاً، وألَّا يستطيع المرء ببساطة أن يضيف جوانب كثيرة لمعنى مصوغ بشكل كبير، حين ينبغي أن يكون للنظرية تماسك وثبات داخلي. وانطلاقاً ممَّا نعرف الآن عن المعنى يبدو عرض هَجِين أو قالبي لا محيص عنه"[٢٩١]. ثُمَّ يقول: "يبقى الأمل في أنَّه مع المكونين، الدَّلالة والبراجماتيَّة، اللذين يعملان في عربة يجرها حملان، كلّ منهما يمكن أن يُبنى بشكل متجانس ومنظّم نسبياً، وربَّما تكون نظريَّة هجيم[ة] كهذه بشكل مؤكَّد تقريباً أكثر بساطة واطراداً من نظريَّة مفردة غير متبلورة وغير متجانسة للدلالة"[٢٩٢].

على أيّ حال تبدو في بعض الأحيان رغبة الموافقة عند "ليفنسُون" لبعض أسباب "على فَهْمِ البراجماتيَّة على أنَّها علم جوانب المعنى التي لا تستوعبها الدَّلالة"[٢٩٣]، ولكن باشتراط ما يجب أن يُعرف من مستويات المعنى، ومن منها يمكن أن يشكِّل محوراً فيها: العرفيّ أو غيره، أو ما يبقى من قيم الاستدلال وأنواعه أيضاً بالاعتماد على قراءة "جرايس" ومفارقة المعنى: الطّبيعي وغير الطبيعيّ. يقول "ليفنسُون": "مع ذلك يجب أن نعرف كيف ينبغي أن يُحدّ مفهوم المعنى المصوغ بشكل كبير، الذي يُؤسَّس عليه التَّعريف. هذا المعنى الواسع ينبغي أن يشتمل على المحتوى التَّهكميّ، والاستعاريّ، والاتصاليّ الضّمنيّ لمنطوق ما، ولذلك لا يمكن أن يقتصر على المحتوى العرفيّ لما يُقال. بيد أنَّه هل يتضمَّن أيضاً كلّ أنواع الاستدلال التي يمكن أن تستتبع. ١ـ ما يُقال في كلّ. ٢ـ كلّ الوقائع المتاحة للعالم المعروف للمشاركين؟"[٢٩٤].

أقول على أيّ حال، قد يبدو لي من قراءة "ليفنسُون" لهذا التَّعريف الذي يدمج الدَّلالة والتَّداوليَّة في مجال دراسة نظريَّة المعنى الموسَّعة، نوع اضطراب؛ وما تنتهي به إليه وجوه نقده من اعتراض وافتراض، ليس بالضَّرورة أن يكون بمتبنّى، وذلك على نحو ما يأتي:

١. كلّ من الدَّلالة والتَّداوليَّة يدرس جوانب المعنى، ويعمل في عربة واحدة يجرها حملان، ولكن أين يمكن أن يقف المعنى اختصاصاً عند كلٍّ منهما؟!، ومع أنَّ المحور واحد، ولكنَّهما ينفصلان. ٢ـ توجد نظريَّة للدلالة، ولكنَّها بلا توافق

من قول؛ وذلك لسعة ما يدخل فيها مرةً، وتضييق مجالاتها في أخرى، وهو الأمر الذي يجعل التَّداولية مضطربة، وبأيّ مجالٍ يمكن أن تكون أو لا تكون، فضلاً عن اختزال كلّ التَّعريفات المعطاة فيها. ٢. توجد نظريَّة للدلالة، وهي منسجمة ومتماسكة بالمعنى المفرد إذا اقتصرت على الجانب اللُّغويّ، وهذه لا تستوعب المجالات التَّداولية الأُخر. ولكن ما مدى هذه الانسجام والطّرح في كلّ نظريَّة يتّصف بالجديد؟. ٣ـ الأولى إبقاء عالم التَّداوليَّة بلا مجال بحثي نظريّ دلاليّ معروف؛ لئلا تكون غير منسجمة مع نظريَّة الدَّلالة الموسّعة؛ مع أنَّ التَّداولية ذات مجالات غير منسجمة، ولا مترابطة. ٤. الإبقاء على الدّلالة في مجالها، والتَّداوليَّة في مجالها، أولى من الاندماج إذ يمكن أن يبني كلّ واحد منهما لنفسه نظرية متجانسة ومنظمة نسبياً، وهو الأمر الذي يجعل منهما مجالين مختلفين على الرغم من أنّهما يشتركان في دراسة المعنى جوانباً، ولكنّهما يفترقان في أيّهما يمكن أن يستوعب الآخر. ٥ـ إمكان أن تحتوي النَّظريَّة الدَّلاليَّة الموسَّعة مجالات التَّداوليَّة، فتكون الأخيرة بضمنها، إلا أنَّ إبقاء التَّداوليَّة على حالها أولى؛ لئلا تخرج نظريَّة هجينة غير متبلورة، وغير متجانسة للدلالة.

والنَّتيجة اضطراب التَّكوين النَّقديّ مشوباً بغرابة، فبدلاً من إخراج نظريَّة غير معروفة الأبعاد؛ لِسعة ما فيها من مجالات وقضايا، فضلاً عمَّا ترصده من جوانب سياقيَّة غير مستقرَّة، تقوم خصائصها على مبدأ من تأويل، إمكان اجتراح توسيع ما هو معروف؛ لسبب أنَّه يعالج ما يعالجه الأوَّل، مع نظر في توسيع مداه. هذا على إمكانه نظراً، أي: إمكان دخول التَّداوليَّة في الدَّلالة، وليس إمكان العكس، لأنَّه لا يكون. وبعبارة أُخرى، أقول، افتراضاً: ما المانع من أن تكون النَّظريَّة الدَّلاليَّة: وهي ما يختصّ بدراسة المعنى غاية، شاملة حاوية للمباحث التَّداوليَّة، إن كانت الأخيرة تفعل فعلها وزيادة على ما تركته الأُولى منها. أليس من الأجدر، بدلاً من التَّطرُّف في تعريف التَّداوليَّة، كما يقول "جون آدم": "في الحالات المتطرّفة عُرِفَت التَّداوليَّة على أنَّها ما تركته وراءها الدَّلاليَّة، وما تخلت عن تفسيره كالتَّعريف الذي جاء به كازدار Gazdar، والقائل بأنَّ التَّداوليَّة هي معنى الملفوظات فيما وراء شروط الحقيقة"[٢٩٥]. – الابتداءُ بما انتهى إليه المعروف، ثُمَّ تعديل مساراته وتطوير إجراءاته سعةً، – هذا إلا تركنا القول بسعته أصلاً – ثُمَّ تقديم تسوية بين المجالات، من قيام نظريَّة أُخرى تنزع إمكاناتها نحو إشكاليّات ونقدٍ لا يتوقَّف. هكذا بسهولة: نهاية دراسة المعنى هو علم الدَّلالة، ونهاية الأقصى منها: جوانب وموضوعات صديقيَّة، أو سواها، طبيعية أو سواها، إحاليَّة أو سواها... إلخ هو التَّداوليَّة، علم جديد واحد يدرس مبادئ المعنى والمقصود اللُّغويّ.

أقول تبقى الآمال مفتوحة لقيم التَّوافق والعقد بين المكوِّنات وما تفضي إليه من نتائجَ، ولكن أنَّى لمجالاتٍ إذا ما جُذِبَت نحو التَّقاربِ انفلت من القيد والضَّبط، وإذا ما وُضِعَت في مجال مع أُخَريات تنكَّرت وتحَّزبت، على الرّغم من أنَّ المحور هو المعنى، مُمثَّلاً باللُّغة استعمالاً، وليس إلى ذلك فحسْب، بل، في كونه أيضاً "قطبَ الرحى في نظريَّة المعرفة، وفي كلّ نقاش"[٢٩٦]!.

. المقاربة المصداقيَّة . من إشكاليَّة التَّنوُّع المفاهيميّ إلى إدراك المجال والتَّعيين البحثي:

ليس مفهوم التَّداوليَّة بدعاً من أن يستعصي على الحدّ والتَّعريف، بل إنَّ سباق تعيين ما يُتَّفق عليه من الحدود والمفاتيح المصطلحيَّة ما انفكّ يسري بداهةً، ابتداءً في كلّ مقاربات الفكر اللِّسانيّ. ولَئِن اقتصر بعضُ من تلك المقاربات على حدّ ما، فليس بدعاً ألَّا يقصر بعضها الآخر نفسه على سؤال تتبدَّى نتائجه إشكاليَّات، بلا محاولة أُخرى من تفكير، أو عدول عنه إلى آخر في تغيير، مقاربةً يدفع بها الفكرُ عن نفسه شبهة التَّحجُّر والجمود، ويكشف عن استقامة وعيه وتطوُّره بل انفتاحه أيضاً، كما في لحظة العدول من سؤال: ما اللُّغة[٢٩٧]؟، وما المعنى[٢٩٨]؟، أو سؤال ما النَّصّ[٢٩٩]؟، بعد قراءة إشكاليَّاته وصعوبة تحديده، إلى سؤال آخر، كمحاولة "فان دايك"، مثلاً، وإدراكه سؤال: "ما هي مميزات

النُّصوص واستخدام اللُّغة عموماً"؟[٣٠٠]، حين قال: "سنستبدل بالسّؤال الساذج ما النَّصّ؟ سؤالاً آخر، وسنحاول أن نحمل عليه جواباً كيف نحلّل نصّاً"[٣٠١].

ولا شكَّ في أنَّ مفهوم التَّداوليَّة ليس أقلَّ حظّاً من ذلك العدول، بل لعلَّه الأنسب له من هذا التَّشتّت المفاهيميّ المرصود لعلامتها الاستفهاميَّة، وما فيها من إشكاليَّات وجدل كبير له بداية، ولكن بلا نهاية، إنَّه العبور من الاستفهام عن ماهيات: ما اللُّغة؟ إلى الأداء، والتَّنفيذ العمليّ والفعليَّات: كيفَ، ولِمَ تُستَعمل اللُّغة؟.

ومن هنا يمكن القول إذن، إنَّ استيفاء البنود وما تقوم به التَّداوليَّة من معالجة بحثيَّة موضوعيَّة حقّاً، يمكن أن يكون مدخلاً لخصوصيّات ما تنتهجه التَّعريفات التي تُقدِّمت لأجل توصيفها المعرفيّ، فبدلاً من السُّؤال عن تعريف للتداوليَّة، ذلك السّؤال الذي تفضي نتائجه إلى الانهماك والإحباط، كما يقول "ليفنسُون": "من يسعى إلى تعريف للبراجماتيَّة، فمن المحتمل أن ينهك في هذا الموضع..."[٣٠٢]؛ بسبب أدبيَّات النَّقد، والاعتراضات على تعريفاتها غير المرضيَّة، يمكن النَّظر فيها إلى ما تقدِّمه من ظواهر توسم على أنَّها تفسير لنظريَّة براجماتيَّة.

وربَّما بدا هذا العدول من السُّؤال عن مفهومها الحدِّيّ إلى الموضوع التَّداوليّ المعالج، حلّاً لطيفاً، وإن كان فيه إشكال يسير ككلّ التَّعريفات المصداقيَّة؛ لعدم ضمّ بعض المعايير أو استبعادها منه، في قراءة "ليفنسُون" وتوصيف هذا المألوف التَّراكمي المُسمَّى "تداوليَّة" وتعريفها، فإذا لم يكن ثمَّة إجماع على تعريفها، فهناك اتفاق على مجالاتها البحثيَّة وما ترصده معالجاتها من شؤون موضوعيَّة. يقول "ليفنسُون": "ثمَّة إمكانيَّة، وهي الرُّجوع إلى تعريف ظاهريّ أو ماصدقي، أي: يقدّم المرء ببساطة قائمة من الظَّواهر التي ينبغي أن تفسَّر من خلالها نظريَّة براجماتيَّة... يمكن أن تبدو على النَّحو الآتي:... تدرس التَّداوليَّة (على الأقلّ إلى حدّ ما) **الإشارة، والاستلزام، والفرض السابق، وأفعالاً كلاميَّة**، وجوانب **بنية الخطاب**. وربَّما قدَّمت هذه القائمة حقّاً بعض الموضوعات المحوريَّة للبراجماتيَّة بشكل عقلانيّ تماماً، ولكن التَّعريف يُعيِّن بصعوبة أولئك الذين ليسوا على معرفة بعد بهذه الموضوعات،... في أفضل الأحوال أنَّه إجماع اللُّغويّين المؤسّس على تشابه أُسْرى حدسيّ يكفل معالجة براجماتيَّة لموضوع جديد. ولكن من المؤكَّد أنَّه يجب أن يقوم هذا التّشابه الحدسيّ على أساس بعض الموضوعات الأساسيَّة الضمنيَّة المشتركة – صعوبتنا فقط في أنَّنا، حين نسعى إلى صياغة هذا، نصطدم بالمشكلات المختلفة التي نعرفها في محاولاتنا المبكرة للتعريف"[٣٠٣].

إنَّ هذا الأمر الذي كان محطّ نظر "ليفنسُون" وعنايته هو الذي قاده إلى وضع كتابه: "البراجماتيَّة اللغويَّة"، والبحث عمَّاذا يفعل التَّداوليُّون، وتوضيح مفاهيمهم البحثيَّة والاشتغاليَّة. يقول: "على أيّة حال فقد بدأنا هذه الجراءة على التَّعريفات بالتَّحذير بأنَّ تعريفات مرضية لمجالات أكاديمية نادراً ما تكون موجودة، وكان القصد أن يُبيَّن أوّلاً بشكل مجرَّد بأيَّة تساؤلات وأسئلة حدِّيَّة يُعنَى البراجماتيّون بشكل ضمني. وكما اقتُرِح في البداية يجب أن يُلاحظ المرء ببساطة، إذا ما أراد أن يعرف حقيقةً، بما يُعنَى مجال بحثي معيَّن في زمن معيَّن، ماذا يفعل البراجماتيّون. وقد خُصِّص باقي هذا الكتاب أساساً لنظرة عامَّة حول بعض المهام المحوريَّة التي يتحلّق حولها البراجماتيُّون"[٣٠٤].

ولقد أقاربُ هذا الوعي والإدراك المصداقيّ بما في تصوُّرات "جورج يول" والنَّظر إلى ما قدَّمه من توصيفات متعددّة لما تختصّ به التَّداوليَّة من مجالات بحثيَّة وموضوعيَّة في المفهوم والإجراء والتَّفسير أيضاً، فهو، وإن لم يقدِّم تعريفاً وصفيّاً جامعاً لها في دالّ موحَّد، إلَّا أنَّه، في ظنّي، أدرَك أنَّ الاقتصار على تعريفٍ واحد منها، دون التَّمثيل بآخر، رُبَّما سيعرِّضه لنقدٍ واعتراض، أو هكذا سيكون، ولهذا اكتفى بمقدِّمات تمهيديَّة لشرح ما تختصّ به المجالات التَّداوليَّة في مقولات كبرى كُلِّيَّة وتوضيح ما فيها من مبادئ اشتغاليَّة وعلاقاتها بمجالات التَّحليل اللُّغويّ الأُخَر، على نحو ما يأتي[٣٠٥]: ١. التَّداوليَّة: هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلِّم. ٢. هي دراسة المعنى السِّياقيّ. ٣. هي دراسة إيصال أكثر ممّا يُقال. ٤. هي دراسة التَّعبير عن التَّباعد النَّسبيّ.

ولا ريبَ في أنَّ التَّداوليَّة ليست واحدة من هذه المجالات، ولا مختصّة بها دون سواها، بل إنَّ كلّ ذلك من شؤون البحث التَّداوليّ: القصد الكلاميّ، والتَّواصل، والتَّفسير، وكيفيَّات الصِّياغة الاستدلاليَّة، والمشاركات واعتباراتها السِّياقيَّة والاجتماعيَّة، ناهيك بالخبرات، والمعارف المسبقة.

ولعلَّ التَّمثيل بما شرعت به "المقاربة التَّداوليَّة" التي قدَّمتها "أرمينكو"[٣٠٦] واقتراحاتها منهجيَّة في توزيع التَّداوليّات على ثلاثة درجات: تداوليَّة الدرجة الأولى، وتداوليَّة الدرجة الثانية، وتداوليَّة الدرجة الثالثة، الذي تدين به لـ"هانسون"، ولما قدَّمه من برامج ونظم تطوير للتداوليَّة، فضلاً عن امتياز كونه، والقول لها: "أوَّل من حاول التَّوحيد النسقي، والربط بين مختلفة الأجزاء المتقدِّمة إلى حدّ الآن بطريقة مستقلَّة نسبيّاً، وذلك بتمييزه لثلاث درجات، واختيار اصطلاح الدّرجات بدل الأجزاء،..."[٣٠٧]، وإدراكه لمفاهيم السِّياق وآثاره الكبرى، ثُمَّ التَّدليل على الوعي المتنامي فيه لاغتنائه واتساعه في كلّ درجةٍ من تلك الدّرجات. أقول: لعلَّ ذلك أقربُ دليلٍ من العود على بدءٍ، والنحو بها من قراءة تعريفها إلى إدراك معالجاتها الشُّموليَّة، قراءة أُخرى في ضوء فاعليَّة احتواء السِّياق والتَّواصل، وهذه الدّرجات التَّداوليَّة الثلاث على نحو ما يأتي[٣٠٨]:

١ـ **تداوليَّة الدَّرجة الأولى**[٣٠٩]: وهي دراسة الرموز الإشاريَّة، من نحو الضمائر: "أنا، وأنت، وهو"، والإشارات كـ"هذا، وذاك، والآن"، أي: التَّعابير المبهمة بضمن ظروف استعمالها، أي: سياق تلفظها، ومفهوم السِّياق فيها، يشمل الموجودات، والمحدّدات الوجوديَّة، أمَّا السِّياق الوجوديّ والإحاليّ، فهو ما يشمل المخاطبين، ومحدّدات الفضاء والزمن.

٢ـ **تداوليَّة الدَّرجة الثانية**[٣١٠]: وهي دراسة طريقة تعبير القضايا، وارتباطها بالجملة المتلفَّظ بها في الحالات الهامة، إذ على القضيَّة المعبّر عنها أن تتميّز عن الدَّلالة الحرفيَّة للجملة، ومفهوم السِّياق فيها مفهوم واسع؛ لأنَّه يمتدّ إلى ما حدس المخاطبين، فضلاً عن الأخبار والاعتقادات والمشتركة، والمحدّدات في العوالم الممكنة.

٣. **تداوليَّة الدَّرجة الثالثة**[٣١١]: وهي نظريَّة أفعال اللُّغة، ومعرفة ما تمّ من استعمال الأشكال اللِّسانيَّة وأفعال اللُّغة المسجَّلة لسانيّاً، وما أنجز فعلاً في الموقف التَّواصليّ، والسِّياق فيها هو المحور الذي يحدّد فيما إذا كان التّلفُّظ جاداً، أو دعابةً، أو كان سياق مثالٍ غرضه التنبيه أو إعطاء أمر إلى غير ذلك.

وأقول يبقى مفهوم التَّداوليَّة مفهوماً واسعاً ذا حمولات منفتحة على نوافذ وأبعاد متعدِّدة، تنسبها تعليمات مختلفة، لا تتصف بأيّ حال من الأحوال بضيق المجال، مقاربةً بسعة ما يعمل عليه باحثو التَّداوليَّات، أو ما يستلزمه إدراكه من بيان للكيفيَّات الكشفيَّة، أو معرفة ما ينبغي من "الأليّات التي يستطيع متكلِّم أن يقصد بشكل أكثر أو بشكل مختلف إلى حدّ ما عمّا يقول حقيقة،..."[٣١٢]، في كلّ فرع من فروعها المتنوِّعة، وفي ضوء الأعراف التَّواصليَّة، وهو الأمر الذي جعل من "ليفنسون" يرفض تماماً أن يكون عنوانها الأكبر، بتوصيف: "بحث الاستعمال اللُّغويّ"[٣١٣]، أو "تُعنى بمبادئ الاستعمال اللُّغويّ"[٣١٤]، بلا نقدٍ؛ لعدم استيفائه، أو بالكاد يبيّن ما يعمل فيه التَّداوليُّون، ذلك العنوان الشائع ظهوراً، فضلاً عمَّا يمثِّله لها من عتبة مميزة، بل الأبرز، في نظر الأوساط البحثيَّة، تلك التي ما تفتأ تصدِّر قراءاته المتعدِّدة، وتصرف همَّته الكبرى فيها إلى العناية بخصائص استعمال اللُّغة، أو توظيف المعنى اللُّغويّ، والدَّوافع النَّفسيَّة للمتكلمين، وردود أفعال المخاطبين، والمُثُل والأنساق الاجتماعيَّة لعمليّات الخطاب وموضوعاته، بواسطة المميزات اللِّسانيَّة: التَّركيبيَّة والدَّلاليَّة[٣١٥]، مع الاحتراز من جانب، والاتساع من آخر؛ لأنَّها "ليست علماً لغويّاً محضاً، بالمعنى التَّقليدي، علماً يكتفي بوصف وتفسير البنى اللُّغويَّة ويتوقَّف عند حدودها وأشكالها الظَّاهرة، ولكنَّها علم جديد للتواصل يدرس الظَّواهر اللُّغويَّة في مجال الاستعمال؛ ويدمج، من ثَمَّ، مشاريع معرفيَّة متعدِّدة في دراسة ظاهرة "**التَّواصل اللُّغويّ وتفسيره**"."[٣١٦]، قد تخرجه من إطار النَّظريَّة الموحَّدة[٣١٧].

ولَكَ مِن بعدُ، يا صديقي، أن تَلِجَ أيَّاً من هذه الأبواب، وتتماهى فيه موضوعاً وإجراءً، ولكن، اعلم، أنَّك، إن دخلتَ عالماً منها، ضاعت عليكَ الأُخريات؛ لأنَّها عوالم غير مترابطة، ناهيك بألوانها الخاصَّة، المخصوصة بالتَّوصيف، ثُمّ اعلم

أنَّها ليستَ هي، إنَّها شبحٌ/طيف، إنْ استعملتَ شيئاً من اللُّغة فيها، صارت هي فكراً فيكَ أنتَ، تتخللُ إلى مقاصد ما تصبو إليه أنتَ، منها، نيَّةً، وغاية(*)، صحيحٌ أنَّها هي المسؤولة عنه فقاهةً: كشفاً ومحاولة تفسير وبيان، ولكن صحيح أيضاً، أنَّك – أيُّها الإنسان – موضوعٌ فيها قولاً: إنتاجاً، وتأويلاً، بلا نهايةٍ لقاعدة(**).

لماذا التَّداوليَّة؟ . التَّشخيص والتَّرياق التَّداوليّ:

التَّداوليَّة: تأسيسٌ متبنّاه التَّبرير . من الإهمال إلى فرانكنيشتاين:

هل كانت اللِّسانيّات في كهف "أفلاطون"[٣١٨] لم تلاحظ، أو تقرأ إلَّا ما يظهر من ظلال الأشياء اقتصاراً، ولم تخرج إلى حقيقتها قصداً وفعلاً، تلك التي يتجلَّى بها مبدؤها خارجاً واستعمالاً؟!.

يبدو أنَّها كذلك في يقينيّات البحث التَّداوليّ، ذلك التَّأسيس الذي أفرد لنفسه مشروعيَّة اشتغاليَّة لما أهملته اللِّسانيّات من معالجة ونظر، ليكون ظهور التَّداوليَّة، بمسمّاه، عبارة عن تشخيص لما في اللِّسانيات من خلل أو نقصّ، تُقدِّمُ لها التَّداوليَّة، ما قامت عليه، ترياقاً، أو أكسير حياة، بعد التَّماهي في التَّجريد منطقاً وعقلاً في مستويات الوصف اللِّسانيّ، بلا تمثيل قوليّ . فعليّ، في وصف استعماليّ، سياقيّ، خطابيّ، تواصليّ.

ولعلَّ اللِّسانيّات من جانبها، فيما يبدو أيضاً، تقرّ بذلك، وبسوء طالعها، اعترافاً، عندما تركت، مجانبةً، التَّداوليَّة، مجالاتٍ وجوانبَ موضوعيَّة، ترمي بها في "سلَّة مهملات"؛ لتكون، فيما بعدُ، هي السَّبب في تكوين تشريعاتها وإنشاء دساتيرها. يقول "جيوفري ليتش": "كانت التَّداوليَّة تعني معالجة أشياء مختلفة تُقحَم فيها على نحو من الاتفاق، المعطيات العصية على التَّحليل، ويمكن أن تُنسى كذلك على نحو من الاتفاق، أمَّا في أيامنا هذه فقد يحتجّ كثير من الناس وأنا واحد منهم، بأنَّه لا يمكن أن نَفْهَم على الحقيقة طبيعة اللُّغة ذاتها إلا إذا فهمنا التَّداوليَّة: وهي كيف تستعمل اللُّغة في التَّواصل"[٣١٩].

ومثل هذا المعنى ما نجده من قول لـ"أوريكيوني" أيضاً حين تقول: "فعلى الرغم من أنَّ البعض [كذا] يراها سيئة السُّمعة إلى هذا الحدّ، إلا أنّنا نعتقد أنَّ التَّفكير الألسنيّ يمكن أن يغتذي في الفترة الراهنة من التَّداوليَّة التَّواصليَّة التي تعود عليه بمنفعة كبرى"[٣٢٠]، وبما يُرصَد، أو يُعزى إليها من أدوار[٣٢١]، ولو احتمالاً (*).

وبهذا صارت التَّداوليَّة تقابل اللِّسانيّات امتيازاً، على الرغم من أنَّها متولِّدة منها، يقول "جاك موشلر"، وبعنوان تقابلي بين: "لسان النِّظام واستعمال لسان النِّظام" –: "تبرز الوقائع المعالجة أنَّ موضوع التَّداوليَّة ليس مستقلاً عن اللِّسانيّات. وقد كانت النزعة في الستينات (من القرن الماضي) تميل إلى تعريف التَّداوليَّة على أنَّها "سلَّة مُهملات اللِّسانيّات"، وهي عبارة تعني أنَّ مهمَّة التَّداوليَّة إيجاد حلّ لجميع القضايا التي لم تعالجها اللِّسانيّات (وهي تحمل على أنَّها الصَّوتميَّة والتَّركيب والدَّلالة)،..."[٣٢٢].

ومن هنا طُرِحَت جملة من تساؤلات عن: كيف وصلت التَّداوليَّة إلى هذا المستوى من التَّمظهر والتَّكوين المعرفيّ؟، وما المبدأ الامتياز الذي حازت عليه، فارتقت به، بعد الخروج من "سلَّة المهملات"، وإلى تساؤلات أُخَر في: لماذا التَّداوليَّة؟، وهل أنَّ ما وصلت إليه من الاهتمام والنَّظر مبالغٌ فيه(*)؟!.

ولَئِن كانت ثمَّة إجابات، وهي كثيرة طبعاً، إلَّا أنَّها، فيما يبدو، لم تخرج عموماً عمَّا في قراءة أصول نشأتها الأولى رحيقاً. وعمّا في اللِّسانيَّات من إمكان التَّحوُّل والانفتاح، والقدرة على قبول التَّغيير والنَّقد البنَّاء، ومواكبة التَّطوُّر، كما هو شأنها وموضوعها المركزيّ الاشتغاليّ المعالج، اللُّغة. ولهذا يقول "جيوفري ليتش": "إنَّ مجمل تاريخ اللِّسانيَّات المعاصرة يمكن أن يوصف إلى حدٍّ ما على ضوء الاكتشافات المتتالية: وهو أن ما كان منقلباً رأساً على عقب، وداخلاً في الاختلاط يمكن أن يُعزل مرةً أُخرى، ويُفصل وتُخَاط رقعه في كُسْوَة، أو بِذْلة حسنة المظهر قلّ ذلك أو كثر،..."[٣٢٣].

وأمَّا عن كونها لماذا وصلت، وكانت في "سلَّة المُهمَلات"، عنواناً على تعريفٍ، ومكاناً لاستقرار؟، فيمكن أن نستأنس بقول "جورج يول"، وبجميل توصيفه للطريقة التي آلت إليها أمورها إلى ذلك: "ساد لفترة طويلة في دراسة اللُّغة اهتمام جامح بأنظمة التَّحليل الشَّكليَّة المستلَّة غالباً من الرياضيات والمنطق، وانصب التَّركيز على اكتشاف بعض المبادئ المُجردَّة abstract principles التي تشكّل صميم اللُّغة. وبعد أن وضَع علماءُ اللُّغة وفلاسفتها دراسة النواحي المجرَّدة (الكونيَّة العامة) للغة وسط طاولة أعمالهم، أخذوا يدفعون بكلّ ملاحظاتهم حول الاستعمال اليومي للغة نحو حافات الطَّاولة. وعندما اكتظت الطَّاولة وامتلأت، أخذ الكثير من هذه الملاحظات حول الاستعمال المعهود للغة بالانحسار لينتهي به الأمر في سلَّة المُهملات wastebasket ..."[٣٢٤].

ومن أجل ذلك، عرض توضيحاً أبجديّاً لما تُعنى به معالجة كلّ مستوى من المستويات الثلاثة: التَّركيبيّ، والدَّلاليّ، والتَّداوليّ؛ كشفاً عن الكيفيَّة التي وصلت إليها مجالات التَّداوليَّة إلى تلك "السَّلَّة" أصلاً، وذلك حين كانت طاولات التَّشريح اللُّغويّ، التي عمل عليها علماء اللُّغة وفلاسفتها، مكرّسةً لتحليل بنية اللُّغة، لم تُعنَ عناياتها الكافية بما يخرج عن هذه البنية، بحجَّة أنَّه ليس منها موضوعاً في اللُّغة؛ ولذلك كانت تطرحه خارجاً في "السلَّة"، من نحو قواعد "الانتظام"، وقضايا الخطاب والسِّياق وأحوال المقام وظروفه، والافتراضات السابقة وخبرات المشتركين: المتكلِّم والمخاطب، ومسائل التَّأويل وتبادر الأدوار، والاقتضاء التَّداوليّ، في التَّواصل، فضلاً عن مسائل التَّرتيب، وكيف يتمّ إيصال أقلّ، أو أكثر من المعلومات، أو أن يُفهم أكثر ما تعنيه الكمات في الخطاب، والمعاني الحرفيَّة، أو القصديَّة[٣٢٥]. وعلى افتراض مبدأ من صحَّة التَّركيب والدَّلالة أحياناً قد يحصل الإخفاق التَّداوليّ، حين "لا يوجد شيء غير دقيق في استعمال الصِّيغ اللُّغويَّة، ولكن عدم فَهْمِ التَّداوليَّة قد كون مهيناً في بعض الأحيان"[٣٢٦].

وعلى الرّغم من إدراك أهمِّيَّة ما في هذه "السّلَّة . سلَّة المُهمَلات"، ذلك الفائض التَّداوليّ الكبير المُهْمَل، والسَّعي إلى تعويض ما فات اللِّسانيّات من روافد معرفيَّة مُهمَّة، بإخراج ما فيها من فوائد، فإنَّ البحث فيها لم يكن بنحو يتسق وترتيب ما تحتويه من معارف وقضايا اجتماعيَّة، وسلوكيَّة نفسيَّة ومنطقيَّة حتَّى فلسفيَّة، في بداية الأمر[٣٢٧]، ولذلك صارت التَّداوليَّة بعد الخروج عبارة عن أبحاثٍ مشتَّتة، ومُثُل متفرِّقة، ومجالاتٍ مختلفة، جُمِعَت في عنوان كبير، يتّصف ودلالة الاستعمال اللُّغويّ، مبادئ وأصولاً، حتَّى أنِّي أشبهها، في بعض الأحيان، بـ"فرانكنشاين"، بلا هيأةٍ، أو انتساب. يقول "موشلر": "كان على التَّداوليَّة أن تفرز جسماً ممزق الأوصال وأن تشتمل على مجموعة من الوقائع الهامشيَّة التي لا تريد اللِّسانيّات تناولها أو لا تستطيع تناولها. ومن حسن الحظّ أن ظهرت تعريفات إيجابيَّة تسند إلى التَّداوليَّة وظيفة معالجة بعض القضايا (التَّركيبيَّة، والدَّلاليَّة) من وجهة نظر غير لسانيَّة، وهي قضايا اعتُبرت متعلّقة بالنَّظريَّة اللِّسانيَّة. وضمن هذا التَّصوُّر لم تعُد التَّداوليَّة سلَّة مُهملات، بل أداة لتبسيط اللِّسانيّات"[٣٢٨].

ومن هذا "التَّبسيط"، كما في نصّ "موشلر"، إلى التَّعقيد والغموض، وفي تكوثر من أبحاث، وخرائط من منهجيّات متنوِّعة، لم ينفكّ عطاؤها عن توصيف ما لقيم الموضوع المركزيّ المدروس، وما في إمكاناته وبعْدَها، أعني: اللُّغة. ومَن يقف خلفها في النَّحو التَّواصليّ، ونحو الخطاب والسِّياق. فأضحت التَّداوليَّة، وعلى مفترق من طرق، تداوليَّات بتسميات كثيرة متباينة . نظريَّة شموليَّة، ذات عوالم متعدِّدة، بنوافذ مختلفة، وشُعَب غير منسجمة، ولا مترابطة بوحدة موحَّدة في دالّ، تصدق عليها مفاهيمها وتعريفاتها السَّابقة احتواءً، وتدرجها بضمنها اشتمالاً، اتفقت عليها رُؤى البحث التَّداوليّ، وبإجازة منه، على أنَّها مفاهيم موضوعيَّة تداوليَّة، تعالج بضمن الدَّرس اللِّسانيّ الحديث، تقلّ مرةً، وتكثر في أُخرى، وهي[٣٢٩]:

تداوليَّة الإشاريَّات، وتداوليَّة مضمرات القول: متضمِّنات القول، وتداوليَّة الافتراض المسبق، وتداوليَّة الاستلزام الخطابيّ . الحواري، وتداوليَّة أفعال الكلام، وتداوليَّة التَّهذيب والتَّفاعل، وتداوليَّة الحجاج والاستدلال، وبنية الخطاب.

أقول إنَّ هذه العوالم (الجوانب/المحاور/المجالات/المفاهيم) التَّداوليَّة ما هي إلا مداخل متعدِّدة ومتنوِّعة لمدينة اللُّغة، يترأسها إنسانٌ على رأسه تاجٌ من معنًى، وجواهر من قصودٍ، بدستورٍ، يمتح مبادئُه الكبرى من خبرات النّاس ومعارفهم ومشاركاتهم وثقافاتهم، تلك التي تتجلَّى بها في العمليَّات التَّواصليَّة، وآثارها الاستعماليَّة التَّفاعليَّة المعقَّدة؛ للدلالة على المراد . المراد الإنسانيّ.

اللَّوح الثَّالث

من التَّداوليَّة إلى الإنسانيَّة

زئبقيَّة العلامة/المعنى، بين الإنتاج اللُّغويّ، والتَّأويل القصديّ:

ليس من الغرابة إذن، أن تكون ثمَّة إشكاليَّات في تحديد مفهوم التَّداوليَّة، وليس من الدَّهشة أن نراها، في دوائر التَّلقِّي المختلفة، تنفلت من الضَّبط والتَّقييد، أو من تمثيلها بقياس معياريّ. أقول: ليس هذا الأمر غريباً!، بل من الغرابة ألَّا نراها في جدليّات من ذلك التَّصوُّر الفكريّ والاختلاف، تقول "أرمينكو": "لقد تولَّدت التَّداوليَّة ونمت عبر اختلافات وتوحيدات متلاحقة، وليست وحدتها اليوم مضمونة، لتواجد [كذا] كثير من الطُّرق المتسابقة، في عِراك بنَّاء"[٣٣٠].

ولعلَّ السَّبب في ذلك، فيما أحسبُ، هو ما في قراءة معادلها الموضوعيّ وإشكاليّاته وتأويلاته؛ ذلك لأنَّ موضوعاتها: مسائلها وقضاياها، وإجراءاتها، حتَّى مَهمّاتها، ووظائفها، وأهدافها[٣٣١] تعمل على ركائز تتشظَّى من محور كُلّيّ، هو الإنسان نفسه، وما في فاعليّاته الفكريَّة والسُّلوكيَّة والتَّواصليَّة في ضوء قراءة استعمالاته اللُّغويَّة وتأويل إنتاجاتها القصديَّة.

وليس هذا الأمر ببعيدٍ؛ ذلك لأنَّ "كلَّ ما يُثيره البشر من موضوعات لا يكاد يعدو أسئلة ثلاثة: "ما الذي يمكنني أن أعرفه؟ وما الذي ينبغي لي أن أعمله؟ وما الذي استطيع أن آمله؟". وهذه المسائل الثلاث تتخلص [كذا] جميعاً في سؤال واحد: "ما هو الإنسان؟"."[٣٣٢].

ومن هنا يسوغ لنا القول: إذا كان السّؤال الفلسفيّ قد وضَع الإنسان نفسَه عنواناً للبحث في موضع السائل والمسؤول حتَّى أضحت الفلسفة كُلّها تساؤلاً للإنسان عن الإنسان[٣٣٣]، فإنَّ مجالات التَّداوليَّة ليست بدعاً من ذلك أيضاً، إن كانت تبحث عن المقاصد التَّخاطبيَّة ووضع القواعد والقوانين الكُلِّيَّة التي تعمل على تفسير القدرات الإنسانيَّة في ضوء النَّشاط اللُّغويّ، ذلك الكون الذي يقيمه الإنسان بنفسه لنفسه، يسأل فيه عن قصده وإرادته وغايته، فقاهةً.

إنَّه الإنسان إذن، ذلك الكائن المعروف، المجهول. وهل هذا المحور إلا جدليَّة من عوالم مختلفة: ثوابت ومتغيّرات؟!، وهل يُضمر سؤالاً ويأمَلُ إحاطةَ به بسهولة ويسر؟، وكيفَ يمكن، أو يكون ذلك؟. وبأيّ طريق؟، ومن أين؟. وإذا كانت الثَّوابت قد ترشَّحت علوماً، فبأيّ شيءٍ يمكن أن يدوّن متغيّراته وقصصه التي تنفلت في الخطاب بلا كتاب، هذا إلا أبعدنا مجال الاحتمالات والتَّأويلات من دائرة الاحتساب!.

لقد عقَد أغلب مَن تصدّى إلى تحديد مفهوم التَّداوليَّة جملة ما ينتظم وافتراض ميدانها الذي تهتم به أو تخوض فيه، وهو التَّواصل الإنسانيّ، مع اجتراح مقاربةٍ، تقرّ أنَّ أقربَ ما يكون لها من حقول المعرفة هو علم اللُّغة/اللِّسانيّات[٣٣٤]، حتَّى كأنَّها هي المفتاح الأوَّل لمداخل التَّداوليَّة، وما دونها حواشٍ، أو هوامش[٣٣٥]، وهو، بداهةً، الأظهر، على قراءةٍ من إضمار تتجلَّى كلّ جدليَّاته في: الدَّال والمدلول، أو ثنائيَّات: الشَّكل والمضمون، اللَّفظ والمعنى، الصَّوت والفكرة[٣٣٦] في ضوء ما تكتنفه السِّياقات من أنظمة القيم وأنساق الثَّقافات والمواضعات وسنن الاتفاقات التي يتجلَّى أمرها في الاستعماليَّات ونحو التَّواصليَّات، وإلَّا لكانت المعاني والمقاصد في سياحة من غيبٍ، أو خفاء لا دليلَ عليها البتةَ؛ وهو الأمر الذي يفضي إلى انخرام مقولات البيان، وضياع وظائفها الإبلاغيَّة التي وضعت غاياتها اللُّغات. ولا ريبَ، "فاللُّغة

هي الوسط الذي يحدث فيه الفَهْم والاتفاق"[٣٣٧]، بل قيم التَّواصل وأنشطة التَّفاعل الإنسانيّ، تلك التي تؤسّسها أنظمة اللُّغة التَّفاعليَّة أنفسها، ولهذا يشير "إميل بنفنيست" بعد سؤال في اشتراط "إذا كانت اللُّغة أداة للتواصل... فإلى أيّ شيء يعود ذلك؟". أنَّ "اللُّغة توجد في الواقع مستعملة على هذا الشّكل؛ لأنَّ النّاس لم يجدوا، دون شكّ، وسيلة أفضل، أو وسيلة ملائمة للتواصل مثلها..."[٣٣٨]. وهو ما يعضده "جونز ليونز"، أيضاً مع التَّركيز على الجانب الإنسانيّ الذي تهدف إليه دراسة اللُّغات، يقول: "إنَّ للغة أهمِّيَّة حيوية في كافة أنواع النَّشاط الإنسانيّ، وأنَّه بدون اللُّغة لا يتحقّق معظم النَّشاط الإنسانيّ، بل قد لا يتحقّق أدنى نشاط للإنسان، فإذا سلمنا بأنَّ اللُّغة – كما نعرف – ذات أهمِّيَّة حيوية في حياة الإنسان على هذا النّحو، فمن الطَّبيعي إذن، أن نتساءل عن الدور الذي تقوم به دراسة اللُّغة في معرفة طبيعة الإنسان وفهمها"[٣٣٩].

إنَّها تلك الحقيقة التي يُفصح عنها "لويس هيلمسليف"، حين يقول: "اللُّغة، الكلام الإنسانيُّ، وفرة لا تنفد من الكنوز المتنوّعة. فاللُّغةُ غير قابلةٍ للانفصال عن الإنسان، وهي ترافقه في أعماله كافة. واللُّغة هي الجهاز الذي يكوِّن به الإنسانُ فكرَهُ وشعورَهُ، ومزاجَه وطموحَه، وإرادتَهُ وفعلَهُ، وهي الجهازُ الذي بواسطته يؤثِّر ويتأثر، فهي الأساس الجوهريّ الأعمق للجماعة الإنسانيَّة. كما أنَّها المساند الجوهريّ الذي لا غنى للمرء عنه، وملاذه في ساعات العُزلة حين يصطرعُ العقلُ مع الوجود، وينحل الصِّراع في مناجيات الشَّاعر والمُفكِّر. فاللُّغة صدًى لنا قبل يقظة وعينا الأولى، متأهِّبةٌ للاقتراب من أوَّل بذرة دقيقة للفكرة، وتصاحبنا على مرّ حياتنا من أبسط نشاطات الحياة اليومية حتَّى أسمى اللحظات وأكثرها حميميَّة..."[٣٤٠].

وهل كانت أسئلة الدَّارسين عن مجالاتها وميادين اشتغالها والإجابة عن تلك إلَّا والإنسان: أنا وأنتَ، ونحن، وهم: متكلِّم/مخاطَب، محور إشكاليَّاتها، وفاعليَّاته التَّواصليَّة بعلاماتٍ مؤوّلة دالّ عليها، ومدخل إليها، وقاعدة فيها، هكذا تصوّر "أرمينكو" رهانات التَّداوليَّة وآمالها بمحاولات: "للإجابة عن أسئلة كالتالي: ماذا نصنع حين نتكلَّمُ؟ ماذا نقولُ بالضَّبط، حين نتكلَّم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدّنا بكذا، بينما يظهر واضحاً أنَّ في إمكانه ذلك؟ فمَن يتكلَّم إذن؟ وإلى مَن يتكلَّم؟ مَن يتكلَّم ومع مَن؟ مَن يتكلَّم، ولأجل مَن؟ ماذا علينا أن نعلم حتَّى يرتفع الإبهام عن جملة، أو أُخرى؟ ماذا يعني الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر، غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن نركن إلى المعنى الحرفي لقصدٍ ما؟ ما هي استعمالات اللُّغة؟ أيّ مقياس يحدّد قدرة الواقع الإنسانيّ اللُّغويّ؟..."[٣٤١].

أقول: بل لم يجد التَّداوليُّون من بُدٍّ لإقحام هذه التَّساؤلات وما فيها من إشكاليَّات في بدايات أحاديثهم ونظرهم في البحث التَّداوليّ، على الرّغم من مفارقة الفعل القوليّ للفعل العمليّ؛ حتَّى كأنَّها ترسِّخ مبدأ تمهيديّاً لبيان ما يمكن أن تشتغل عليه الدُّروس والبحوث التَّداوليَّة، ككيفيَّات التَّواصل وماهياتها الإجرائيَّة. ولعلَّها كذلك، فمنطق هذا السّؤال لا تنفلت منه أيّ مدوَّنة تداوليَّة ابتداءً، حتَّى كأنَّه إعلان عن منهجيَّة تُضمر أنساقاً وعوالمَ تؤصِّلها الإجابةُ فعلاً، لتكون بدورها موضوعاتٍ للتداوليَّة، وإجازاتٍ على مشروعيَّاتٍ، نذرت التَّداوليّاتُ أنفسَها لتأسيسها وتكوينها، بل تحليلها ووصفها أيضاً. وبعبارة أخرى، كأنَّ موضوع التَّداوليَّة يتحدَّد بها، وهي موضوعة وعداً للإجابة عنه. تقول "جيني توماس"، بعد أن طرحتْ جملة من شؤون إنسانيَّة ومقاصد كلاميَّة –: "من هذهِ الملاحظات تُثار تساؤلات: إذا قصد المتكلِّم دائماً أمراً آخر غير ما يعبّر عنه، فكيف يتأتَّى للناس فَهْم بعضهم البعض [كذا]؟ فإذا كانت مجموعة من كلمات على نحو: "إنَّ الجوَّ حارٌّ هنا!" تعني أموراً شتى في أوقات مختلفة، فكيف نستنبط ما تعنيه هذه المجموعة من الكلمات بالفعل في مناسبة بعينها؟ ولماذا لا يقول الناس ما يعنونه بالضَّبط والتَّحديد؟. هذه التَّساؤلات وغيرها تُوجَّه في نطاق علم اللُّغة المعروف بالبراجماتيَّة (التَّداوليَّة)"[٣٤٢].

ولهذا تقول "جوتس هند لانج": "تؤكِّد نظريَّة الفعل طبيعة الفعل في اللُّغة، وتكون الأسئلة المحوريَّة التي يعرض لها منظِّر الفعل الكلاميّ في ظواهر لغويَّة: (١) ماذا نفعل حين نتحدَّث؟ (٢) ماذا نفعل ونحن نتكلمُ؟. وهكذا لا يوجد بالنسبة لنظريَّة الفعل الكلاميّ تناقض بين "الفعل" والكلام، يقع في الوعي اليومي ويتجلَّى في منطوقات..."[٣٤٣].

ولقد نتأمّل، من بعدُ، تلك الإجابة، وكيف يمكن أن تكون عليه انتهاءً، وهي تنطلق من مجالات فلسفيَّة، وفكريَّة، ومنطقيَّة، حجاجيَّة واستدلاليَّة، واجتماعيَّة، وسيكولوجيَّة، متّخذة من اللُّغة وتوظيفها وسيلةً في التَّواصليَّة والإبلاغيَّة. إنَّها خليط يعمل على تشكيله وتكوينه أصول البحث التّداوليّ، مركزهُ فيها، بلا أدنى شكّ، الإنسان قصداً وغايةً.

المحور الموضوعيّ الكُلّيّ إذن، هو الإنسان وحضوره الفاعل: المتكلِّم/المخاطب، ثُمَّ اللُّغة، ثُمَّ استعمالها،... أصول التَّخاطب عموماً: إنتاجه وتأويله، في عالم فعليّ، وسياق تفاعليّ.

وأقول: هل كان من إقرار يصدّر نتائج أبحاث في قول: "تهتم التَّداوليّات بكلّ أشكال التَّفاعل الاجتماعيّ، والتَّفاعل الخطابيّ، ودراسة المعطيات اللُّغويَّة والخطابية المتعلَّقة بالتَّلفُّظ... إنَّها تهتم بالعمليَّة التَّواصليَّة في كلّ أبعادها النَّفسيَّة والاجتماعيَّة والأيديولوجيَّة... وبدراسة العلاقة بين اللُّغة والسِّياق... وبذلك أمكننا القول: إنَّ التَّداوليّات: هي علم الاستعمال اللُّغويّ. وإنَّها بحقّ علم جديد في التَّواصل"[٣٤٤]. وهل كان الأمر كذلك إلّا والإنسان عموماً محور العمليَّات التَّداوليَّة.

كيف يمكن أن نقرأ أصول نشأة التَّداوليَّة برأي الموافقة "تقريباً مع نشأة العلوم المعرفيَّة. حتَّى جرى التَّفكير في الذّكاء الاصطناعيّ في سياق عقليَّة جديدة، هي العقليَّة التي مكّنت من ظهور العلوم المعرفيَّة"[٣٤٥]، كيف يمكن أن نقرأ ذلك من غير ملحظ ما في ذلك المحور الكُلّيّ، ومجالاته التَّفاعليَّة – إنَّه الإنسان.

قد يُقال: إنَّ ما أحلته من غموض وضبابية في مفهوم التَّداوليَّة، وبحسب ما هي عليه سابقاً، قد زدته، الآن، غموضاً وإبهاماً في هذا الموضوع الجدليّ الشَّائك، إذ كيفَ يكون الإنسانُ محور العمليَّة التَّداوليَّة، والمأخوذ منها عملاً وإجراءً استعماله اللُّغويّ، فكراً وفعلاً؟. بل إنَّ واقع توصيف مقدِّمات الدارسين في الشَّأن التَّداوليّ، يبني لنفسه رؤيةً ومنهجاً يقوم على توصيفها بنحو: "مذهب لسانيّ يدرس علاقة النُّشاط اللُّغويّ بمستعمليه، وطرق وكيفيّات [كذا] استخدام العلامات اللُّغويُّة بنجاح، والسِّياقات والطَّبقات المقاميَّة المختلفة التي يُنجز ضمنها "الخطاب"، والبحث عن العوامل التي تجعل من "الخطاب" رسالة تواصليَّة "واضحة" و"ناجحة، والبحث عن أسباب الفشل في التَّواصل باللُّغات الطبيعيَّة..."[٣٤٦].

أقول: إنَّ ما تقدَّم من وصفٍ لاعتراض هو نفسه قائم على فاعليَّات الإنسان نفسه، بل جوابه نفسه ثاوٍ فيه، ولكنَّه يحتاج إلى تفصيلِ إجماله بإذكاء؛ ذلك لأنَّ الاستعمال/النِّشاط اللُّغويّ ومستوياته، ذلك الكلّ المعقَّد، هو موضوع إنسانيّ يجري بوسائط متعدِّدة من السِّيميائيّات، واللُّغة أعلى هذه الوسائط وأشملها[٣٤٧]، ولا شكَّ في أنَّ اللُّغة لا تموضع لها إلا في وجودٍ، تثريه تألّقاً، محاورُ وظائفِها التي يؤدِّيها الإنسان فعلاً وسلوكاً، كالتَّمثيل المعرفيّ وإغناء المعلومات، ومعالجاتها وإبلاغها[٣٤٨]؛ والإنسان، بداهةً، عرّابها الأوّل بوساطة أجهزة متراكبة من شؤون التَّواصليَّة وقوانين التَّخاطبيَّة، مع ما فيها من مُثُل التَّشفير، والاستدلال، ومعايير القصد[٣٤٩]، حتَّى شاعت فكرة أنَّ اللُّغة والتَّواصل عبارة عن وجهين لعملة واحدة، وثبت بموجبها أنَّ "الوجه الأساسي للغة هو كونها تُستعمل في التَّواصل، والوجه الأساسيّ للتواصل هو كونه يتضمَّن استعمال لغة أو شفرة،.. [و] العلاقة بين اللُّغة والتَّواصل مثل العلاقة بين القلب والدّورة الدَّمويَّة، أي، لا يمكن أن تصف أحدهما دون الرجوع إلى الآخر"[٣٥٠].

ولعلَّ قراءة وظائف اللُّغة، وكون إحداها عبارة عن تمثيل للعالم والكون والإنسان، والتَّبليغ، والقصد، ثُمَّ كونها تعبيراً عن العقل، وعن متصوّر المتكلِّمين للعالم، وتمثيل المعلومات، فضلاً عن تمكين الأفراد بواسطة التَّواصل الكلاميّ، من تنمية مخزونهم من المعارف وإغنائها[٣٥١]، لعلَّ ذلك مِن أدلّ ما نحن فيه، ناهيك بما قدّمته الدِّراسات الفلسفيَّة، ومنها

التَّحليليَّة، التي كان البحث فيها عن اللُّغة، وتوضيحها من أولى مهامها، حتَّى عدَّت هذا المبدأ المنهجيّ علامةً على قوتها وأحقيّتها، فضلاً عن رؤية أنَّ الأداة المعرفيَّة الضَّروريَّة لتحقيق ذلك الهدف هي اللُّغة، وأنَّه لا سبيل إلى تجاوزها من أجل فَهْم علاقاتنا بالعالم وبالكائنات البشريَّة، والاشتراك بمسلَّمة عامة، مفادها أنَّ فَهْم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأوَّل على اللُّغة، فهي التي تُعبِّر له عن هذا الفهم[٣٥٢]، والانطلاق منه إلى تعريف نفسه في هذا العالم[٣٥٣]، وهي لهذا لا تُعدُّ أداةً للتواصل، بل تُعدّ بشكل جوهري أداةً لتمثيل العالم[٣٥٤]، أيضاً.

ولقد يكون من معالجة النَّقد الموجَّه من نظريَّة المناسبة في العرفانيَّة منها إلى اللِّسانيَّة شكل آخر للدلالة على تشخيص الموضوع الإنسانيّ فيها، فالنِّظام اللِّسانيّ، إن تمثَّلَ في النِّظام الطَّرفيّ، الذي يعني بدوره بمعالجة المعطيات اللُّغويَّة المجرَّدة موافقةً، فإنَّ التَّداوليَّة إنَّما تندرج بضمن النِّظام المركزيّ، وذلك لأنَّ العمليَّات التَّداوليَّة ليست سوى العمليَّات الاعتياديَّة للنظام المركزيّ الذي يتأسّس على علم النَّفس المعرفيّ، ونظريَّات اشتغال الذِّهن البشريّ، تلك المؤسَّسات التي تمكِّن دراسة التَّأويل التَّداوليّ[٣٥٥].

من السَّذاجة إذن، بعد هذا أن نقول: هل النِّظام المركزيّ خارج عن الذّهن البشريّ؟، وهل ثمَّة إنسان يبتغي تواصلاً قائماً على غاية وهدف بلا عمليّات ذهنيَّة، عقليَّة، استدلاليَّة، تأويليَّة تتخذ من النِّظام الطَّرفيّ معالجة أوليَّة بعد التَّحويل، بلا نظامٍ نفسيّ معرفيّ مركزيّ، افتراضيّ تذكريّ، استرجاعي، يأخذ على عاتقه المقاربات الاستدلاليَّة والتَّأويليَّة!، وهل يكون هذا الأمر بلا محوريَّة . إنسان. الإنسان إذن، غاية النَّظر من توصيف الاستعمال اللُّغويّ للتداوليَّة، وفهمه نهاية متصوّراتها المعقودة، إنَّها، بلا ريبٍ، تنطلق منه، ثُمَّ تعود إليه، وهي تجري بسفينة من توظيف واستعمالٍ، أو اشتغال، شعارها الأوَّل اللُّغة، تحركها ظروف الأقوال بإنتاجها، وما يكتنفها من ملابسات الخطاب وأجوائه التَّواصليَّة.

ولعلَّ ما استوسق من مناخ الدَّرس اللُّغويّ حين تحوَّل مساره إلى ما ينبغي أن يكون عليه، نظراً لتصحيح موضوع علم اللُّغة، وبأيّ شيء يكون، دليل آخر، مع ما في إنسانيَّة اللُّغة من اهداف مرصودة، يقول "كارل ديتر" – وتقدَّم بنا ذلك سابقاً –: "إنَّ موضوع علم اللُّغة لم يعُد اللُّغة فقط؛ بوصفها تجريداً لوقائع كلاميَّة أو بوصفها نظاماً "يُعد أساساً" لكلّ ما يُتكلّم، بل موضوعه الوقائع الكلاميَّة ذاتها، ولم يعد يُسأل عن بنية النِّظام اللغوي، وعن الوحدات اللُّغوية، بل الواقعة الكلامية بوصفها "نشاط كلاميّ" [كذا] إنسانيّ تشكِّل إطار التَّحليلات. وبُحثِتَ وظائف الأحداث اللُّغويَّة في إطار الفعل الإنسانيّ، وبخاصة الفعل الواقع بين الناس (التَّبادلي). ويتبع ذلك بلا شك تحليل اللُّغة، بوصفها أهمّ وسيلة يستخدمها الناس في أفعالهم الرمزيَّة... والتَّعبير عن الدَّلالة في تتابعات صوتيَّة ينظر إليه في إطار شروط طرائق الفعل الإنسانيَّة..."[٣٥٦]. وبذلك "لم تَعد اللُّغة تُرى هامشيَّة بالنِّسبة للعالم الذي نعيش فيه، بل أصبحت اللُّغة في المركز من هذا العالم. ليست الكلمات – [كما يقول "روي هاريس"] – تسميات صوتيَّة مجرَّدة أو ملحقات adjuncts اتصاليَّة مفروضة على نظام معطى مسبقاً للأشياء. إنَّها منتجات تصدر عن جماعات غايتها التَّفاعل الاجتماعيّ، وهي أدوات جوهريَّة يشكِّل بها البشر عالمهم ويعبّرون بها عنه"[٣٥٧].

ومنه إلى الشّأن السّيميائيّ وتلاقح العلوم المعرفيَّة، والهدف منها كذلك، حين أفضت قراءة التَّخصص المعرفيّ والإفراط فيه إلى التَّشتت من جانب، والابتعاد عن الهدف الغائيّ بالانحسار من جانب آخر[٣٥٨]، ولهذا كان من شأن البُعْد السِّيميائيّ، وإجراءً ممَّا في طموحه وقراءة تفاعل الحقول المعرفيَّة المختلفة، وبإدراك القدر المشترك بينها– الوصول إلى الغرض ممّا تعقد عليه الدِّارسات الإنسانيَّة شأنها، "أليس الغرض من كلّ الدِّراسات في آخر الأمر هو فَهْم الإنسان وموقعه من هذا الكون حتَّى يتسنَّى التَّغيير إلى الأحسن؟ وهل يمكننا أن نَفْهَم اللُّغز الإنسانيّ بدراسة جانب واحد من جوانبه؟ هل تكفي دراسة الاقتصاد، أو الأدب أو الفلسفة؟ وهل يكفي لمعرفة الإنسان أن ندرس عقلة أو نفسيّته أو بدنه؟ أليس الإنسان

مجموع كلّ هذا؟ أليس الإنسان شبكة من العلامات لا يمكن تغيير جانب منها بدون تغيير الجوانب الأخرى؟... بدون إدراك العلاقات الدقيقة بين مختلفة الحقول الإنسانيَّة"[٣٥٩].

ومن أجل ذلك نجد "الجيلاني دلاش" يرفض "تقسيم النشاطات الإنسانيَّة إلى تخصصات منيعة؛ لأنَّ تصوُّراً من هذا القبيل، خليق بأن يوقعنا في شرك الاعتقاد بأنَّ اللِّسانيَّات لا تعني إلَّا بالبنية اللُّغويَّة الصَّرف (الصَّوت، الكلمة، الجملة) غير محتفلة بالاعتبارات غير اللُّغويَّة والعلاقات التي تربطها بالتَّخصصات الأخرى المتنوِّعة، ولهذا فلا اللِّسانيُّون الذين نزعوا أحياناً إلى تزكية هذا التَّصوُّر والموقف، ولا ممثلو التَّخصصات الأخرى – أيّاً كانت المسافة التي تفصل بعضها عن البعض [كذا] الآخر – بمفلحين أن انغلقوا داخل حقل أبحاثهم. وفضلاً عن هذا، فإنَّ النَّظريَّة اللِّسانيَّة – أيّاً كانت جاذبيتها – مدينة لا للتَّفكير الفلسفيّ فحسب، بل كذلك لوجهتها التي تمسّ الواقع والمعيش اليومي"[٣٦٠].

ومن المعلوم مؤخراً أنَّ هذا الغريم يتجلَّى في كلّ ما في التَّداوليَّات من إنسانيَّات، سواء بسواء ومستوى الفعل الذي يعرِّفُه "هاينه مان" بالقول: "عبارة عن تصرُّف بشري مرتبط بأفكار الفرد الشَّخصيَّة، وأنَّ هذا التَّصرُّف الاجتماعيّ مرتبط بتصرُّف الآخرين، وموجّه نحوهم، ويشتمل مفهوم التَّصرُّف على العمل والحدث اللُّغويّ، وغير اللُّغويّ والتَّفكير، والحوار الدَّاخليّ مع النَّفس، ويحتاج التّصرُّف في طريقة محدَّدة للوصول إلى هدف معيَّن، فضلاً عن أنَّ المرء يجب أن يُدرك مغزى تصرُّف الشَّريك الشَّخصيّ للطرف الآخر..."[٣٦١].

وهل خَلَت حدود التَّداوليَّة من هذا البُعْد الإنسانيّ، مُمثّلاً فيها موضوعها الأساس، الذي يُعدّ أحد النوافذ إلى عالم الإنسانيَّة؛ إرادةَ فهمه واستيعابه، هكذا يُنقَل: "يتحرَّكُ السِّياق التَّداوليّ ويتغيَّر كلّ لحظة، إنَّه فعَّال مثل الناس. أمَّا الوصف اللِّسانيّ للسياق فجامد لا حيوية فيه؛ لأنَّه لا يُصوِّر التَّطوُّر بين مستعملي اللُّغة"[٣٦٢]، وهو الأمر الذي يفضي بَعْدَ دراسة العلاقة بين العلامات ومؤوِّليها إلى قول: "بما أنَّ كلّ مفسِّري العلامات كائنات حيَّة، فمن الصَّواب القول إنَّها [أي التَّداوليَّة] تهتمُّ بعمليَّة إنتاج اللُّغة وبمنتجيها، وليس فقط بالنِّتاج نفسه، أي: باللُّغة"[٣٦٣].

ولا أنتهي من قول في رغبة، إلَّا بما في رُؤى البُعْد الروائيّ والقصصيّ[٣٦٤] من توصيف لشأنيَّة التَّداوليَّة، وقراءتها على أنَّها قصةُ إنسان، حين تحوَّل كلّ ما في القصة من عوالم إلى مهمات في المجال التَّداوليّ، ولا شكَّ في أنَّ الإنسان نفسه علامة في حكاية كبرى، وأيّ علامة في تأويل نَجْمٍ يحلّق في سمائهِ الفكرُ؛ إدراكاً فلا يمسكُ بشيءٍ إلَّا يرتدُّ اعترافاً بعدم الإحاطة به معرفةً، فضلاً عن علمٍ؛ وذلك لسعةِ ما في تلك العوالم التي تُمثِّلُه، فكيفَ بتأويلها!.

يجوز القول إذن: إنَّ التَّداوليَّة ثنائيَّة من سؤال اللُّغة ـ الإنسان نفسيهما عن محور هو المعنى ـ القصد الإنسانيّ نفسه، ذلك الذي يعود بدوره إلى الإنسان نفسه أيضاً، وإذا كان فَهْم التَّداوليَّة يقود نتيجةً إلى فَهْمِ حقيقة اللُّغة ـ اللِّسان، كما تقدَّم بنا سابقاً، فمن الضَّرورة أنَّ هذا سيقود محاولةً أيضاً، إلى فَهْم الإنسان نفسه، إنَّها مدخل إليه، ووسيلة من وسائل الكشف عن ما هو عليه، قولاً، وفعلاً، وفكراً. بعبارة أُخرى جامعة، الانتقال بالمعرفة من فِقه اللِّسانِ إلى فِقه الإنسانِ.

وبعدُ، أقولُ على الرّغم ممّا تقدَّم، فيمكن أن نفضَّ إشكاليَّة المحوريَّة تلك بجهتين:

الأولى: إذا كان أقدم تعريف للتداوليَّة بحسب التَّداوليّين، هو تعريف "موريس" لها، بوصفها: الجزء الثالث من السِّيميائيَّة(*)، وبأنَّها تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعمليها/مؤوليها، بجانبي: التَّركيب والدَّلالة[٣٦٥]، فإنَّ قراءة الإنسان على أنَّه علامة في الدّرس التَّداوليّ، بل علامتها الكبرى، ومحطّ التَّأويل، ليس غريباً إذن، وهذا ما نلمحه من إشارات "أرمينكو"، تقول: "يفكِّر الإنسان من خلال العلامات، والتَّفكير الوحيد الذي نعرفه هو التَّفكير من خلال العلامات، فهو يوجد بشكل أرفع بالضّرورة في العلامات...، يمكن لكلّ شيء، (ولكلّ مظهر شيء ما) أن يصبح علامة. فالتَّحوّل إلى علامة يعني الدّخول في سياق ثلاثي للسيميوزيس (Semiosis) وبهذا المعنى فالسِّيميائيَّة ليست علماً للعلامات، بل هي علم السيميوزيس. ومن خصائص العلامة، إحالتها دائماً على علامة أخرى. من هنا نجد الفكر بدوره، كعلامة تحيل على

فكر آخر، هو علامتها المؤوَّلة. ويحيل هذا الفكر الأخير بدوره على فكر آخر، يؤوَّل إلى سياق مستمر وغير محدود. فالإنسان نفسه علامة، وحين نفكر فنحن علامة"[٣٦٦].

الإنسان/العلامة والتّأويل إذن، هما محورا كلّ المجالات التّداوليَّة وعوالمها، وإذا كان التّداوليّون حدّدوا جملة من معطياتٍ تكون بها التّداوليَّة مقاربةً للإجابة عن الأسئلة المطروحة، بخلافها لا يكون ثمَّة أثر للتداوليَّة[٣٦٧]، فإنَّ هذا الأمر ينطبق تماماً على محورها الإنسانيّ الثاوي في المقولات الكُلِّيَّة التي تنبثق منه، وهي: اللُّغة، والاستعمال، بوصفه إنتاجاً، ثُمَّ التّأويل.

الجهة الثانية: ما قدَّمه "جاك موشلر" من تعريف للتّداوليَّة، من جهة مقابلتها بالنِّظام اللِّسانيّ، والتّصريح بأنَّ النِّظام اللِّسانيّ شيء واستعماله شيء آخر، مع إدراك أنَّ الأخير لا ينفكّ عن الأوَّل تفاعلاً على الرّغم من المفارقة، يقول: "ليس من الساذج أن نقول أخيراً إنَّ استعمال الأشكال اللُّغويَّة ينتج عنه بالمقابل إدراجٌ للاستعمال في النِّظام نفسه. فمعنى القول يقوم على شرح لظروف الاستعمال أي لأداء ذلك القول"[٣٦٨]. وهي لمحة مهمَّة جداً في قراءة السِّياق، و"بتحديد ما يُقال بحسب المعاني المتعدِّدة التي يحملها الفعل "يقول"..."[٣٦٩].

فكلّ من الظُّروف وأداء القول نصّ مشروح يضمره "معنى القول"، ويحتكم إليه على نحو متفاعل، ولولاها لما كان لـ"معنى القول" من شيء، ولا للتأويل التّداوليّ من عمل واشتغال.

بمعنى آخر يمكن القول: إنَّ فعل "الإبلاغ لا يتجسّد من المنظور التّواصليّ في إيصال المعلومات فقط، ولكن ينتظم في لعبة اجتماعيَّة معقَّدة... إنَّ المعنى وحامل الملفوظ غير منفصلين عن المقام الملموس لإنتاجهما... إنَّ مقام التّلفّظ متجذّر في الملفوظ ذاته وفي الفعل التّلفُّظيّ: فعندما أتكلَّم فإنّي أقوم، في الوقت ذاته، بإيصال محتوى (ما أقوله) وبإيصال فعل (فعل القول ذاته)"[٣٧٠].

ولا ريبَ في أنَّ مجال هذه الظُّروف وملابساتها التي تكتنف الأقوال، ثُمَّ تحملها شرحاً، هي عين الموضوعات التّداوليَّة؛ لأنَّها مظاهر غير لسانيَّة[٣٧١]، وحينئذ، فإنَّها ذات طابع تَأويليّ وإنتاجيّ مستمرين، محكوم، ضرورةً، بأدوار الذّوات التي توجد في الدَّائرة التّخاطبيَّة، أو النّشاط اللِّسانيّ.

ولعلَّ هذا ما دفع، في قراءةٍ، "بنفنيست" إلى نقد "سوسير"، في كون الأخير "لم يقف عند فحص الدَّليل داخل النِّظام اللُّغويّ، وذلك يعني استبعاد سؤال مركزيّ وأساس في اللِّسانيّات التي تحلّل اللُّغة، باعتبارها وسيلة للتواصل بين الذوات، وهو: كيف يستعمل شخص ما العلامات لإيصال المعنى؟ إنَّ إنتاج الدلالة موجود في هذا المظهر التّلفظي، ويؤدّي إلى نظريَّة خاصّة بالعلامة وإلى التّحليل الدَّلاليّ. ومن هذا المبدأ اقترح "بنفنيست" تحليل التّلفّظ من ثلاثة جوانب: ١. التّحقيق النُّطقي. ٢. إنتاج الدَّلالة. ٣. الأداء الصِّيغي أو الصّوري لتحقيقه. تقدّم نظريَّة التّواصل [إذن] نموذجاً ومخطّطاً مرجعيّاً ملائماً لتحليل أنواع مختلفة من المقامات، فإذا اعتبرنا الرّسالة موضوعاً، فالتّلفّظ محدَّد باعتباره موقفاً للذات إزاء ذلك الموضوع..."[٣٧٢].

بدهي القول إذن: إنَّ مفهوم "الذات" ثمَّة، إنَّما هو تشخيص للإنسان ولقدراتها التّأويليَّة التي تتمركز في حقول التّداوليَّة، موضوعاً وتفسيراً. إنَّ الإنسان: متكلِّم/مخاطب يُنتج ويؤوِّل الأقوال، والتّداوليَّة تُلاحِظ(*)، وتقرأ، ثُمَّ تسجِّل وتحلّل. يقول جورج يول: "التّداوليَّة وحدها تبيح إشراك البشر في عمليَّة التّحليل. تمتاز عمليَّة دراسة اللُّغة من خلال التّداوليَّة بأنَّها تمكّننا من التّحدُّث عن المعاني التي يقصدها النّاس، وعن افتراضاتهم، وأهدافهم، وما يصبون إليه، وأنواع الأفعال التي يؤدُّونها أثناء تكلُّمهم... أمَّا العائق الكبير، فيكمن في الصُّعوبة البالغة التي تبرز عند تحليل جميع هذه المفاهيم الإنسانيَّة

البحتة ذاتها بطريقة متّسقة وموضوعيَّة... إذن التَّداوليَّة مستساغة؛ لأنَّها تتعلَّق بالكيفيَّة التي يتمكّن من خلالها النّاس فَهْم أحدهم الآخر، لغويّاً، ولكنَّها قد تنقلب لتكون ميداناً دراسياً محبطاً؛ لأنَّها تتطلَّب منا فَهْم النّاس، وما في عقولهم"[٣٧٣].

ولهذا لم يجد، وأعني: "جورج يول"، بُدّاً من قراءة انفتاحها: التَّداوليَّة، والنَّظر في علل اتساعها؛ إذ إنَّها لم تكن في تصوّره مخصوصة بأمر دون آخر – ولقد تقدَّم بنا شيءٌ من ذلك – فهي ليست لتفسير الاستعمال اللِّسانيّ فحسب، بل هي شاملة لكلّ شأن يتعلَّق بالإنسان وأفعاله، غير محصورة بنوع معيَّن من أنواع التَّواصل التي يستعملها، بل هي مهيمنة على كلّ أشكال التَّواصل القصديّ هدفاً وغاية، وهو الأمر الذي يجعل منها منهجاً شموليّاً لتفسير الغايات والأهداف الإنسانيَّة التي تنطوي عليها بالضّرورة أفعالُه الإنجازيَّة وتفاعلاته الاجتماعيَّة، يقول "يول": "إنَّ التَّفسير الأوسع للتداوليَّة هو أنَّها دراسة الفعل الإنسانيّ القصديّ. وعليه فإنَّها تنطوي على تفسير أفعال يفترض القيام بها لإنجاز غرض معيَّن. وبناءً على هذا، ينبغي على المفاهيم المركزيَّة في التَّداوليَّة أن تتضمَّن (اعتقاد وقصد (أو هدف) وخطة وفعل [كذا])[٣٧٤] وإذا افترضنا أنَّ الوسائل و/أو الغايات تنطوي على تواصل، فإنَّ التَّداوليَّة تستأثر لتشتمل على وسائل التَّواصل جميعها، بما فيها الوسائل غير التَّقليديَّة وغير الشِّفاهيَّة وغير الرمزيَّة،..."[٣٧٥].

ولعلَّ ما قدَّمه "جاك موشلر" أيضاً يُعدّ، في تصوّري، نقلةً نوعية لتفسير مفهوم التَّداوليَّة، ليس المُدمجة منها فحسب، بل العِرفانيَّة[٣٧٦] أيضاً، وذلك بواسطة موضوعها ومعالجتها اللذين طرحهما مقابلةً باللِّسانيّات وأنظمتها، فضلاً عن منزلتها، في قاموسه. إذ قارَبَ مفهومَ التَّداوليَّة بتوصيف استعمال اللُّغة، في مدخلٍ، ابتداءً[٣٧٧]، ثُمَّ خطّ فلسفة خاصة، قائمةً، على مفهومها بالتَّأويل، في خاتمةٍ، انتهاءً[٣٧٨]. بعبارة أخرى أنَّه حين عيَّن ركيزة خاصَّة في اللُّغة، وهي مجالات استعمالاتها، مقابلة بأنظمتها التَّجريديَّة الثابتة، سلك فيها طريق الانتاجيَّة والتَّأويليَّة المتحرّكة المتغيّرة، وهذا الأخير منفتح بحسب المظاهر التَّداوليَّة. وهو الأمر الذي يعني، فيما أظنّ، أنَّه لم يعتن بنظريَّة الاستعمال نهايةَ مطلبٍ، وإنَّما قراءة ما شاع من هذا المفهوم في الأبحاث التَّداوليَّة؛ ولهذا عطَف عاكفاً على مقابلة، أوفى بها الكيل والميزان، بين شؤون اللِّسانيات وموضوع التَّداوليَّات، وما تجلّى منهما مفارقةً وموافقةً، لينتهي إلى قراءتها بمفهوم إنتاج الأقوال وتأويلها.

ولكي نوضّح قراءة ذلك الانتقال من مستوى الاستعمال اللُّغوي، إلى مستوى الإنتاج والتَّأويل القوليّ، نلتزم ببيان ما عقده "موشلر" في "القاموس" ملخصين مقابلته، وما أفضت إليه من نتائج على نحو ما يأتي:

ـ أنَّ موضوع اللِّسانيّات يتركَّز في التَّمييز بين الأقوال اللِّسانيَّة/النَّحويَّة واللانحويَّة. والتَّداوليَّة ليس ذلك، بل إنَّ مهمتها بيان مظاهر إنتاج الأقوال التي لا تعالجها اللِّسانيّات[٣٧٩].

. أنَّ القواعد التي تتضمّنها التَّداوليَّة، إن تضمّنت قواعد!، لن تكون قواعد آمرةٍ متسلطة بالمعنى الذي يمكن أن تكون عليه قواعد اللِّسانيّات[٣٨٠].

. أنَّ مكانة التَّداوليَّة بجانب اللِّسانيّات، وليس بداخلها، إنَّها شريك اللِّسانيّات، وعلمٌ مكمل لها[٣٨١].

. أنَّ اللِّسانيّات والتَّداوليَّة علمان متجاوران متكاملان، وليسا علماً واحداً[٣٨٢].

. أنَّ كلّا من اللِّسانيّات والتَّداوليَّة علم تجريبيّ يقوم على نظريَّة إبستبمولوجيَّة[٣٨٣].

. أنَّ الظَّواهر التي تهمّ التَّداوليَّة هي الظَّواهر التي تتدخّل في تأويل الأقوال، ولكن لا يعالجها التَّركيب، ولا الدَّلالة، ويشمل هذا ظواهر متنوّعة جداً، تتصل باللُّغة في استعمالها، وفي السِّياق، وبإسناد الإحالات ورفع اللبس، وإسناد القوّة المتضمّنة في القول[٣٨٤].

. أنَّ موضوع اللِّسانيّات هو الواقع اللُّغويّ، في حين أنَّ موضوع التَّداوليَّة التَّأويل التَّام للأقوال. وأنَّ اللِّسانيّات، وإن لم يكن تأويل الأقوال من شواغلها الكبرى، توضّح جلَّ الجوانب الوضعيَّة من القول، ليبقى الجزء غير الوضعي من شأن التَّداوليَّة وتفسيرها[٣٨٥].

. تُضاف التَّداوليَّة إلى اللِّسانيّات؛ لتبين عمليَّات غير لسانيَّة في تأويل الأقوال، وهو الأمر الذي يفسِّر لماذا تلجأ التَّداوليَّة إلى أمثلة حقيقيَّة، إنَّها تجلّ لوقائع تأويليَّة تحتاج إلى تفسير(٣٨٦).

ـ التَّخلِّي عن مشروع إدراج التَّداوليَّة في صلب اللِّسانيّات، وإن كانت بعض الأبحاث التَّداوليَّة تمرّ بالطَّابع الوضعيّ، والعمل على وضع أُسس لتَّداوليَّة قادرة على التَّفاعل مع اللِّسانيّات للوصول، إن أمكن، إلى تحليل تام لظاهرة إنتاج اللُّغة وتأويلها(٣٨٧).

ـ أنَّ الإدراك اللِّسانيّ يتكئ على محورين، هما: النِّظام والاستعمال. ونهاية التَّخطيط اللِّسانيّ، في النِّظام، هو الدَّلالة، ونهاية الرَّسم التَّداوليّ، في الاستعمال، هو التَّأويل، وذلك بعد المرور بسلسة من الحلقات، ففي النِّظام تكون القيمومة على ثنائيَّة: التَّركيب والدَّلالة. أمَّا في الاستعمال فتتجلَّى التَّداوليَّة نهايةً، في التَّأويل، ولكن بعد المرور بقوانين الخطاب. وعلى الرغم من التَّقابل، إلا أنَّ الدَّلالة اللِّسانيَّة تفتقر إلى دور التَّداوليَّة، وهو الأمر الذي يجعل من الأخيرة أن تختبر مهمتها في أن تقدِّم تأويلاً تاماً للجملة التي كانت موضوع إلقاء أيّ قول. إنَّ الحديث عن التَّأويل، معناه الإحالة على العمليَّة التي تُسنَد إلى قول ما، قيمة معيَّنة هي القيمة التي تمّ تبليغها(٣٨٨).

. أنَّ مستقبل التَّداوليَّة يمرُّ عبر تحالفها مع اللِّسانيّات(٣٨٩).

. أنَّ من مصلحة التَّداوليَّة أن تدفع ببحوثها إلى ميدان تأويل الأقوال، وهو ميدانها الطبيعيّ، ذلك إنَّ البحوث التي أُقيمَت حول آداب التَّخاطب وافتتاح المحادثات واختتامها تنتمي إلى المنهجيَّة الاثنوغرافية، أو علم الاجتماع الخاصّ(٣٩٠).

. أنَّ المقصود بتأويل الأقوال تأويلاً أوفى من مجرّد تحليلها اللِّسانيّ، ويكمن الحلّ في تحالف اللِّسانيّات والتَّداوليَّة، وهو مأتى الأهميَّة التي ينبغي أن يوليها التَّداوليّ واللِّسانيّ لمسافة التَّوافق الإبستمولوجي بين الاختصاصين، فما لا تستطيع اللِّسانيّات وحدها، أو التَّداوليَّة وحدها تحقيقه يُفْتَرضُ أن يكون ممكناً بتكاتفهما(٣٩١).

أقول: لعلَّ هذا المشروع القرائيّ الذي يقوم على تحديد المسافات بين موضوعي اللِّسانيّات والتَّداوليَّة، مفارقةً وموافقةً، وتحالفاً وتكاتفاً، في أعمدة هذه الخلاصة على كثرتها – داعٍ إلى ما كان عليه سبب ذلك الاعتماد المفاهيمي، والاختيار الإبستمولوجيّ الذي تجلَّى في محصّلة الانتقال من مقولة "الاستعمال" إلى "فاعليَّة الانتاج القوليّ والتَّأويل التام"، حتَّى كأنَّه تصحيح نقديّ لمسار مفهوم التَّداوليَّة الأوَّل، ليكون نتائجه في: دالّ معرفيّ يشير إلى ما يؤدِّيه من مهام نسقيَّة، موضوعيَّة، تعجز عن مسؤوليتها اللِّسانيّات/علم اللُّغة، نحو "العلاقات المنطقيَّة التي توظّفها الأقوال عند التَّواصل..."(٣٩٢)، مثلاً. الاستدلال والاستلزام وسواها من العوالم التَّداوليَّة.

ولقد تكون محاورُ الانتقاء للدوال المُعرِّفة في الحدّ: أجناسا وفواصل، على نحو مجازفة، روافدَ من دليل على ذلك، فبدلاً من تشكيل مفهوم التَّداوليَّة بحدّ من الإطلاق بنحو "**دراسة استعمال اللُّغة**"، والخروج من مأزق كُلِّيّ إلى توصيف به جزئياً، صار التَّقييد بدوال التَّصوُّر الاقترانيّ، هكذا: "**إنتاج الأقوال وتأويلها التَّام**". وهو الأمر الذي يُثير جملة من تساؤلات في: لماذا مقولة الإنتاج، بدلاً من الاستعمال، ولماذا القول/الأقوال، بدلاً من اللُّغة؟. ولماذا العطف، انتهاءً، بمقولة التَّأويل، حتَّى كأنَّ الأخير هو المحصول، ولكن ليس هو النِّهائيّ بالضّرورة، لانفتاحه واتساعه؟. ولماذا هذه الثُّنائيَّة: الإنتاج والتَّأويل؟ وهل يمكن أن يكتفي المفهوم بأحدهما، أو أنَّ الاستمراريَّة التَّداوليَّة قائمة بها؟ ولماذا وصف التَّأويل بالتَّام؟.

أَلَمْ تكن مقولة "الاستعمال" وافية بمبدأ، وضامنة لشأنٍ؛ بوصفها تحتكم على مُستشعرات نحو: المتكلِّم، فضلاً عن مجرّدات مقولة المصدر، وهو: العمل، وبنية استفعل في: دلالة الاتخاذ، وفاعلها بمنطق الاستلزام، وما في مفعوله اللُّغويّ، الذي يقتضي غرضاً مرسلاً لمستقبلٍ واعٍ، وفي ضوء سَنَن من مواضعات واتفاقات اجتماعيَّة، بَلَه الفكر؟.

يبدو أنَّها، أعني: مقولة "الاستعمال"، على امتيازها، تستهدف المتكلِّم أوّلاً وأخيراً، وأمَّا المتلقِّي فضمناً، في ضوء العمليَّة التَّواصليَّة، فضلاً عن كونها: مقولة "الاستعمال"، مختصَّة بالغيريَّة، بمعنى: أنَّها تبعد الذات المتكلِّمة عن النِّظام

اللِّسانيّ، حتَّى كأنَّها منفصلة؛ وذلك بملحظ الإضافة إلى الوسيلة/اللُّغة نظريّاً، ناهيك بكون "اللُّغة" مقولة عامّة لا تجري مجرى "القول" في الاختصاص التَّواصليّ، لأنَّ القول ملحظ عمليّ، شخصيّ، آنيّ، أمَّا مقولة "اللُّغة"، فنظام كُلِّي نظريّ، ومن المعلوم أنَّ الأمثلة الواقعيَّة هي ما تحقَّق به الرؤى التَّداوليَّة غالباً.

ومن هنا، كان أمر البدائل اختياراً مناسباً، ووجيهاً، فيما أحسبُ؛ لأنَّه يستظهر معادلة أنَّ النِّظام القوليّ غير منفصل في الدَّائرة التَّواصليَّة بالاشتراك التَّفاعليّ، بمعنى: أنَّ الذات المتكلِّمة هي الفاعلةُ في الدَّليل القوليّ، وهو الأمر الذي يعني إنتاجيَّة القول من طرف المتكلِّم، مرةً، ثُمَّ التَّأويليَّة من طرف المتلقِّي، ثُمَّ يعود الأمر بصورة عكسيَّة حين يأخذ كلٌّ منهما مكان الآخر ودوره الفاعل، حتَّى يكون المتلقِّي هو المتكلِّم والمتكلِّم هو المتلقِّي، والهدف المحرِّك هو القيمة التَّبليغيَّة القوليَّة التي ترصدها التَّداوليَّة وتعمل على تأويلها وتفسيرها. يبدو أنَّ المفهوم يُفصح عن ذلك، لأنَّ الدَّوال لا تنتظم في النَّصّ بلا هدفٍ.

لقد تعيَّن إذن، ما يحتكم عليه جهاز التَّداوليَّة من مركزيَّة الإنسان موضوعاً فيه، لأنَّ **بيان مظاهر إنتاج الأقوال وتأويلها التام**، الذي هو موضوعها، الذي تتشكَّل وتهتم به، مفهوماً وإجراءً، إنَّما يكون في الإنسان منه إلى بلاغاته الخطابيَّة والسِّياقيَّة القصديَّة التي تعود إليه تفسيراً وتأويلاً، ولا ريبَ في أنَّ هذا الواقع متسع اتساع أغراض الإنسان وشؤونه التَّفاعليَّة المختلفة، وهو الأمر الذي تتبنّاه التَّداوليَّة: البحث عن فقه العلاقات بين العلامات ومؤوليها، من أجل التَّأويل؛ ولأنَّ أغراض الإنسان عوالم متعدِّدة، فلا ريبَ في أنَّ التَّداوليَّة كذلك، إذ كيف يمكن الإمساك بمعنى قصديّ في قول حواري، يختلف تأويله من سياق إلى آخر.

يمكن القول: إنَّ انحياز التَّداوليَّة إلى جوانب تأويل نتائج الأقوال إذن، هو السَّبب في إطلاق مفهومها، ولَئِن امتنعت عن القيد والضَّبط في حدّ ما؛ فلأنَّها عرفت أنَّ موضوعها يتماهى فيما يعادل الإنسان وشؤونه التَّواصليَّة والفعليَّة أو التَّفاعليَّة فقهاً، وهو، بلا شكّ، موضوع تأويليّ(*)، وليس ثابتاً أبداً بحدّ، وهو ما نجده أليق بالتَّبني والاعتماد، مع إمكان الإعلان عنه بتوصيف مستوحى ممّا تقدَّم، وهو: **دراسة القدرة على إنتاج الأقوال وتأويلها التَّام**. أو **منهج إنتاج الأقوال وتأويل كفاياتها التَّواصليَّة**. أقول: إنَّها نحو كيميائيَّات التَّواصل اللُّغويّ . دراسة مقصود الفعل الكلاميّ . مُقدِّمة لِفَهْمِ الإنسان بوساطة اللِّسان.

الخاتمة

إنْ كان لكلّ تأثيثٍ من نتائجَ، غاية، فيمكننا إجمال أهمّ النَّتائج التي توصَّلت إليها رُؤى البحث والنَّظر، على نحو ما يأتي:

. ليس من الصُّعوبة أن نجد حَداً لمفهوم التَّداوليَّة، بل منها أن يخلو تعريف منها من نقدٍ، أو اعتراض، ولذلك لم ينته البحث التَّداوليّ لوضع تعريف للتداوليَّة يُتفَق عليه باصطلاحٍ ومفهوم موحَّد في دال كُلِّيّ يتّصف وفلسفة قانون الجامعيَّة المانعيَّة.

ـ لم تكن التَّداوليَّة واحدة، بل هي كما أمست متعدِّدة، أصبحت مؤكِّدة لنفسها كذلك: أبحاث متعدِّدة، متنوِّعة، مختلفة، تداوليّات، بلا رابط أو جامع، إلا بهذا الجمع المتكوثر الذي يُسمَّى "تداوليَّة".

ـ كلّ حدّ من حدود التَّداوليَّة وتعريفاتها لا يُمثِّل لها كُلِّيَّة جامعة، بل مدخلاً يسيراً ليس إلَّا من تلك المجالات والمفاهيم التي تتضمّنُها التَّداوليَّة، ولذلك صار ميسمها الكُلِّيّ، كالطَّيف الشَّمسي يمكن أن يدلّ عليها بالمجموع، لا بالإفراد، بمعنى أنَّ كلّ التَّعريفات: مجمعها التَّكامليّ هي التَّداوليَّة، وليس واحد منها كذلك، وهو الأمر الذي يقرّ على أنَّها نحو من اختلاف، ولا تتأكَّد حقيقتها إلا بذلك.

. ليس من الغريب أن نجد التَّداوليَّة بهذه السِّمة من لسانيَّات الاختلاف، بل مِن الغريب ألَّا نجدها كذلك في جدل دائم، وفلسفة مستمرة، بلا انقطاع عن التَّصارع والتَّضارب، فضلاً عن الاختلاط والامتزاج بما سواها من المجالات المعرفيَّة الأُخر: فلسفيَّة، اجتماعيَّة، نفسيَّة، استدلاليَّة... والسّبب فيما يبدو، قراءة ما في معادلها الموضوعيّ الذي يتجلَّى قيمةً عليا في مقاصد الإنسانِ غايةً، ذلك الكائن المُشكِل المثير للجدل وللدهشة والتَّساؤل، وهو الأمر الذي أنعكس تصوُّره على حدود التَّداوليَّة ومفاهيمها، ومن هنا يمكن القول: لأنَّ مفهوم الإنسان إشكاليَّة لا يمكن أن يحلَّها حدّ أو تعريف، فكذلك التَّداوليَّة لا يدلّ عليها تعريف، إنَّها إشكاليَّة كالإنسان نفسه، لا يتقيّد بحدّ.

. يمكن أن تُمثِّل اللُّغة مقولة اختزاليَّة جامعة لكلّ تعريفات التَّداوليَّة وتضارباتها، إنَّها منها بمنزلة الدَّورة الدَّمويَّة من القلب، إنَّها مفتاحها الأكبر الذي تفتح به عوالمها الخفيَّة والمضمرة، بل هي مفتاح العالم الذي يتجلَّى بها فَهْماً ومعرفةً، ولا غرابة في ذلك؛ إنَّها الجامع لكلّ أشكال المفارقة والموافقة، وأنحاء التَّضاد والاختلاف.

. ليس للتداوليَّة شأن يُذكر، إلَّا بما في أغراض الإنسان وشؤونه المتعدِّدة، تلك التي لا تنتهي بمجال دون آخر، تلك المجالات التي حاولت التَّداوليَّات أنفسها الإجابة عنها، بل كانت كأنَّها منذورة لمعرفتها وتفسيرها وتأويلها.

ـ لا تُمثِّل التَّداوليَّات معايير قياسيَّة ثابتة، بل هي تنفلت منها، سمة مميزة لها؛ لأنَّها تحاول تحصيل التَّأويل والكشف عنه، وهذا ليس له من معيار محدَّد أو ثابت، كشأن اللِّسانيَّات ومستوياتها النِّظاميَّة، وعلى الرغم من ذلك تبقى لما تستند إليه، مُمثَّلاً بالاعتبارات والأعراف المشتركة.

ـ أنَّ النِّظام اللُّغويّ، يؤمن بوظائفيَّة اللُّغة وإمكاناتها المتعدِّدة، والتَّداوليَّة، بلا جدال، تؤمن بضرورة النِّظام ومستلزمات "الامتثال للقاعدة"، ثُمَّ منه، احتراماً، إلى العدول عنه، أو خرقه لمُوْجِبٍ؛ لإظهار خصائص فرديَّة في مجالات سياقيَّة غير قياسيَّة، إذ لولاه، أعني: النِّظام اللُّغويّ، لما كان ثمَّةَ تأويلات لظواهر تداوليَّة سياقيَّة، ولذلك فَهُمَا لا يمكن أن يكونا إلَّا في علاقة تفاعليَّة تكامليَّة، أو كوجهين لعملةٍ واحدة في نظام كُلِّيّ من نحو التَّواصليَّة.

. لا يمكن حساب ما في القول والمعنى، إلا بما في مقابلة النِّظام الجمليّ الدَّلاليّ، إنَّ الأخيرَ مدخل أوليّ أسسي تعليميّ يقوم عليه الاستعمال والتَّواصل التَّداوليّ.

ـ أنَّ فلسفة النِّظام اللُّغويّ لم تكن فكرةً حين كانت في دراسة بعيدة عن الواقع وفاعليّاته، وهي وإن كانت، فهي توصيف على مستوًى إبستيميّ، نحوَ علميَّة، ليس إلَّا، وفي المقابل لم تكن فلسفة التَّأويل التَّداوليّ، واقعاً حين كانت بعيدةً عن الفكرة في تنفذيها، بل إنَّهما بمنزلة واحدة في عامة التَّفكير اللِّسانيّ، بيد أنَّ النَّظرة مرةً كانت تكون إلى سياق الصِّفر . القول اللُّغويّ المجرَّد؛ لإمكان حصر التَّوصيف اللُّغويّ الأوَّل فيه من دون إنكار ما سواه، أثراً؛ جمعاً للغات تحتَ منهج عموميّ في دراسة اللُّغة، ومرةً إلى سياق الألفة والتَّفاعل الخطابيّ، لإطلاقِ حُريَّة التَّوصيف اللُّغويّ . المعرفيّ، إفراداً، لامتياز الكلام في الفعل التَّخاطبيّ، الذي يجري فيه التَّأويل.

. كأنّي بالنِّظام اللُّغويّ يجلس منفرداً على طاولة التَّشريح ينظر في أوراقه الخاصة، مستويات، مَنْزُوعة من سياقاتٍ مخصوصة التَّكوين، يقابله جمعٌ متعدِّدٌ بطابعه الاصطلاحيّ، خارج عنه، يتّصف بالاختلاف والمستندات المتنوّعة، كلٌّ منهم يأخذ بما تقول اللُّغة، ثُمَّ يُضيف شؤوناً منه عليها، ملاحظَ واستدراكاتٍ، في دائرة من سيرورات التَّأويل القوليّ.

. أنَّ دَهشةَ اللِّسانيّين لم تكن غريبةً، وكذا سؤالهم عن: مَن هو التَّداوليّ؟، وبأيّ مجال اشتغالي ينظر،... لأنَّ أغلب العلوم الإنسانيَّة تشترك، حين الاعتماد، في ذلك النَّظر التَّداوليّ، تحليلاً وتأويلاً، حتَّى وُسِمَت، أعني: التَّداوليَّة، بأنَّها صلة الوصل بين العلوم المختلفة: فلسفيَّة، واجتماعيَّة، وسلوكيَّة، ونفسيَّة،... إلخ، ولكنَّها ليستْ هي. وهو الأمر الذي يشكِّل به الأوَّل "اللِّسانيّ" عنواناً لنفسه؛ لاختصاصه، ليبقى الثاني "التَّداوليّ" مفتوحاً على مجالات واختصاصات جوهريَّة مختلفة، قد ينتفي وجودها حين النَّظر إلى الاختصاص والتَّعيين.

ـ يمكن أن تُعيّن المفاهيم/الموضوعات/المجالات التَّداوليَّة، ما يشتغل عليه وفيه التَّداوليُّون، دون سائر التَّعريفات التي تظهر بها التَّداوليَّة نظريَّة غير منسجمة ولا مستقرَّة.

ـ يبدو أنَّ التَّداوليَّة لا محالةَ كجزء من اللِّسانيَّات تارةً، ومكمِّلة لها في أُخرى، مع شأن في اضطراب الاندماج بين الدَّلالة والتَّداوليَّة.

ـ قد يبدو من الأنسب إدراج التَّداوليَّة في دلالة موسَّعة، بدلاً من الخروج منها إلى عالم آخر ينفتح على مجالات لا يمكن أن تُحصَى، فضلاً عمَّا فيها من إشكاليَّات ونقد أو اعتراض.

ـ أنَّ أيقونة "الاستعمال اللُّغويّ"، ذلك المفهوم الفَضْفاض الواسع، في تعريف التَّداوليَّة لا يُمثِّلها كُلّاً، بل جزءاً، ويمكن العدول عنه إلى ما هو أكثر قيمة منه، وهو مفهوم إنتاج الأقوال، وتأويلها بصورة تامة كاملة.

ـ حين يُعيّن الإنسانُ نفسه موضوعاً في برنامج كالتَّداوليَّة، ثُمَّ تخرج هي به موضوعاً = معنًى، قصداً؛ لإدراكه، سيكون مطلب التَّعريف الذي تنتهي به واقعاً في التَّأويل، وهذا الأخير متجدِّد مغيِّر ـ سياق، لا يمكن حصره، أو التَّنبؤ به، وهو ما تقوم عليه التَّداوليَّة، بل لا قِيم معرفيَّة لها إلَّا به، ولذلك فهي تعيش حالة من التَّمرُّد من جهة، والأبديَّة من جهة أُخرى، ولكنَّها ليستْ هي.

ـ ليس للتداوليَّة موضوعٌ خاصّ باللِّسان بلا قراءةٍ من تأويل، إنَّها دراسة خاصَّة بتأويلٍ لقول يحمل مقصوداً ما، وإذا كانت علاقة الإنسان باللِّسان علاقة تأويليَّة لذلك القول المُرسَل، فلا قيمة للسان إلَّا بالإنسان بداهةً، ولأنَّ قيمة اللِّسان بالتَّأويل، فلا قيمةَ لكلّ منهما إلا بالمعنى، والقصد، الذي يُرسله، ويرصده الإنسان في دائرة السِّياق التَّخاطبيّ الأكبر: خبرات، ومشتركات، وعمليَّات، وتقاليد،... شبكات معقدَّة جداً، متعدِّدة، متنوِّعة، لتمثيلٍ فكريّ في قول ما.

ـ أنَّ محاولة فِقه علاقة اللِّسان بالاستعمال في البحث التَّداوليّ، غرضها فِقه الإنسان نفسه ـ مقاصده، أغراضه، إراداته، أفعاله، أهدافه، بل إنَّها محمولة على مرجعيَّاته غايةً، ولولاه لما كان للأوَّل من مشروعيَّة ابتداءٍ أبداً.

ـ أفضى التَّعمُّق في الدِّراسة العلميَّة للغة على نحو من المنطق والتَّجريد العالي، إلى إهمال الإنسان، بل تركه بعيداً عن سيرورة المعالجة والتَّفسير، على الرّغم من أنَّها إليه ابتداءً وغايةً، لتأتي الأبحاث التَّداوليَّة على حين من الدَّهر، إدراكاً، رافعةً رايات الثورة والاعتراض، لترد ما للإنسان وما من شأنه أن يكون في ركائز التَّحليل والتَّعليل والتَّفسير والتَّأويل، بيد أنَّها لم تنضِّم أنفسها في دولة مستقلَّة ذات نظريَّة موحَّدة، كأنَّها عنوان على فلسفة، خرجت منها، ولكنَّها لم تلبث إلَّا أن تعود إليها، مع شيءٍ من التَّغيير بإضافة ألوان معيَّنة على خريطة الدَّرس اللِّسانيّ.

ـ أنَّ الإنسان هو محور المعنى والقصد من الفعل الكلاميّ؛ إنَّه، وبلا جدالٍ، هو مَن عقَد الاتفاقات بعد صناعة اللُّغة والكلام على الأشياء ـ تسميتها، وهو نفسُه مَن اصطلح على المواضعات، واصطنع السَنَن باللُّغة، وهو مَن يَستعملها، وهو مَن ألَّف من نفسهِ، بعد الاختبار، موضوعاً فيها، وهو مَن شكَّل بها مفاهيم عوالمه المختلفة، وصنع منها دنياهُ تاريخاً، ثُمَّ منه إلى اللُّغة، حين تتشكَّلُ اللُّغة بالإنسانِ عوالمَ أُخرى تحكي عن نفسها في الإنسان، ليكون، مِن بعدُ، كاشفاً، قارئاً، أو ناقداً،... لنفسه ولِعَوالمه المُشتجِرة باللُّغة. ولا ريبَ في أنَّ التَّداوليَّة كمشروع، هي مَن يُحاول الكشف عن هذه الدَّوائر المتداخلة المختلفة التي لا تنتهي بحالٍ؛ في علامة جدليَّة كبرى دائمة التَّغيُّر والتَّحوُّل ـ الإنسان، تلك التي أخذت، أعني: التَّداوليَّة، منها نفسها؛ وعَمِلت على ترجمةِ ذاتها المُتغيّرة فكرةً بالتَّأويل، إنَّها مِن الإنسان في اللُّغةِ، ثُمَّ باللُّغةِ إلى الإنسان، عالم مجهول، في كلّ لحظةٍ له شأنٍ.

وبعدُ أقولُ إنَّ هذه النَّتائج ما هي إلا قراءة يسيرة جداً عملتْ على توضيح ما يختلج فِيَّ من خواطر، وليست بالضَّرورة نهائيَّة، بل هي ابتداءٌ لخبرٍ حمولاتُهُ لا تنتهي أبداً.

** ** ** ** ** **

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- آفاق جديدة في البحث اللُّغويّ المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.
- آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، نعوم تشومسكي، ترجمة: عدنان حسن، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، اللاذيقية، ٢٠٠٩م.
- الاتجاه التَّداوليّ والوظيفي في الدرس اللغوي، نادية رمضان النجار، ط١، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، مصر، الاسكندرية، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
- الاتّجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللُّغة، يحيى أحمد، مجلّة عالم الفكر (٣)، عن وزارة الإعلام، الكويت، ـ الألسنيّة، المجلّد: ٢٠، العدد: ٣، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، ١٩٨٩م.
- اتجاهات البحث اللِّسانيّ، ميلكا إفيتش، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، ط٢، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٠م.
- الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، د. علي عزت، ط١، شركة أبو الهول للنشر، مصر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- أزمة الأصالة في الخطاب التداولي العربي . طه عبد الرحمن نموذجاً، أحمد فال السباعي، أحمد فال السباعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٢٢م.
- استراتيجيّات الخطاب، مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت . لبنان، طرابلس . الجماهيرية العظمى، ٢٠٠٤م.
- الأسس الإبستمولوجية والتَّداوليَّة للنظر النحوي عند سيبويه، د. إدريس مقبول، ط١، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، أربد، الأردن، ٢٠٠٧م.
- أسس علم اللُّغة، ماريوي باي، ترجمة وتعليق: د. أحمد مختار عمر، ط٨، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- أسس لسانيات النص، مارغوت هاينمان، ترجمه عن الألمانية أ.د. موفق محمد جواد المصلح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ٢٠٠٦م.
- إسهامات أساسيَّة في العلاقة بين النَّصّ والنَّحو والدَّلالة، نقله إلى العربية وعلّق عليه، أ. د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٨م.
- الافتراض المسبق بين اللِّسانيّات الحديثة والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، د. هشام إبراهيم عبد الله الخلفية، ط١، الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ٢٠٢١م.
- إفلاطون، محاورة كراتيليوس، "في فلسفة اللُّغة"، ترجم المحاورة وقدم لها بدراسة تحليلية: د. عزمي طه السيد أحمد، ط١، منشورات وزارة الثَّقافة، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.
- الألسنيَّة (علم اللُّغة الحديث) قراءات تمهيديَّة، د. ميشال زكريا، ط٢/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- إنسانُ الكلام، مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية، كلود حجاج، ترجمة: د. رضوان ظاظا، مراجعة: د. مصباح الصمد، د. بسَّام بركة، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.
- أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة ـ مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودرسات إشراف سيزا قاسم، ونصر حامد أبو زيد، دار الياس العصرية، مصر، القاهرة، (د. ت).
- الإيضاح في علل النّحو، الزّجاجيّ (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، ت ٣٣٧هـ)، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
- البحث اللِّساني والسيميائي . ندوات، ط١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم ٦، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.
- البراجماتيَّة اللُّغويَّة، سِتيفِن ك. ليفنسون، ترجمه إلى العربية، أ.د. سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشرق، مصر القاهرة، ٢٠١٥م.
- البراغماتية، وليم جيمس، نقله إلى العربية، وليد شحادة، ط١، مكتبة مؤمن قريش، دار الفرقد للطباعة، سوريا، دمشق، ٢٠١٤م.
- بلاغة الخطاب وعلم النَّصّ، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
- البنى النحوية syntactic structures، نوم جومسكي، ترجمة: د. يؤيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.
- تأملات في الفلسفة الأولى، رينيه ديكارت، ترجمة وتقديم وتعليق: عثمان أمين، تصدير: مصطفى لبيب، المركز القومي للرتجمة، القلم، مصر، القاهرة، ٢٠٠٩م.

- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان. (د. ت).
- تحقيقات فلسفيَّة؛ لودفيك فِتغْنشاين؛ ترجمة وتقديم وتعليق: د. عبد الرزاق بنّور: ط١، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م.
- تحليل الخطاب . التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف، ترجمة: د. طلال وهبه، مراجعة: د. نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.
- تحليل الخطاب، النظرية والمنهج، ماريان يورغنسن، ولويز فيليبس، ترجمة: د. شوقي بوعناني، مراجعة، محمد المومني، ط١، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ٢٠١٩م.
- تحليل الخطاب، ج.ب. بروان، و: ج. يول، ترجمة وتعليق: د. محمد لطفي الزليطني، و: د. منير التريكي، جامعة الملك سعود، المملكة العربيَّة السعوديَّة . الرياض، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
- التَّحليل اللُّغوي للنص، كلاوس برينكر، ترجمة، وتعليق: أ. د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.
- التَّداوليات، علم استعمال اللغة، مجموعة بحوث، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيل علوي، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.
- التَّداوليَّة "PRAGMATICS"، جورج يول، ترجمة: قصي العتابي، ط١، الدار العربية للعلوم. ناشرون، بيروت، لبنان، دار الأمان، الرباط، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- التَّداوليَّة أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، ط١، كنوز المعرفة، عمان، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.
- التَّداوليَّة البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، عيد بلبع، مجلة فصول، مجلة النقد الأدبي، مجلة محكمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ٦٦، ربيع ٢٠٠٥م.
- تداولية الخطاب ـ من تأويل الملفوظ إلى تأويل الخطاب، آن ربول، جاك موشلر، ترجمة وتعليق: لحسن بوتكلاي، ط١، كنوز المعرفة، الأردن، ١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م.
- التَّداوليَّة اليوم، آن روبول، و جاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيباني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت . لبنان، ٢٠٠٣.
- التَّداوليَّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليَّة لظاهرة "الأفعال الكلاميَّة" في التّراث اللِّسانيّ العربيّ، د. مسعود صحراوي، ط١، دار الطليعة، بيروت . لبنان، ٢٠٠٥م.
- التَّداوليَّة في البحث اللغوي والنقدي، مجموعة بحوث، تحرير أ. د. بشرى البستاني، ط١، مؤسسة السياب (لندن)، ٢٠١٢م.
- التَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية . اللاذقية، ٢٠٠٧م.
- التَّداوليَّة واستراتيجية التواصل، د. ذهبية حمو الحاج، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥م.
- التَّداوليَّة وتحليل الخطاب، مارغاريدا باسولز يويغ، ترجمة: سناء عبد العزيز، مجلة فصول، فصلية محكمة، مجلة النقد الأدبيّ، "تحليل الخطاب"، المجلد (١/٢٥) العدد (٩٧)، خريف ٢٠١٦م.
- التَّداوليَّة والسَّرد، جون .ك آدم، ترجمة: د. خالد سهر، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ٢٠٠٩.
- التَّداوليَّة والسِّيميائيَّة. أ. ج. كريماص. وأ. لندوفسكي: ٣٠٢. ترجمة: محمد الداهي، مجلة علامات، ج ٣٣، مج ٩، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ- سبتمبر، ١٩٩٩م.
- تساؤلات التَّداوليَّة وتحليل الخطاب، ترجمة وتنسيق: د. حافظ إسماعيلي علوي، د. ذهبية حمو الحاج، د. منتصر أمين عبد الرحيم. ط١، كنوز لمعرفة، عمان، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.
- تفسير النَّصّ . أسس نظرية لغوية لعلم دلالة تفسيري، ديتريش بُوسِّه، ترجمه إلى العربية: أ. د. سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشرق، مصر . القاهرة، ٢٠١٣م.
- التَّفكير واللُّغة، جوديث جرين، ترجمة وتقديم: د. عبد الرحيم جبر، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، مصر، القاهرة، ١٩٩٢م.
- الجمهورية، بضمن أفلاطون، المحاورات الكاملة، المجلد الأول، نقلها إلى العربية، شرقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤م.
- جوانب من نظرية النحو؛ نعوم جومسكي؛ ترجمة: مرتضى جواد باقر، وزارة التعليم العالي والبحث العملي، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٥م.
- الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، هانز جورج غادامير، ترجمة: د. حسن ناظم، علي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية: د. جورج كتوره، ط١، دار أويا، طرابلس الجماهيرية العربية، ليبيا، ٢٠٠٧م.
- الخصائص، ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت٣٩٢هـ)، تح: مُحمّد عليّ النّجار، كنوز التّراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الشؤون الثَّقافيَّة العامة، العراق، بغداد، ١٩٩٠م.

- دليل ميسَّر إلى الفكر والمعنى، راي جاكندوف، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، ط١، كنوز، عمان، المعرفة، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م.
- دور الكلمة في اللُّغة، ستيفن أولمان، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه: د. كمال بشر، ط١٢، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة. (د. ت).
- الذات بين الضوء والمصباح . دراسة إبستمولوجية في إشكاليّات النَّص وتعدُّديَّة القراءة في رحاب الدّرس اللِّسانيّ الحديث، أ. م. د. عماد جبار كاظم، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، كلية التربية، العراق، العدد السابع والثلاثون، الجزء الثاني/ شترين الثاني/ ٢٠١٩م.
- الذاتية في اللُّغة، إميل بنفنيست، ترجمة: حميد سمير/عمر طي، مجلة نوافذ (٩) جمادى الأولى ١٤٢٠هـ- سبتمبر ١٩٩٩م.
- سوسير وفتجنتشتين . فلسفة اللُّغة ولعبة الكلمات، روي هاريس، ترجمة: فلاح رحيم، ط١، جامعة الكوفة، سلسلة "دراسات فكرية"، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ٢٠١٩م.
- السِّيميائيَّات، مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكَراد، ط٣، مكتبة الأدب المغربي، دار الحواء للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذيقيَّة، ٢٠١٢م.
- شظايا لسانيَّة، أ. د. مجيد الماشطة، ط١، دار السّياب، لندن . بريطانيا، ٢٠٠٨م.
- عالم الصمت، ماكس بيكارد، ترجمة: قحطان جاسم، ط١، دار التنوير، بيروت، لبنان، ٢٠١٨م.
- العقل واللغة والمجتمع . الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل، ط١، ترجمة وتقديم: صلاح إسماعيل، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م.
- العلاماتية (السيميولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربيَّة، د. منذر عياشي، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ٢٠١٣م.
- العلاماتية وعلم النَّصّ، مجموعة بحوث إعداد ترجمة: د. منذر عياشي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٤م.
- علم الإشارة السيميولوجيا، بييرجيرو، ترجمه عن الفرنسية د. منذر عياشي، قدم له مازن الوعر، طلاسدار للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، دمشق، ١٩٩٢م.
- علم الدَّلالة، (الفصلان: التاسع والعاشر، من كتاب: مقدّمة في علم اللُّغة النّظري)، جون لاينز، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، وحليم حسن فالح، وكاظم حسين باقر، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٠م.
- علم الدلالة، ف. بالمر، ترجمة: د. مجيد عبد الحليم الماشطة، منشورات الجامعة المستنصرية، العراق، ١٩٨٥م.
- علم اللُّغة العام، فردينان دي سوسور، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي، د. مالك يوسف المطلبي، سلسلة كتب دار آفاق عربية، بغداد . العراق، ١٩٨٥م.
- علم اللُّغة، مقدّمة للقارئ العربي، د. محمود السَّعران، دار النهضة العربية، بيروت.
- علم النَّصّ، مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق: د. سعيد حسن بحيري، ط٢، دار القاهرة . مصر، ٢٠٠٥م.
- تفجْنَشتين؛ هانس سلوجا، ترجمة وتقديم: د. صلاح إسماعيل، ط١، المركز القومي للترجمة، مصر، القاهرة، ٢٠١٤م.
- فرانكشتاين، (رواية)، ماري شيلي، ترجمة: فايقة جرجس حنا، ط١، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، القاهرة، ٢٠١٢م.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ٢٠٠٠م.
- في البراجماتية، الأفعال الأنجازيَّة في العربية المعاصرة دراسة دلالية و معجم سياقي، د. علي محمود حجي الصَّراف، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- في التَّداوليَّة المعاصرة والتّواصل، أ. مولز، ك. زيلتمان، ك. أوريكيوني، فصول مختاره، مترجمة وتعليق: د. محمد نظيف، ط١، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤م.
- في اللِّسانيّات العامة . تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، د. مصطفى غلفان، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ٢٠١٠م.
- في سبيل منطق للمعنى، روبير مارتان، ترجمة وتقديم: الطيب البكوش، صالح الماجري، بمساهمة بشير الورهاني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م.
- قاموس التَّداوليَّة، جوليان لوجني، جورج إيليا سرفاتي، ترجمة: لطفي السيد منصور، ط١، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ٢٠٢٠م.
- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللِّسان، أوزوالد ديكرو، و جان ماري سشايفر، ترجمة: د. منذر عياشي، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . المغرب، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م.
- القاموس الموسوعيّ للتّداوليَّة، جاك موشلر . آن ريبول، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، بإشراف عز الدين المجذوب، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٠م.
- قرائن التعليق في نهج البلاغة . دراسة في المعنى النحوي الدَّلاليّ، د. عماد جبار كاظم، ط١، مركز الإمام الحسين لترميم المخطوطات، العتبة الحسينية المقدّسة، العراق، كربلاء، ٢٠١٨م.
- قصة الحضارة، وِل وَايريل ديورَانت، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، تقديم: د. محيي الدين صابر، بيروت، تونس. (د. ت).
- القصديَّة . بحث في فلسفة العقل، جون سيرل، ترجمة: أحمد الأنصاري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.

- كشف المراد الجدِّيّ عند السيد محمد باقر الصَّدر . مقاربة في المفاهيم والآليات التي تفضي إلى بيان القصد الجدي والدلالي في الخطاب، أ.م.د. عماد جبار كاظم، مجلة كلِّيَّة التَّربية، جامعة واسط، كلية التربية، العراق، العدد الخامس والعشرون/ السنة التاسعة، ١٤٣٧هـ تشرين الثاني ٢٠١٦م.
- اللِّسانيات؛ جان بيرو؛ ترجمة: الحواس مسعودي، مفتاح بن عروس، سلسلة العلم والمعرفة، دار الآفاق، ٢٠٠١م.
- اللسانيّات . اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، د. نعمان بُوقرة، ط١، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، إربد، عمان، الأردن ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- لسانيات الخطاب . الأسلوبية والتلفُّظ والتداولية، صابر الحباشة، ط١، دار الحرية للنشر والتوزيع، سورية، اللاذقية، ٢٠١٠م.
- لسانيات الخطاب . مباحث في التأسيس والإجراء، أ.د. نعمان بُوقرة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.
- لسانيات النَّصّ . عرض تأسيسي، كيرستن آدمتسيك، ترجمه إلى العربية، أ.د. سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- اللِّسانيّات . مقدِّمة إلى المقدِّمات، جين إتْشِسُن، ترجمة وتعليق: عبد الكريم محمد جبل، ط١، المركز القومي للترجمة، مصر، الجيزة، القاهرة، ٢٠١٦م.
- اللِّسانيّات والفلسفة ـ دراسة في الثوابت الفلسفية للغة، إيتين جيلسون، ترجمة: د. قاسم المقداد، ط١، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م.
- اللُّغة علم اللُّغة، جون ليونز، ترجمة: مصطفى التوني، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- اللغة والخطاب الأدبيّ (مقالات لغوية في الأدب)، اختيار وترجمة: سعيد الغانمي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.
- اللغةُ والفعلُ الكلاميُّ والاتّصال مواقف خاصة بالنظرية اللُّغويَّة في القرن العشرين، زيبيله كريمر، ترجمه إلى العربية، أ. د. سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠١١م.
- اللُّغة والمعنى والسِّياق، جون لاينز، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، مراجعة، د. يوئيل عزيز، ط١، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٨٧م.
- اللغة، دفاتر فلسفية، (نصوص مختارة)، إعداد وترجمة: محمد سبيلا، وعبد السلام بنعبد العالي، ط٤، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥م.
- مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣م.
- مداخل لنظرية اللُّغة، لويس هيلمسليف، ترجمة: يوسف إسكندر، مراجعة: حسن ناظم، ط١، دار الرافدين، بيروت، لبنان، ٢٠١٨م.
- المدارس اللِّسانيَّة المعاصرة، نعمان بوقرة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة.
- مدخل إلى اللِّسانيّات التَّداوليَّة، الجيلالي دلاش، ترجمة: محمد بحياتن، دار الكتب، ديون المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر.
- مدخل إلى اللِّسانيَّات، د. محمّد محمد يونس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ـ لبنان، طرابلس، الجماهيرية العظمى، لبيبا، ٢٠٠٤م.
- مدخل إلى دراسة التَّداوليَّة . مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل، فرانشيسكو يوس رَّاموس، ترجمة وتقديم: يحيى حمداي، ط١، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع . العراق، ٢٠١٤م.
- مدخل إلى علم اللغة الإدراكي، مونيكا شفارتس، ترجمه إلى العربية، أ.د. سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠١٥م.
- المدخل إلى علم اللُّغة، كارل ديتر بونتنج، ترجمة وتعليق: د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- مدخل إلى علم النَّصّ، مشكلات بناء النَّصّ، زتسيسلاف واورزنياك، أ. د. سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار القاهرة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- مدخل إلى علم لغة النَّصّ، فولفجانج هاينه مان، ديتر فيهفجر، ترجمة: أ.د. سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشرق، مصر . القاهرة، ٢٠٠٤م.
- مدخل إلى نظريَّة الفعل الكلاميّ، جوتس هنده لانج، ترجمه إلى العربية، أ.د. سعيد حسن بحيري، ط١، زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠١١م.
- مسرد التداولية أ. د. مجيد الماشطة، م. م. أمجد الركابي، ط١، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٣٩هـ- ٢٠١٨م.
- مشكلة الإنسان، د. زكريا إبراهيم، سلسلة مشكلات فلسفية .٢.، دار مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة.
- المصطلحات الأدبية الحديثة، دراسة ومعجم إنجليزي . عربي، د. محمد عناني، ط٣، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ٢٠٠٣م.
- المصطلحات الأساسيَّة في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجميَّة، د. نعمان بوقرة، ط١، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، إربد، عمان، الأردن، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٩م.
- المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ماري نوال غاري، ترجمة: عبد القادر فهيم الشيباني، ط١، الجزائر، ٢٠٠٧م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة محمد بحياتن، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت . لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- المضمر، كاترين كيربرات . أوريكيوني، ترجمة: ريتا خاطر، مراجعة: جوزيف شريم، ط١، المنظمة العربية للترجمة، مركز الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.

- المعجم الفلسفيّ بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينيَّة، د. جميل صليبا، ط١، ذوي القربى، قم، إيران، ١٣٨٥هـ
- مُعجم أوكسفورد للتداوليَّة، يان هوانغ، ترجمة: د. هشام إبراهيم عبد الله خليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بنغازي، ليبيا، ٢٠٢٠م.
- معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو . دومينيك منغنو، ترجمة: عبد القادر المهيري . حمادي صمّود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨م.
- المعرفة اللُّغويَّة . طبيعتها وأصولها واستخدامها، نوم تشومسكي، ترجمة وتعليق وتقديم: د. محمد فتيح، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
- معنى المعنى دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية، أدغدن ورتشاردز، قدَّم للكتاب وترجمه: د. كيان أحمد حازم يحيى، مع مقالتين ملحقتين لمالنوفسكي وكروكشانك، ومقدمة جديدة لأمْبرتو إيكو، دار الكتاب الجديد المتحدة، (د. ط. ت).
- المعنى في لغة الحوار . مداخل إلى البراجماتية (التداولية)، د. جيني توماس، ترجمة: د. نازك إبراهيم عبد الفتاح، ط١، دار الزهراء، الرياض، ١٤٣١هـ.
- المقاربة التَّداوليَّة للأدب، إلفي بُولاَن، ترجمة محمد تنفو، ليلى احمياني، مراجعة وتنسيق وتقديم: سَعيد جبَار ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٨م.
- المقاربة التَّداوليَّة، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، ط١، مركز الإنماء القومي، الرابط، المغرب.
- مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، ترجمة محمود محمد الخضيري، وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- مقدِّمة في علمي الدَّلالة والتَّخاطب، د. محمد محمد يونس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت . لبنان، طرابلس، الجماهيرية العظمى . ليبيا، ٢٠٠٤م.
- مقدِّمة لدراسة التُّراث المعجميّ العربيّ، د. حلمي خليل، ط١، دار النهضة العربية، بيروت . لبنان، ١٩٩٧م.
- من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب الساسي، تبسيط التداولية، د. بهاء الدين محمد مزيد، ط١، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م.
- مناهج البحث في اللُّغة، د. تمّام حسّان، دار الثَّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م.
- منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربيَّة مقاربة تداوليَّة، معاذ بن سلمان الدخيل، ط١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠١٤م.
- النَّحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- النَّصّ الواصف . العدسة والقرص، مقاربة إبستمولوجية في أبجدية التحليل النصي قديماً وحديثاً، أ.م.د. عماد جبار كاظم، مجلة كلية التربية، جامعة واسط/كلية التربية، العراق، العدد الثاني والأربعون، الجزء الثاني/شباط/ ٢٠٢١م.
- النَّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: أ. د. تمام حسان، ط٢، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- النَّصّ والسِّياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت . لبنان، ٢٠٠٠م.
- نظريَّة أفعال الكلام العامَّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستين، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، بيروت، ١٩٩١م.
- نظريَّة الأفعال الكلاميَّة بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، طالب سيد هاشم الطبطبائي، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، ١٩٩٤م.
- النظرية البراجماتيَّة اللسانية (التَّداوليَّة) . دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، د. محمود عكاشة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣م.
- نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، دان سبيربر، ديدري ولسون، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله خليفة، مراجعة فراس عواد معروف، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، بيروت، لبنان، ٢٠١٦م.
- نظرية الفِعل الكلاميّ، Speech Act theory بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، هشام أ. عبد الله الخليفة، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، لبنان، ٢٠٠٧م.
- نظريَّة تشومسكي اللُّغويَّة، جون ليونز، ترجمة: د. حلمي خليل، ط١، دار المعرفة الحامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- نظريَّة علم الدَّلالة (السّيمانطيقا)، راث كيمبسون، ترجمة: عبد القادر قنيني، ط١، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت . لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٩.
- النَّظريَّة والنَّصّ، كتاب جماعيّ، قدّم له: آ. كيبيدي فارغا، ترجمة: د. منذر عياشي، ط١، عالم الكتب الحديث، أربد ـ الأردن، ٢٠١٣م.
- النَّقد والأسلوبيَّة بين النَّظريَّة والتَّطبيق، دراسة، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد كتاب العرب، ١٩٨٩م.
- الشبكة العالمية للمعلومات "entrant"، ويكيبيديا، الموسوعة الحُرّة:

.https://ar.wikipedia.org/wiki

الهوامش والتَّعليقات:

(١) إنَّما جعلتُ المتن مرافقاً لعلامة الحذف ["..."]؛ ليكون نصّ الاقتباس منفتحاً على ما يمكن أن يرد فيه من القوائم والدوال التي اختلفت فيها التَّرجمات مقابلةً، وهو تباين، بلا ريب، نشأت تساؤلاته من إشكاليّات المبدأ الأوّل الذي أصبح مسرحاً في كلّ النَّظريات المنتظمة في المجالات التَّداوليَّة. إنَّه الصراع الأوّل الذي نشهده في المداخل الموطئة للبحث التَّداوليّ/البراغماتي، وهي: اسم مشتقّ من اللَّفظ اليوناني براغما (Pragma)، ومعناه العمل/الفعل. أمَّا قراءة النَّصّ المحذوف، فهو متخيّل في ما يرد من: "التَّداوليَّة"، أو "الفعليَّة"، أو "السِّياقيَّة"، أو المواقفيَّة"، أو "المقاميَّة"، أو "الوظيفيَّة"، أو "البراجماتيّة"، أو "الذرائعيَّة"، أو "النفعيَّة"، أو العمليَّة، أو الفائداتيَّة/الفوائديَّة، أو "علم المقاصد"، أو "علم المقاصديَّة" أو "علم التَّخاطب"؛ وذلك على اختلاف في التّرجمة والمفاهيم المتعدِّدة وقراءة الأنسب منها إلى حقل اللِّسانيّات، أو سواه من الحقول المعرفيَّة الأُخَر، فضلاً عن قراءة مفارقة المنهج الفلسفيّ عن اللِّسانيّ فيها، على الرغم من قراءة الموافقة بينهما في المجالين: الفعليّ والفكريّ. ينظر: في رؤى التَّرجمة وأصول شؤونها، تاريخاً وتطوّراً وتحوّلاً: البراغماتية؛ وليم جيمس: ٥٣، والمعجم الفلسفي؛ جميل صلبيا: ١/ ٢٠٣، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٢٨، والتَّداوليَّة من أوستن إلى كوفمان؛ فيليب بلانشيه: ١٧، وقاموس التَّداوليَّة؛ جوليان لونجي: ٢٠٩، وتحليل الخطاب؛ براون، ويول: ٣٢، و٣٥، والاتجاه الوظيفي وتحليل اللُّغة؛ يحيى أحمد، بضمن الألسنيَّة: ٧١، وتجديد المنهج؛ طه عبد الرحمن: ٢٤٤، وفي أصول الحوار؛ طه عبد الرحمن: ٢٨، والبحث اللِّساني والسيميائي . ندوة؛ مداخلة الدكتور طه عبد الرحمن: ٢٩٩، وشظايا لسانية؛ مجيد الماشطة: ٨٧، ونظرية الفعل الكلاميّ؛ هشام عبد الله خليفة: ٢٦، والافتراض المسبق؛ هشام إبراهيم عبد الله خلفية: ١٢، ولسانيات الخطاب؛ نعمان بوقرة: ٧١، واللسانيات؛ نعمان بوقرة: ١٦١، والمصطلحات الأدبية الحديثة؛ محمد عناني: ٧٦، ومقدمة في علمي التخاطب والدلالة؛ محمد يونس علي: ٥، و١٣، ومدخل إلى اللسانيات؛ محمد يونس علي: ١٠٢، والنظرية البراجماتية؛ محمود عكاشة: ٩، والتَّداوليَّة البعد الثالث في سيميوطيقا موريس؛ عيد بلبع: ٣٨، والتَّداوليَّة؛ جواد ختام: ١٣، وفي البراجماتية، الأفعال الإنجازيَّة؛ علي محمود حجي الصراف: ١، وأزمة الأصالة في الخطاب التداولي العربي؛ أحمد فال السباعي: ١٨.

(٢) المقاربة التَّداوليَّة: ٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٠– ١١.

(٤) المصدر نفسه: ١١.

(٥) القاموس الموسوعيّ للتداولية: ٢٣.

(٦) المصدر نفسه: ٢٣.

(٧) التَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان: ١٧.

(٨) المصدر نفسه: ١٨.

(٩) المصدر نفسه: ١٨.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٩.

(١١) النص والسياق: ٢٥٥، وينظر: علم النص؛ فان دايك: ١١٤.

(١٢) تساؤلات التَّداوليَّة لماذا تحتاج التَّداوليَّة الفلسفية إلى تداولية عياديَّة؛ إنس أدرنتي، بضمن تساؤلات التَّداوليَّة: ٥٧. وينظر: التداوليات قبل أوستين: واقع أم تهيؤات؛ يريجيت نرليش، بضمن تساؤلات التَّداوليَّة: ٩.

(١٣) معجم أوكسفورد للتداوليَّة: ٥١٥– ٥١٦.

(١٤) المصدر نفسه: ٥١٥– ٥١٦.

(١٥) معجم أوكسفورد للتداولية؛ مقدّمة المترجم؛ هشام إبراهيم عبد الله خليفة: ١٠.

(١٦) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: ١٠٠.

(١٧) المصدر نفسه: ١٠١– ١٠٢. وينظر: معجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ٤٤٤.

(*) أي: النموذج، أو المثال، أو القِياس. والبارادِيم (باللاتينية: Paradigma). ويستعمل غالباً مقروناً بالفكر مثل النموذج الفكري، أو النموذج الإدراكي، أو الإطار النظري. ينظر: والمصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب؛ دومينيك مانغونو: ٩٠. والشبكة العالمية للمعلومات، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة: "نموذج فكري": https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٨) قاموس التَّداوليَّة؛ جوليان لونجي: ٢٠٨– ٢٠٩.

(١٩) المصدر نفسه: ٢٠٩.

(٢٠) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة؛ فارنسواز أرمينكو: ٨، ومعجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ٤٤٢، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٢١.

(٢١) ينظر: قاموس التَّداوليَّة: ٢٠٩– ٢١٠.

(٢٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢١١.

(٢٣) معجم تحليل الخطاب: ٤٤٢. وينظر: المصدر نفسه: ١٨٢.

(*) أقول مُنبّهاً، أوّلاً: ليس غرضي ثمَّة أن أعكس تصوُّراً سلبياً عن التَّلقِّي العربيّ في كونه تقليداً للغربيّ وتوصيف مفهوم التَّداوليَّة، مع نفي أن يكون ثمَّة تداوليّ عربيّ له من المجالات فيها من دون أن يكون ذلك بأثر من المترجمات الخاصة لها، اللهم إلا قراءات لمرجعيَّات جذَّرت تأصيل أصولها الأولى وامتداداتها إلى التَّراث العربيّ وما قدّمه علماء العربيَّة من البلاغيين والأصوليين والمفسرين فيها، بعنوان لا جديد تحت الشَّمس. وبقراءة أنَّ هذا مفروغ منه؛ وأنَّ مفاهيم التَّداوليَّة مفاهيم حديثة مستوردة من الغرب. ولكنّي أريد أن أوازن بين بعض من هذه الرُّؤى العربيَّة مع ما سبق سرده من قراءة النصوص المترجمة تلقياً؛ للإفضاء منها إلى تأمُّل خاصّ في شأن التَّداوليّات ومجالاتها الخاصّة مفهوماً أوّلياً على نحو من قراءة إثبات الثُّبوت، أو قراءة في تحقيق الإثبات. ثانياً: ليس الغرض هنا أيضاً استقراء ما جال في فكر النّقد العربيّ ورؤاه الإبستمولوجيَّة التي خلصت إلى بحوث في التَّداوليّات، رؤى وتطبيقات، بقدر ما هو عرض يسير لقراءة تعمل على تكوين ذاتها لمعرفة التَّصوُّرات التي انعكست على قراءة التَّداوليّات، أمّا مشروعه الأكبر، فهو يتجاوز هذه الوريقات اليسيرة، فضلاً عما كُتِبَ، إحصاؤه دونه جمع البحار.

(٢٤) التَّداوليَّة عند العلماء العرب: ١٦.

(٢٥) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٠. وينظر: المصدر نفسه: ١٦، والتَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ١٦.

(*) معلوم أنَّ الحقول المعرفيَّة/العلوم تتمايز فيما بينها ضرورةً، إذ ينحو أيّ حقل منها بنفسه جهة الاستقرار والاستقلال الذي يتشخَّص بخصائصه وقوانينه: الضَّبط التَّقعيد والشُّمول، ويتمظهر بفلسفته وأغراضه أبداً، وذلك بجهات من مبادئ اشتغاليَّة وطروحات استدلاليَّة وبحسب ما يصبو إليه من نتائج وأهداف، ثُمَّ إنّ أيّ حقلٍ منها بهذا الاعتبار لا يُستثنى من الأجواء التَّنافسيَّة والصّراعات الفكريَّة، وقوة أيّ منها إنَّما تتقارب بمدى صموده وثابته، ولكنَّ هذا الثبات يعني الامتناع من الاقتراض حتَّى المصادرة؛ ليشكل به سمة من تطوّر وارتقاء.

أقول إذا كان الأمر كذلك، فما بال هذه الحقول المعرفيَّة تقارن وتوازن بالتَّداوليَّة، بلا رفض ولا ردع – وبالطبع هذا الأمر ينطبق على التَّداوليَّة نفسها أيضاً – حتَّى كأنَّ التَّداوليَّة "فايروس" يدخل إلي أيّ حقل منها، وينتشر فيه، من غير أن يكون ثمَّة جهاز مناعيّ لهذا الحقل أو ذلك، يدافع عنه، ويعمل على طرده خارجاً. وكأنَّها متسلِّطة عليه، وهو عاجز ينظر، فينقاد إليها، لا يحرّك ساكناً، أو كأنَّه ميّتٌ يترقَّب منها أن تبثَّ فيه روحاً من حياة؟، وهل هي كذلك؟!، ولماذا تسوّغ الحقول المعرفيَّة لها ذلك؟، لماذا تمدّها بروافد ومنابع؛ لتكون التَّداوليَّة بذلك رحيقاً مختوماً مختلفاً ألوانه، فيه من كلّ شيء بطرف؟. مَن يحتاج/يفتقر إلى مَن، التَّداوليَّة إلى الحقول المعرفيَّة، أم الأخيرة إلى الأولى؟.

قد يُقال إنَّ أيّ حقل من حقول المعرفة له موضوع خاصّ يرشحّه للظهور. أقول فما موضوع التَّداوليَّة إذن؟، ولماذا تقارن هذه المعارف بها، فتكون داخلة/خارجة عنها، وهي لا علاقة لها بها موضوعاً؟. أقول لعلَّ الأمر يتعلَّق بجهة الاشتراك المعرفيّ، وهو الإنسان نفسه، لغةً تمثّله، وموضوعاً تأوّله. وهو ما يرشحّها للمقاربة بها، وكشف صلتها بها، كما سنأتي عليه لاحقاً.

(٢٦) التَّداوليَّة عند العلماء العرب: ١٦.

(٢٧) المصدر نفسه: ١٦.

(٢٨) المصدر نفسه: ١٦.

(٢٩) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١١.

(٣٠) المصدر نفسه: ١١. وينظر: الأسس الإبستمولوجية والتَّداوليَّة؛ إدريس مقبول: ٢٦٣.

(٣١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر: ١١، والبراجماتيَّة اللُّغويَّة؛ سِتيفِن ليفنسُون: ٣٠، و٥٩.

(٣٢) ينظر: البراجماتية اللغويَّة؛ سِتيفِن ليفنسُون: ٦٠.

(٣٣) المضمر؛ أوريكيوني: ٢٥.

(٣٤) القاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٢٨. و٥٣٥.

(٣٥) اللسانيات؛ جين إتشسن: ٢١٢.

(٣٦) التَّداوليَّة؛ جورج يول: ٢٣.

يُحكى أنَّ الفيلسوف اللسانيّ "يهوشوا بار. هيليل" "Yegoshua Bae Hillel" هو مَن "وضع مصطلح "سلة المهملات"... في مقاله الذي نشره عام ١٩٧١م. شكا "يوشوا" من التَّوجّه الذي ساد بين اللسانيين آنذاك في محاولة تفسير عدة ظواهر في ضوء حقول اللسانيات الصّرف، وليس في ضوء الحقل الجديد (التَّداوليّة)، وهو الأكثر ملائمة في التعامل مع هذه الظواهر. كما حذر "يوشوا" زملاءه اللسانيين بالقول: "احذروا من زج الفتات الذي تجدونه في سلة المهملات التَّداوليّة في نظريتكم النَّحويَّة – الدَّلاليّة المفضلة"...". مسرد التَّداوليَّة؛ مجيد الماشطة: ٤٥.

(٣٧) مسرد التَّداوليَّة؛ مجيد الماشطة: ٤٥.

(٣٨) المضمر؛ أوريكيوني: ٢٥.

(٣٩) المقاربة التَّداوليَّة؛ فارنسواز أرمينكو: ١٠.

(٤٠) القاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٢٨.

(٤١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٥. مبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٩، واللِّسانيَّات؛ جين إتشسن: ٢١٢، والتداولية والسيميائية. أ. ج. كريماص. وإ. لندوفسكي: ٣٠٢.

(٤٢) المقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٧. وينظر: المصدر نفسه: ٣٤.

(٤٣) ينظر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ١٢٣، و٦٨٠.

(٤٤) ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٥٣٧.

(٤٥) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤٧، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٦٦.

(*) يعترض "فرانك بالمر" [في علم الدلالة: ٩– ١٠] على وصف العلميَّة في دراسة اللُّغة، لما فيها من نظر، يقول: "قد ثبت بالبراهين أنَّ بعض النَّظريَّات التي تدَّعي العلميَّة بحماس هي في غاية القُصور. والواقع، فَإنَّ ما نعنيه بكلمة "علميّ" أو تجريبيّ في دراسة اللُّغة موضوع يستدعي بعض النقاش". ولهذا يقول "روي هاريس": "ليس تاريخ علم اللُّغة الحديث تاريخ اكتشافات جديدة عن لغاتٍ لم تكن معروفة في العالم من قبل، بل هو تاريخ آراء متصارعة بصدد الطَّريقة التي علينا اعتمادها في تحليل اللُّغة. وهو في هذا لا يجمعه بتاريخ الجغرافيا أو الفسيولوجيا أو أيّ من العلوم الطبيعيّة إلا أقلّ القليل". سوسير وفتجنشتين؛ روي هاريس: ٢٥.

وعلى مثلهما موافقةً يجري تنبيه قول محمود السعران، أيضاً: "هذه الدِّراسة الحديثة للغة "علم" وإن خالفت، كثيراً أو قليلاً، العلوم الطبيعيَّة مثلاً. فمادّة اللُّغة – لا تخضع لما تخضع له تلك العلوم من التَّجربة المعمليَّة – وإن استُعِينَ في درس أصوات اللُّغة ببعض الآلات والأدوات و"القوانين اللُّغويَّة" ليس لها ما للقوانين في العلوم الطبيعيَّة مثلاً من حتميَّة وجبريَّة... إنَّ أغلب ما يطلق عليه اللُّغويُّون "قوانين" لغويَّة ليس في جوهره إلا خلاصات مركَّزة تصف ما كان أو ما هو كائن في جانب من الجوانب، ولا يتضمَّن مقدَّماً الحكم على نفس الظَّاهرة لو توفَّرت فيها نفس الشّروط مستقبلاً...". علم اللُّغة: ١٢.

أقولُ كيفَ بالتَّداوليَّة إذن، وهي تقوم على نظريَّة من استعمال هذا المتغيِّر لمتغيِّر؟!، وكأنَّكَ فيها تصيد هواءً بشبكة من خيال، أيمكن حصر موضوع القصد الإنسانيّ، ناهيك بالتَّأويل، يكون تحتَ مقياس معيَّن دون عنوانه العام!؟. كيف ذلك، ومن أين الطَّريق إذن؟.

(٤٦) تقدَّم بنا بيان ذلك هامشاً في بدايات البحث من اللوح الأوّل.

(٤٧) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٧، والبراجماتية اللُّغويَّة؛ ستيفن ليفنسون: ٢٦، و٦٣، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك وشلر: ٢١، ومبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٩، والتَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان؛ فيليب بلانشيه: ٣٤، ومدخل إلى نظرية الفعل الكلامي؛ جوتس هنده لانج: ١٥، ومدخل إلى دراسة التَّداوليَّة؛ فرانشيسكو يوس رَاموس: ١٩، و٣٦، والمصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب؛ "دومينيك مانغونو": ١٠١– ١٠٢، والمدخل إلى علم اللغة؛ كارل ديتربونتنج: ٢٧٦، ونظريَّة الفعل الكلامي؛ هشام إبراهيم عبد الله خليفة: ١٥، والتَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ٥، والتَّداوليَّة؛ جواد ختام: ٢٢.

(٤٨) المقاربة التَّداوليَّة: ٦٠.

حقّاً أنَّه لمن المفارقة أن نقرأ في سيرة تاريخ التَّداوليَّة ونشأتها وتطورها، أنَّ أبحاث العلماء كـ(أوستن، وسيرل، وجرايس) الذين كانوا قد اشتغلوا جميعاً بدراسة الطريقة التي يتمّ بها توصيل معنى اللُّغة الإنسانيَّة الطبيعيَّة من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسِّرها، هذا الموضوع الذي هو من صميم عمل التَّداوليَّة – أن نقرأ ونرصد الباحثين يقولون: "إنَّ أحداً منهم لم يستعمل مصطلح التَّداوليَّة فيما كتب من أبحاث". [آفاق جديد في البحث اللُّغويّ المعاصر؛ محمود أحمد نحلة: ١٠. وينظر: مبادئ التداولية؛ جيوفري ليتش: ٨]. ولعلَّها إشارة إلى ما يمكن أن يشكّله البعد السيميولوجي الثالث المُسمَّى "تداوليَّة": في تأويل استعمال العلامات وعلاقاتها بالمستعملين.

(*) "البراكسيس": "هي طريقة أو ممارسة يتمُّ من خلالها إنتاج نظريَّة أودرس ما أو مهارة معينة أو إدراك، هذا المصطلح موجود ومتكرِّر في تاريخ الفلسفة... يقول كالفن سراغ: «إنَّ طريقة براكسيس هي أسلوب للتواصل مع العالم ومع الآخرين وهي صلة الوصل أو نقطة الانطلاق للربط بين

الفلسفة النظرية والتطبيقات العملية لها»" ينظر: المعجم الفلسفي؛ جميل صليبا: ١/ ٢٠٥. والشبكة العالميَّة للمعلومات، ويكيبيديا، الموسوعة الحُرّة: "براكسيس": https://ar.wikipedia.org/wiki.

(٤٩) المقاربة التَّداوليَّة: ١١.

(٥٠) المصدر نفسه: ١٤.

(٥١) المصدر نفسه: ١٤.

(٥٢) ينظر: المصدر نسفه: ١٤– ١٥.

(٥٣) المصدر نفسه: ٩٢.

(٥٤) المصدر نفسه: ٩٢. وينظر: في المصدر نفسه: ٨٨– ٨٩، القائمة المشجَّرة التي عدّتها الأستاذة الكريمة لأعلام التَّداوليَّة.

(٥٥) المقاربة التَّداوليَّة: ٦٠.

(٥٦) المصدر نفسه: ٩٣.

(٥٧) المصدر نفسه: ٩٣.

(٥٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٢– ١٣.

(٥٩) ينظر: المصدر نفسه: ١٣.

(*) لدينا إذن نظريتان لدراسة المعنى، وسنأتي عليه لاحقاً أيضاً. الأولى: تنظر إلى كون أنَّ المعنى متصل في النِّظام التَّلفُّظي، وبه القول: لا تداوليَّة، بل هي مدمجة تذوب في دلالة متطوّرة، ليس بوصفها علاقة الأدلّة بالواقع فحسب، بل بنحو التّلفُّظ التَّفاعليّ والنّشاط الإنسانيّ أيضاً. والثانية: أنَّ اللِّسانيّات شيء تختصّ بالقواعد المجرّدة ليس غير، وتقابلها التَّداوليَّة التي تدرس المعنى المنفصل الذي تركته اللِّسانيات، وهنا يتجلَّى البحث التَّداوليّ، وكأنَّه تصحيح لمسار الدّرس اللِّسانيّ. ولعلّ هذا هو ما أشار إليه "ليفنسون" يقول: "إنَّ القواعد (بمعنى واسع، بما في ذلك الفونولوجيا والنَّحو والدَّلالة) تُعنى بالعزو اللاسياقي للمعنى بأشكال لغويَّة، ولكن البراجماتية تُعنى بالتَّفسير الأوسع لهذه الأشكال في السِّياق". البراجماتية اللُّغويَّة: ٣٣. وينظر: المصدر نفسه: ٣٧– ٤٠، والمصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب؛ دومينيك مانغونو: ١٠١، والمصطلحات المفاتيح في اللسانيات؛ ماري نوال غاري: ٨٢.

(٦٠) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة: ١٣.

(٦١) ينظر: المصدر نفسه: ١٣.

(٦٢) البراجماتيَّة اللُّغويَّة: ٣٠. وينظر: المصدر نفسه: ٢٥– ٢٩.

(٦٣) المصدر نفسه: ٣٠.

(٦٤) المصدر نفسه: ٣١. وينظر: المصدر نفسه: ٥٩.

(٦٥) المصدر نفسه: ٦٠.

(٦٦) المصدر نفسه: ٦٠.

(٦٧) المصدر نفسه: ٣٠. وينظر: المصدر نفسه: ٣٢.

(٦٨) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠.

أقول: تتقارب هذه الأسباب بما قدّمه "جاك موشلر" في "القاموس الموسوعي للتداولية" من نقد إلى اللِّسانيين واندهاشهم أو استغرابهم بالمجال التَّداوليّ وبأي شيء يُعْنَى. ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٢١.

(٦٩) ينظر: المصدر نفسه: ٦٠.

(٧٠) المصدر نفسه: ٥٩.

(*) غالباً ما يُشار لهذا التَّعريف بلا نسبة إلى قائل حتَّى شاع أمره منسوباً إلى مجهول، مع أنَّ "فرانسواز أرمينكو" تورده إلى أصوله الانتسابيَّة، تقول: "نجد تعريفاً لسانيّاً عند آن ماري دبير "Anne–Mare Diller"، وفرانسوا ريكاناتي "Francois Recanati" كالتالي: التَّداوليَّة هي دراسة استعمال اللُّغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية". المقاربة التَّداوليَّة: ٨.

(٧١) القاموس الموسوعي للتداولية: ٢١.

(٧٢) المصدر نفسه: ٢١.

(٧٣) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ٤٩.

(٧٤) ينظر: الاتجاه الوظيفي وتحليل اللغة؛ يحيى أحمد، بضمن الألسنيَّة: ٧١.

(٧٥) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزالد ديكرو: ٦٨٨.
(٧٦) الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب؛ علي عزت: ٤٩. وينظر: مصدره.
(٧٧) ينظر: علم النص: ١١٦، والنَّص والسياق: ٢٥٧.
(٧٨) النص والسياق: ٢٢٧.
(٧٩) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة: ٩.
(٨٠) ينظر: مبادئ التَّداوليَّة: ١٤، و ٢٤– ٢٥.
(٨١) المصدر نفسه: ١٠.
(٨٢) ينظر: المعنى في لغة الحوار: ١٨.
(٨٣) الذاتية في اللغة: ٦٣– ٦٤.
(٨٤) المصدر نفسه: ٧٦.
(٨٥) تحليل الخطاب؛ بروان، ويول: ٤٧.
(٨٦) ينظر: المصدر نفسه: ٤٧– ٤٩. وينظر: مبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٢٦.
(٨٧) القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة: ٢٢.
(٨٨) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣.
(٨٩) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤.
(٩٠) البراجماتية اللُّغويَّة: ٣٤.
(٩١) ينظر: التداولية اليوم: ٢٧، و٥١.
(٩٢) المصدر نفسه: ٤٩– ٥٠.
(٩٣) تداولية الخطاب؛ آن ربول، جاك موشلر: ٧٠.
(٩٤) ينظر: البراجماتية اللغويَّة: ٥٤، و٥٩– ٦٠.
(٩٥) القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة: ٥٣٧.
(٩٦) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٧.
(٩٧) التداولية اليوم: ٤٩– ٥٠.
(٩٨) ينظر: علم الدلالة؛ بالمر: ٣، و١٠، و٥٨، واللغة والمعنى والسياق؛ جون لاينز: ٢٤٠، ودور الكلمة في اللغة؛ ستيفن أولمان: ٦٨، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ١٦١، والتداوليَّة؛ جورج يول: ٢٣، وعلم اللغة؛ محمود السعران: ٢٦٢، و٢٩١.
(٩٩) ينظر: علم اللغة العام؛ دي سوسور: ٣١، و٣٧– ٣٨، وعلم الدلالة؛ بالمر: ١١.
(١٠٠) ينظر: كشف المراد الجِدِّيّ؛ عماد جبار كاظم: ١٥.
(١٠١) المقاربة التَّداوليَّة: ١٠.
(١٠٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللُّغويّ المعاصر؛ محمود أحمد نحلة: ١٥، ومبادي التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٩.
(١٠٣) قاموس التَّداوليَّة؛ جوليان لونجي: ٢٠٩، و٢١١– ٢١٥.
(١٠٤) ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٣٥، و٨٣، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٤٧، والتَّداوليَّة المدمجة؛ هرمان باريه، بضمن لسانيات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٢٥.
(١٠٥) ينظر: معجم أوكسفورد للتداوليَّة؛ يان هوانغ: ٥١٦.
(١٠٦) ينظر: تداولية الخطاب؛ آن ريبول: ٦١، ومعجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ١٨٢، و٤٤٣، وتحليل الخطاب؛ بروان ويول: ي. و١، ونظرية الصلة أو المناسبة؛ دان سبيربر: ٢٠، والمعنى في لغة الحوار؛ جيني توماس: ٤٠، واللّسانيات؛ جين إتشسن: ٢١٢، والمدخل إلى علم اللغة؛ كارل ديتربونتنج: ٢٧٦، والقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ٦٤٦، والتَّداوليَّة وتحليل الخطاب؛ مارغاريدا باسولز يويغ، بضمن مجلة فصول، "تحليل الخطاب": ٢٢٩، وفي التَّداوليَّة المعاصرة والتواصل؛ بحوث مترجمة: محمد نظيف: ٧، والتَّلفُظ؛ أوزفالد ديكرو، بضمن لسانيات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٣، ومسرد التَّداوليَّة؛ مجيد الماشطة: ١٩.
(١٠٧) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة؛ فارنسواز أرمينكو: ١٢، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٢١١.
(١٠٨) ينظر: المدخل إلى علم اللغة؛ كارل ديتربونتنج: ٢٨٦، والنص والسياق؛ فان دايك: ٢٢٧.

(١٠٩) ينظر: النص والخطاب والإجراء؛ دي بوجراند: ٩٧، و١٠٢، و٤٢١، وأسس لسانيات النص؛ مارغوت هاينمان: ١٣٠، وعلم النص؛ فان دايك: ١١٤، والتَّحليل اللغوي للنص؛ كلاوس برينكر: ٣٤، ومدخل إلى علم النَّصّ؛ زتسيسلاف واورزنياك: ٨٩، وتفسير النص؛ ديتريش بُوسّه: ٣١، وإسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة، بحوث مترجمة: ٢٦٥، ولسانيات النص؛ كيرستن آدمتسيك: ٢٢٥، والقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ١٢٣.

(١١٠) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص؛ فولفجانج هاينه مان: ٤٨، و٩٣، وتداولية الخطاب؛ آن ريبول: ٦٥، وتحليل الخطاب؛ براون: ي. و٦، والقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ٥٣٣.

(١١١) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة للأدب؛ الفي بولان: ٢٠، والتَّداوليَّة والسرد؛ جون .ك آدمز: ٧، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٤٥٥.

(١١٢) ينظر: نظرية الصلة أو المناسبة؛ دان سبيربر: ١٠٧، و٢٩٥، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٢٧، و٤٣، و٥١، و٦٤، و٧١، ٧٤، و٨٦، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ١٣٣، ومدخل إلى علم لغة النص؛ فولفجانج هاينه مان: ١٥، ومدخل إلى دراسة التَّداوليَّة؛ فرانشيسكو يوس رَّاموس: ٤١، و٦٢، ومدخل إلى علم اللغة الإدراكي؛ مونيكا شفارتس: ٤٧، و١٤٣، وعلم اللغة الإدراكي؛ سعيد حسن بحيري: ٤٧، و١٢٩، ولماذا تحتاج التَّداوليَّة الفلسفية إلى تداولية عيادية؛ إنس أدُرنتِي، بضمن تساؤلات التَّداوليَّة: ٦٣، والتَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ٣٦، والنظرية البراجماتية اللسانية؛ محمود عكاشة: ٣٦، والتَّداوليَّة البعد الثالث في سيميوطيقا موريس؛ عيد بلبع: ٤٠، وفي اللسانيات العامة؛ مصطفى غلفان: ١١.

(١١٣) المقاربة التَّداوليَّة: ٩٣.

(١١٤) التَّداوليَّة: ١٣٧.

(١١٥) المصدر نفسه: ١٣٧.

(١١٦) شظايا لسانية؛ مجيد الماشطة: ٨٧. عنه.

(١١٧) المصدر نفسه: ٨٩.

(١١٨) مدخل إلى دراسة التَّداوليَّة: ٣٥. وينظر: مبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري لتيش: ٥.

(١١٩) مدخل إلى دراسة التَّداوليَّة:: ٣٠.

(١٢٠) وصف رمزي للرواية التي كتبتها الكاتبة الإنجليزية ماري شيلي (١٧٩٧–١٨٥١) تلك الرواية التي تروي قصة "فيكتور فرانكنشتاين"، وهو عالم شاب يخلق مخلوقاً غريباً عاقلاً من أشلاء وأجزاء بشريَّة مقطعة في تجربة علميَّة غير تقليدية. ينظر: الشبكة العالمية للمعلومات "entrant"، ويكيبيديا، الموسوعة الحُرّة: "فرانكنشتاين": https://ar.wikipedia.org/wiki.

تقول "ماري شيلي" [في الفصل الخامس من الرواية نفسها: "فرانكنشتاين": ١٩– ٢٠]: "لدي أسئلة عن الجسم البشري وآلية عمله، ما الذي يبعث الحياة في كائن ما؟ كان هذا السؤال صعباً، لكنّني ابتغيت بشدّة أن أعرف الإجابة، كلّ الأدوات اللازمة للوصول إلى مثل هذا الاكتشاف العظيم كانت متاحةً هنا في معملي،... ولكي أكتشف أسرار الحياة، كان لا بدّ أن أتعلَّم المزيدَ عن الموت، قطعاً هي فكرة كئيبة، لكنَّها بدت لي منطقيَّة في ذلك الحين، فبدأت أدرس الجسم البشري وأرى ماذا يحدث له بعد أن تفارقه الحياة،... قلتُ لنفسي: كلا، ما الذي يحتاجه العالم؟ لا يحتاج العالم إلى حيوان آخر، كلا سأقدِّم للعلم أعظم الخدمات إذا صنعت إنساناً،... كرست كلّ وقتي لعملي،... كانت الزجاجات المليئة بالسوائل تنتشر في كلّ الأرجاء، فكان منظرها سيخيف الزائر. وكانت مقلات الأعين، والآذان، وأعضاء أخرى من جسم الإنسان – كثير منها أخذته من المستشفى المحلّي – ملقاة في كلّ مكان. استخدمت أي أعضاء طالتها يدي، فكان أهمّ شيء عندي هو صنع هذه الإنسان، بصرف النظر عن أيّ شيء آخر".

(١٢١) من فلاسفة اليونان، ويُسمَّى أيضاً الفيلسوف الغامض والبكاء. ينظر: الشبكة العالمية للمعلومات، ويكيبيديا، الموسوعة الحُرة: "هرقليطس": https://ar.wikipedia.org/wiki.

(١٢٢) قصة الحضارة؛ ول ديورانت: ٦/ ٢٦٥.

(١٢٣) من كبار فلاسفة اليونان. ينظر: قصة الحضارة؛ ول ديورانت: ٧/ ٤٦١، و٤٦٣، والشبكة العالمية للمعلومات، ويكيبيديا، الموسوعة الحُرة: "ديـــــــــوجين"، أو "ديـــــــــوجينيس": https://ar.wikipedia.org/wiki.

(١٢٤) "كراتيلوس": هو أحد حوارات أفلاطون، إذ يقابل سقراط في الحوار رجلين هما: كراتيلوس وهيرموجينيس، ويسألانه إذا كانت الأسماء "تقليديَّة"، أو "طبيعيَّة"، أي: ما إذا كانت اللُّغة هي نظام من العلامات العشوائيَّة، أو ما إذا كانت الكلمات لها علاقة متأصِّلة بالأشياء ذات الدَّلالة.

وبحسب الدراسين كان لهذا الحوار أوّل تأثير فكري على أفلاطون. يقول أرسطو: إنَّ كراتيلوس أثر بأفلاطون بأن قدَّم له تعاليم هيراقليطس. جاء في المحاورة: "أودّ أن أعلمَك يا سقراط، بأنَّ صديقنا كراتيليوس كان يناقش موضوع الأسماء، وهو يقول إنَّها طبيعيَّة وليست اصطلاحيَّة، لا يشذ عن ذلك أيّ قدر من النّطق الإنسانيّ الذي اتّفق الناس على استخدامه، وإنَّه يوجد فيها حقيقة أو صواب،..." أفلاطون، محاورة كراتيليوس: ٩١، وينظر: سوسير وفتجنشتين؛ روي هاريس: ٤٣. والشبكة العالميَّة للمعلومات، ويكبيديا، الموسوعة الحُرة: "كراتيليوس":
./https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٢٥) ينظر: في اللسانيات العامة؛ مصطفى غلفان: ١١.

(١٢٦) ينظر: علم النَّصّ؛ فان دايك: ١١، و١٤، والتَّحليل اللغوي للنص؛ كلاوس برينكر: ٢٨، ومدخل إلى علم النص؛ زتسيسلاف واورزنياك: ٥٣، و٦٠، ولسانيات النص؛ كيرستين آدمتسيك: ٦٨، و٧٥، والقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ وزاولد ديكرو: ٥٣٣، والنَّصّ الواصف؛ عماد جبار كاظم: ٣٧.

(١٢٧) ينظر: تحليل الخطاب؛ ماريان يورغنسن: ١٣، ومعجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ١٨٠.

(١٢٨) ينظر: دور الكلمة في اللُّغة؛ ستيفن أولمان: ٥٥، واللغة والمعنى والسياق؛ جون لاينز: ٤١، وعلم الدلالة؛ بالمر: ٤١، واللِّسانيات؛ جين إتشسن: ١٢٣، ومقدّمة لدراسة التراث المعجمي العربي؛ حلمي خليل: ٣٤.

(*) يقول "جون ليونز" في طرح سؤال عن المعنى: "ما المعنى؟ ناقش الفلاسفة هذا السؤال خاصة فيما يتعلّق باللُّغة لفترة تزيد على ألفي عام، ولم يقدّم واحد منهم إجابة مرضية عليه،...". اللغة وعلم اللغة: ١٨٤.

(١٢٩) ينظر: اللُّغة علم اللُّغة؛ جون ليونز: ١٨٥، واللُّغة والمعنى والسِّياق؛ جون لاينز: ١٦، ٢١٥، و٢٤٢، وعلم الدَّلالة؛ بالمر: ٥٧، ودور الكلمة في اللُّغة؛ ستيفن أولمان: ٦٨، و٧٥، وعلم اللغة؛ محمود السعران: ٢٦١.

(١٣٠) "الهيُولي"، أو "الهيولا"، لهيُولى أو الهيولا (Hyle) كلمة يونانية تعنى الأصل أو المادة، وهى واحدة في جميع الأشياء في الجماد، والنبات، والحيوان. وإنّما تتباين الكائنات في الصور فقط. فالهيولى في ذاته لا صورة له ولا صفة. لذلك يحتاج إلى الصورة لكي تجعله يوصف ويظهر وتتحدّد معالمه. ينظر: المعجم الفلسفي؛ جميل صليبا: ٢/ ٥٣٦. والشبكة العالمية للمعلومات، ويكيبيديا الموسوعة الحُرّة: "الهيولي":
.https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٣١) يدرس البالوغرافيا بضمن الكوديكولوجيا (بالإنجليزية: Codicology)، والأخير، هو: علم الكتب المخطوطة، أو كوديكولوجيا "هو دراسة الكتب المخطوطة (المجلدات المخاطة، أو "الكودكسات" – جمع كودكس Codex) كأشياء مادية، وخاصة المخطوطات المكتوبة على الرق، ومنها المأثورة أو الأسفار القديمة. وغالباً ما يشار إلى هذا العلم باسم "علم آثار الكتاب" (Archaeology of Book)، حيث يهتم هذا العلم بالمواد والطرق المستخدمة في صناعة الكتب وتجليدها. أمَّا العلم الذي يهتم بدراسة المخطوطات كمحتوى فيُعرف بعلم الباليوغرافيا (علم الكتابات القديمة) وكذلك علم الفيلولوجيا (فقه اللغة)". ينظر: الشبكة العالمية للمعلومات، ويكيبيديا الموسوعة الحُرّة: "الباليوغرافيا":
.https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٣٢) "طائر الفينيق"، أو الفينيقي، أو فينكس، حسبما يُسمَّى في الميثولوجيا الإغريقية، كذلك يُعرف عند الفرس باسم "القنس"، أو "القنوس"؛ هو طائر عجيب يجدّد نفسه ذاتيًا بشكل متكرر. إذ يولد من رماد احتراق جسده. ينظر: الشبكة العالمية للمعلومات، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة: "طائر الفينيق": .https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٣٣) معجم أوكسفورد للتداولية؛ مقدّمة المترجم؛ هشام إبراهيم عبد الله خليفة: ١٠.

(١٣٤) مدخل إلى دراسة التَّداوليَّة: ١٩.

(١٣٥) في رمزيَّة من حكاية أنَّ الناس تجمَّعوا بعد الطوفان، ثُمّ بلّ انتشارُهم لتعمير الأرض. إذ لم يكن من صالح الناس أن يلجؤوا إلى طرقهم وكبريائهم في تحدّي الربّ. فبَلبَلَ الله ألسنتهم، فكفّوا عن العمل وتفرّقوا فعمَّروا الأرضَ وصارت الأرض، وصارت البقعة التي أسمها بابل من الفعل «بلبل» العربيّ، والعبري القريب منه «بلل» وبسبب هذا التشتت والطقس والتربة واختلاف طرق المعيشة نشأت أجناس الناس وتكوّنت لغاتهم المختلفة. ينظر: الشبكة العالميَّة للمعلومات، ويكيبيديا، الموسوعة الحُرّة: "برج بابل":
.https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٣٦) ينظر: مقال عن المنهج: ٢١٤. وينظر: تأملات في الفلسفة الأولى؛ ديكارت: ٩٩، و١٠١.

(١٣٧) مقال عن المنهج: ١٦١– ١٦٢.

(١٣٨) ينظر: الخصائص: ١/ ٤١– ٤٨.

(١٣٩) المصدر نفسه: ١/ ٤٨.

(١٤٠) ينظر: الإيضاح في علل النحو؛ الزجاجي: ٦٥- ٦٦.

(١٤١) ينظر: قرائن التعليق؛ عماد جبار كاظم: ١/ ٧٠- ٧١.

(١٤٢) سورة هود؛ من الآية: ٤١. مع العلم أنَّي ضمّنتُ ما تقدَّم أغلبه بالنَّصّ القرآنيّ، وهو لا يخفى.

(١٤٣) ينظر: القاموس الموسوعي للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٥٣٦، وقاموس التَّداوليَّة؛ جوليان لوجني: ٢٠٦.

(١٤٤) ينظر: القاموس الموسوعي للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٥٣٥.

(١٤٥) في مقارنة لـ"جيوفري ليتش"، بين الدلالة والتَّداوليَّة ينتهي فيها إلى قول: "إنَّ قواعد النَّحو هي بالأساس قائمة على المواضعة والاتفاق، أمَّا مبادئ التَّداوليَّة فهي بالأساس غير قائمة على التَّواضع، أي: أنَّها معلّلة بالنَّظر إلى أغراض التَّحاور". مبادي التَّداوليَّة: ١٤.

(١٤٦) نظَّمَ "جاك موشلر" معايير، أو خصائص للجهاز العلميّ، عقد عليها توصيف ما ينبغي أن يكون عليه كلّ علم قائم على إبستمولوجيَّة معيّنة، أو ما تقوم على نظريَّة لتأويل الأقوال، أو بالأحرى نظريَّة تداوليَّة حتَّى تضطلع بدور ما في العلوم المعرفيَّة بالتَّعاون مع اللِّسانيّات وعلم النَّفس المعرفيّ والتَّواصليَّة. وانتهى منها بالنظر إلى اشتراط قول: إذا كان كلّ من التَّداوليَّة واللِّسانيّات يستجيب لها، فلا إشكاليَّة من اشتغالهما معاً، ولكن مع الاعتراف بأنَّ إنشاء نظريَّة تستوفي كُلّ هذه المجالات المختلفة من هذه الخصائص والشروط ليس أمراً هيّناً. ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٥٤٧، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٦٦.

(١٤٧) ينظر: القاموس الموسوعي للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٢١، ومعجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ٤٤٢، والقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ١١١، و٦٧٧، و٦٨٨، والمقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ١١، والبراجماتيَّة اللُّغويَّة؛ ستيفن ك. ليفنسون: ٣٠، والتَّداوليَّة؛ جورج يول: ١٩، و١٣٧، والتَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان؛ فيليب بلانشيه: ١٨، واللِّسانيّات؛ جين إتشسن: ٢١٢، وعلم النَّص؛ فان دايك: ١١٤، والنَّص والسِّياق؛ فان دايك: ٢٥٥، ومبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٢٦، وتداولية الخطاب؛ آن ريبول: ٦٥، و٧٠، وتحليل الخطاب؛ بروان، ويول، المقدّمة: ي، و٣٥، والمعنى في لغة الحوار؛ جيني توماس: ١٧، و٤٠، ومدخل إلى علم لغة النص؛ فولفجانج هاينه مان: ١٥، ومدخل إلى علم النص؛ زتسيسلاف واورزنياك: ٨٦، ومدخل إلى دراسة التَّداوليَّة؛ فرانشيسكو يورس رَاموس: ٣٠، و٣٣، واللُّغة وعلم اللغة؛ جون ليونز: ٢٣٦، واتجاهات البحث اللساني؛ ميلكا إفيتش: ٣٢٥، والمصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب؛ "دومينيك مانغونو": ١٠٠، والمصطلحات المفاتيح في اللسانيات؛ ماري نوال: ٨٢، ومناهج التَّجديد؛ طه عبد الرحمن: ٢٤٤، وفي أصول الحوار؛ طه عبد الرحمن: ٢٨، وآفاق جديد في البحث اللُّغويّ المعاصر؛ محمود أحمد نحلة: ١١، وبلاغة الخطاب وعلم النّص؛ صلاح فضل: ٢٥، وشظايا لسانيَّة؛ مجيد الماشطة: ٨٧، ومسرد التَّداوليَّة؛ مجيد الماشطة: ٢٩، وتساؤلات التَّداوليَّة وتحليل الخطاب؛ "بحوث مترجمة": ٩، و٥٨، والمدارس اللِّسانيَّة المعاصرة؛ نعمان بوقرة: ١٦٦، ولسانيات الخطاب؛ نعمان بوقرة: ٧١، واللسانيّات؛ نعمان بوقرة: ١٦١، والمصطلحات الأساسيَّة؛ نعمان بوقرة: ٩٣، و٩٧، والمصطلحات الأدبية الحديثة؛ محمد عناني: ٧٦، ومقدمة في علمي التَّخاطب والدلالة؛ محمد يونس علي: ١٣، ومدخل إلى اللِّسانيّات؛ محمد يونس علي: ١٨، والأسس الأبستمولوجية والتَّداوليَّة؛ إدريس مقبول: ٢٦٣- ٢٦٥، واستراتيجيات الخطاب؛ عبد الهادي بن ظفر الشهري: ٢١، والتَّداوليَّة؛ جواد ختام: ١٣، والنظرية البراجماتيَّة اللسانية؛ محمود عكاشة: ٩؛ وفي البراجماتية، الأفعال الإنجازية؛ علي محمود حجي الصراف: ٢، ومنزلة معاني الكلام؛ معاذ بن سلمان الدخيل: ١٩، ومن أفعال اللُّغة، تبسيط التَّداوليَّة؛ بهاء الدين محمد مزيد: ١٨، والاتجاه التَّداولي والوظيفي في الدرس اللغوي؛ نادية رمضان النجار: ٩، والتَّداوليَّة في البحث اللغوي والنقدي، مجموعة بحوث؛ بشرى البستاني: ٢٩، والتَّداوليات، علم استعمال اللغة، مجموعة بحوث؛ حافظ إسماعيل علوي: ٣.

(١٤٨) البراجماتية اللُّغويَّة: ٢٩.

تقول "أرمينكو": "التَّداوليَّة": "هي علم يعالج العلامات بمؤولاتها: وهذا هو التَّعريف البدائي للتداوليَّة. ويوضح موريس، أنَّه يحكم أنّ جُلّ العلامات تمتلك أعضاء حية كمؤولات، يمكن تمييز التداولية بشكل جيد، بقولنا: إنَّها تعالج مظاهر حياتية للسيميوزيس، ويقصد موريس هنا، وبطريقة شاملة مجموع المظاهر السيكولوجية والبيولوجية، التي ترتبط بعمل العلامات". [المقاربة التَّداوليَّة: ٢٩].

كما أنَّها تشير إلى أن "موريس" كان يميّز نوعين من التَّداوليَّة، وهما التَّداوليَّة المحضة، والتَّداوليَّة الوصفيَّة، إذ تحيل "المحضة" على انجاز اللُّغة أو الكلام وعلى البعد التَّداوليّ للسيميوزيس. أمَّا عن المفاهيم التَّداوليَّة، فهي "تلك التي نجدها للمؤوِّل والمؤوَّل والعرف (المنطبق على العلامات)، على اعتبار أنَّها (وظائف علامات)، للتثبيت والفهم، ونجد تكويناً تداوليّاً لمفاهيم مهمّة أُخرى للسيميائيَّة، كعلامة ولغة وحقيقة ومعرفة، وتفترض التَّداوليَّة بذلك وجود النَّحو والدَّلالة، ويجب أن نعرف أنَّها تُمثِّل علاقة العلامات فيما بينها وبين الأشياء إذا شئنا أن نقف على علاقة العلامات بالمؤوِّلات". المقاربة التَّداوليَّة: ٤١. بتصرّف.

(١٤٩) اللسانيات: ٢١٢. والتّرقيم الداخلي [١- ٤] منِّي، بياناً، وليس في النَّصّ المقتبس.

(١٥٠) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٨، و٢٩، ومبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٩، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٢٩، والبراجماتية اللُّغويَّة؛ ستيفن ليفنسُون: ٢٩، ومدخل إلى دراسة التَّداوليَّة؛ فرانشيسكو يوس رَاموس: ٢٩، والتَّداوليَّة البعد الثالث لموريس؛ عيد بلبع: ٣٦، والتداولية المدمجة هارمان باريه؛ بضمن لسانيات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٢٥، وشظايا لسانية؛ مجيد الماشطة: ٨٩، والتَّداوليَّة؛ جواد ختام: ٢٥.

(١٥١) شظايا لسانية؛ مجيد الماشطة: ٨٨. عنه.

(١٥٢) النص والسياق: ٢٥٥. ينظر: النَّص والسياق؛ فان دايك: ٢٢٧.

(١٥٣) علم لغة النص: ١١٦.

(١٥٤) المعنى في لغة الحوار: ١٧.

(١٥٥) مبادئ التَّداوليَّة: ٢٦، وينظر: المصدر نفسه: ١٥.

(١٥٦) المصدر نفسه: ٥. وينظر: المصدر نفسه: ٢١، و٢٢.

(١٥٧) شظايا لسانيَّة؛ مجيد الماشطة: ٨٧.

(١٥٨) اللغة وعلم اللغة: ٢٣٦. وينظر: المصدر نفسه: ٢٢٥.

(١٥٩) التَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان: ١٨– ١٩.

(١٦٠) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: ٦٨٨.

(١٦١) المصدر نفسه: ١٢٢.

(١٦٢) المصدر نفسه: ١٢٣.

(١٦٣) المصدر نفسه: ٦٧٧.

(١٦٤) ينظر: المصدر نفسه: ٦٨٨.

(١٦٥) البراجماتية اللُّغويَّة: ٢٥.

(١٦٦) ينظر: المصدر نفسه: ٣١.

(١٦٧) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢.

(١٦٨) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢.

(١٦٩) ينظر: المصدر نفسه: ٣٤.

(١٧٠) ينظر: المصدر نفسه: ٣٧، و٤١، و٤٧.

(١٧١) ينظر: المصدر نفسه: ٤٧.

(١٧٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥١.

(١٧٣) ينظر: المعنى في لغة الحوار: ١٨.

(١٧٤) مدخل إلى دراسة التَّداوليَّة: ٣٠. وينظر: ومدخل إلى علم لغة النص؛ فولفجانج هاينه مان: ١٦.

(١٧٥) ينظر: مدخل إلى دراسة التَّداوليَّة: ٣١، ومبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٥.

(١٧٦) مبادئ التَّداوليَّة: ٥.

(١٧٧) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: ١٢٢.

(*) في محاولة "دي سوسور" لتمييز اللغة عن اللسان والكلام، يفترض، أنَّه لا حلّ يمكن أن يتعين في علم اللغة إلا باللغة وليس باللسان أو الكلام، والسبب إمكان قياس النظام، دون الاستعمال، يقول: "الرأي عندي أنَّ لجميع هذه الصعوبات حلّاً واحداً فقط، وهو أن نضع كلتا قدمينا منذ البداية، على أرض اللغة، ونستخدم اللغة مقياساً لجميع مظاهر اللسان، فاللُّغة وحدها – بين كثير من المظاهر الثنائية – يمكن أن تخضع – على ما يبدو – لتعريفٍ مستقلّ قائم بذاته، وتقدم في الوقت نفسه الركيزة التي ترضي العقل". علم اللغة العام: ٢٧.

(١٧٨) مدخل إلى دراسة التداوليَّة: ٣٦.

(١٧٩) سوسير وفتجنتشتين؛ روي هاريس: ٣٣.

(**) لا أريد أن أدلل على ذلك، وما في امتداد اللُّغة، أكثر ممّا ينبغي، ولكنّي أنقل ما أعربا عنه، "آن روبول وجاك موشلار"، من قول: أنَّ اللغة "تمكّن من التَّعبير عن كلّ شيء، وهي إلى حدّ ما شفافة من جهة ما تبلّغه الجمل من رسائل. وهي تكتفي بنفسها، إذ يقوم تأويل جملة ما على فكّ رموزها، أي على استعمال النِّظام التّرميزي الذي أنشأته اللُّغة التي استعملناها للتعبير عن تلك الجملة من أجل إعادة بناء الرسالة،...". التَّداوليَّة اليوم: ١٠.

ومنه أهمِّيَّة ما بيَّنه "ماريو باي" من خصائص اللُّغة، يقول: "إنَّ اللُّغة المتكلِّمة لتمتدّ إلى كلّ مجالات الحياة البشرية بدون استثناء أو تمييز. كلّ الناس تتفاهم أساساً عن طريق الأصوات الكلاميَّة، وهذا يعني أنَّ اللُّغة جامعة، بمعنى أنَّها توجّه وتصاحب كلّ نشاط إنسانيّ يشترك فيه اثنان أو أكثر. واللُّغة – لكونها نظاماً من النواقل ذات المعنى وتستلزم اثنين فأكثر (حتَّى عندما تتكلِّم إلى نفسك فأنت تجرّد من شخصك فرداً متكلِّماً وآخر سامعاً) تعتمد على الاصطلاح والاتفاق الجماعيّ السابق، بين أعضاء الجماعة اللُّغويَّة، على المعنى أو المعاني المعيَّنة التي تستدعيها أصوات خاصة..." أسس علم اللغة: ٤٠. وينظر: نظرية تشومسكي اللُّغويَّة؛ جون ليونز: ٣٠ – ٣١، ومداخل لنظرية اللُّغة؛ لويس هيلمسليف: ١٩.

وكذلك ما قدَّمه "تورمان فاركلوف" أيضاً يقول: "اللُّغة جزء من الحياة الاجتماعية لا يمكن اختزاله، وبينه وبين عناصر الحياة الاجتماعية الأخرى علاقة منطقيَّة جدليَّة تجعل من الضروري أن يأخذ البحث والتحليل الاجتماعي اللغة دائماً بعين الاعتبار... يعني ذلك أنَّ التركيز على اللُّغة، باستخدام شكل من أشكال تحليل الخطاب، هو إحدى الطُّرق المُنتِجة في البحث الاجتماعي. ليس ذلك اختزالَ الحياة الاجتماعية باللُّغة، ولا اعتبار كلّ شيء خطاباً، ليس الأمر كذلك، فما تحليل الخطاب،... سوى إحدى استراتيجيّات عديدة في التَّحليل..". تحليل الخطاب: ١٩– ٢٠.

(١٨٠) ينظر: أسس علم اللُّغة؛ ماريوي باي: ٢٩، و٣٥، و٤٣، واللُّغة وعلم اللُّغة؛ جون ليونز: ١، و١٢، و٤٩، واللغة والمعنى والسياق؛ جون لاينز: ٨، ونظرية تشومسكي اللُّغويَّة؛ جون ليونز: ٣١، و٣٩، وعلم الدلالة؛ بالمر: ٨، و١٠، واللسانيات؛ جين أتْشِسُن: ٣١، و٤٧، وعلم اللُّغة؛ محمود السعران: ٤٩، ونظرية علم الدلالة؛ راث كيمبسون: ٣، والألسنية؛ ميشال زكريا: ١٩٣.

(١٨١) ينظر: علم اللغة العام؛ دي سوسور: ٢٦، ٢٩، و٣٢، و٣٧، ٤١، و٨٤، و١٢٢، ١٣١، ١٤٢، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ١٥٨، واللغة والفعل الكلامي والاتصال؛ زيبيله كريمر: ٣٥، وسوسير وفتجنتشتين؛ روي هاريس: ٨٣، ومناهج البحث في اللغة؛ تمام حسان: ٣٨.

(١٨٢) ينظر: تحقيقات فلسفيَّة؛ لدفيك فِتغنشتاين: ١١٨– ١٢٤، و١٤٠، و٢٤٤، و٣٥٨، وسوسير وفتجنشتين؛ روي هاريس: ٢٨، و٢٩، و٣٣، و٤٣، و٥٧، ٦٢، و٦٤، و٦٩، وفتجْنشين؛ هانس سلوجا: ٩٩.

(١٨٣) ينظر: البنى النحوية؛ نوم جومسكي: ١٧، والمعرفة اللُّغويَّة؛ نوم تشومسكي: ٤٢، ٥١، وجوانب من نظرية النَّحو؛ جومسكي: ٢٨– ٢٩، و٣٩– ٤٠، و١٧٧، وآفاق جديدة في دراسة اللُّغة والعقل؛ نعوم تشومسكي: ٣٧، و٤٨، و٦٣، و١٧٧، ونظرية تشومسكي اللُّغويَّة؛ جون ليونز: ٥٧، و٩٧، واللِّسانيّات؛ جين أتْشِسُن: ٣٧٨، و٣٨٦، واللغة والفعل الكلامي والاتصال؛ زيبيله كريمر: ٧٩، والنَّحو العربيّ؛ عبد الراجحي: ١٠٩.

(١٨٤) "أركيولوجيا": هي "علم الأثار"، و"(بالإنجليزية: Archaeology)، وعالِمُها آثَاريّ، هو علم يختصّ بدراسة البقايا المادية التي خلفها الإنسان. ويبدأ تاريخ دراسة علم الآثار ببداية صُنع الإنسان لأدواته (القواطع والأدوات القاطعة)، وربّما سُمِّي علم العاديات نسبة إلى قبيلة عاد البائدة، وهو دراسة علمية لمخلّفات الحضارة الإنسانية الماضية". ينظر: معجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ٥٦. والشبكة العالميَّة للمعلومات، ويكيبيديا، الموسوعة الحُرّة: "أركيولوجيا": https://ar.wikipedia.org/wiki.

(*) للصمتِ لغةٌ، أو كما يقول "ماكس بيكارد": "تنتمي اللُّغة والصمت إلى بعضهما: تملك اللُّغة معرفة عن الصمت، مثلما يمتلك الصمت معرفة عن اللُّغة،...لا يستطيع المرء أن يتصوّر عالماً ليس فيه هناك شيء سوى اللغة والكلام، لكن يستطيع المرء أن يتخيّل عالماً حيثما لا يكون هناك شيء إلا الصمت...". عالم الصمت: ٢٤– ٢٥. ثُمَّ يقول: "يمنح الصّمت... داخل الأشياء بعض القوة من وجوده المستقلّ الخاص. الوجود المستقلّ في الأشياء يتوطّد في الصَّمت. يختفي ذلك الذي يكون متطوراً ومستغلاً في الأشياء عندما تكون الأشياء في الصمت. يشير الصمت، خلال هذه القوة من الوجود المستقلّ، إلى حالة حيث وجود واحد يكون صادقاً: الوضع الإلهي. علامة المقدَّس في الأشياء تكون محفوظة من خلال ارتباطها بعالم الصمت". المصدر نفسه: ٢٧– ٢٨.

(١٨٥) تفترض التَّداوليَّة "العرفانيَّة" أنَّ العمليّات المتصلة بمعالجة الأقوال ليست مختصّة بالشِّفرة اللُّغويَّة، بل تتعلَّق بالنظام المركزي للفكر، على حين أنَّ التَّداوليَّة "اللِّسانيَّة"، ترى أنَّ مظاهر القول مندرجة بضمن اللِّسان اللُّغويّ. ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٨٣، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٤٧.

وأقول: لعلَّ في قول "دي سوسور" إشارةً مِن هذا، حين عيَّن أنَّ فاعليَّة التَّكوين اللُّغويّ، إنَّما تكون بتضافر من فعليَّة خطاب الكلام نفسه، يقول: "الكلام... فعل فردي، وهو عقلي مقصود. وينبغي أن نميّز ضمن هذا الفعل بين (١) الارتباطات التي يستخدمها المتكلّم حين يستعمل اللغة (الشفرة اللغوية) للتعبير عن فكرة، و(٢) والعملية السايكوفيزياوية التي تساعد الفرد على إظهار هذه الارتباطات بمظهرها الخارجي". علم اللغة العام: ٣٢.

(١٨٦) الذاتيَّة في اللُّغة: ٦٣.

(١٨٧) المصدر نفسه: ٦٤. وينظر: القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٣٥٨.

ينفي "جون سيرل" أن يكون الحديث عن الذَّاتيَّة وتنافسها من غير انتشارها وارتباط بالعالم وعلاقاتها القصديَّة، يقول" "هذا التَّركيز يجوز أن يعطي انطباعاً بأنَّ العقل جوهره ميدان تنافس للذاتيَّة محصور في الذات. ولكن على العكس، الدّور التَّطوّري الأساسي للعقل هو ربطنا بطرق معيّنة بالبيئة المحيطة، وبغيرنا من الناس على وجه الخصوص. إنَّ حالاتي الذاتيَّة تربطني ببقية العالم، والاسم لهذه العلاقة هو "القصديَّة" "intentionality". وهذه الحالات الذَّاتيَّة تتضمن الاعتقاد، والرغبات، والمقاصد، والإدراكات الحسِّيَّة، بالإضافة إلى مشاعر المحبَّة والكراهية، والمخاوف والآمال. وأقول مرةً أُخرى إنَّ "القصديَّة" هي الاسم العام لكلّ الصّور المنوّعة التي عن طريقها يستطيع العقل أن يتوجَّه تلقاء الأشياء وحالات الواقع في العالم أو يكون حولها أو يرتبط بها". العقل واللُّغة والمجتمع: ١٢١.

(*) ليس غريباً أن نجد "جون سيرل" يترجم ما تعني خصوصيَّة القصديَّة في اللُّغة وقوة اختزالها، صوتاً، كلمة، تركيباً، دلالةً، يقول: "إنَّ النفخة الصَّوتيَّة التي تخرج من فمي تكون عبارة، أو سؤالاً أو شرحاً، أو أمراً، أو نصيحة، أو طلباً، أو وعداً، وهلُمَّ جرّا. أو مجموعة كبيرة جداً من الإمكانات الأخرى. زد على ذلك أنَّه يمكن القول إنَّ ما يخرج من فهمي يكون صادقاً أو كاذباً أو مضجراً أو غير مهمّ أو مثيراً أو أصيلاً أو ممّلاً أو لا صلة له بالموضوع ببساطة. والشّيء الخليق بالملاحظة الآن هو أنّنا نحصل من النفخة الصوتيَّة على هذه الخصائص الدَّلاليَّة المدهشة، التي لا تتضمَّن فحسب الظَّواهر اللُّغويَّة والبلاغيَّة، وإنَّما تتضمّن أيضاً الظّواهر السياسيَّة والأدبيَّة والأنواع الأخرى من الظّواهر الثقافيَّة، كيف تعمل اللُّغة؟، وكيف نحصل من الفيزياء على علم الدَّلالة؟". العقل واللُّغة والمجتمع: ١٧١– ١٧٢.

(١٨٨) مبادئ التَّداوليَّة: ٥.

(١٨٩) المصدر نفسه: ٩.

(١٩٠) المصدر نفسه: ٥– ٦.

(١٩١) المبادئ التَّداوليَّة: ٥١. وينظر: المصدر نفسه: ٢٠٥.

(١٩٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤– ٢٥.

(١٩٣) المصدر نفسه: ٢٦.

(١٩٤) المصدر نفسه: ٥. وينظر: المصدر نفسه: ٩، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٢١١.

(١٩٥) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ٢٥، و١٠٣، و١١١، و١٢٣.

(١٩٦) المصدر نفسه: ١١١.

(١٩٧) المصدر نفسه: ١١٥.

(*) في بيان نظريَّة "الأحداث الكلاميَّة، يسعى "جين إتشسن" إلى توضيحها وتسهيل معناها بصّ يقول: "حين يتلفَّظ أحدُنا بسلسلة متتابعة من الكلمات، فالغالب أنَّه يحاول بذلك أن ينجز تأثيراً، يمكن إنجازه في حالات أخرى عبر عمل بديل. فقول أحدنا مثلاً: "ارجع للوراء!"، رُبَّما يحمل فكرة "الدفع" نفسها. وحين يقول القاضي: "أحكم عليك بالسجن لمدَّة خمس سنوات"، فإنَّ هذا الحكم لا يمثِّل مجرَّد سلسلة من الكلمات، بل إنَّ له تأثيراً مماثلاً لـ"حَدَثٍ" بعينه،... وإجمالاً يمكننا القول بأنَّ لبعض الكلام الذي نتلفّظ به أثراً مشابهاً لبعض "الأحداث". فإذا مضينا قُدُماً بهذا الضَّرب من المنهجيَّة المنطقيَّة في المعالجة، جاز لبعضنا أن يذهب إلى أنَّ كلّ ما نتلفَّظ به يمثِّل ضرباً من القيام بـ "أحداث" مختلفة... ويُعرَف هذا الاتّجاه – في عمومه – بـ"نظريَّة الحدث الكلاميّ" speech act theory". اللِّسانيّات: ٢١٥– ٢١٦.

(١٩٨) ينظر: العقل واللغة والمجتمع؛ جون سيرل: ١٧٢، ومبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٢٢٩، و٢٥٩، و٢٦٠، والبراجماتية اللُّغويَّة؛ ستيفن ليفنسون: ٣٠٥، و٣١٦، والمقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٦٠، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٣٠، والتَّداوليَّة؛ جورج يول: ٨١، واللغة والمعنى والسياق؛ جون لاينز: ١٨٨، وعلم الدلالة؛ بالمر: ١٨٧، ومدخل إلى نظرية الفعل الكلامي؛ جوتس هنده لانج: ٤٩، والمدخل إلى علم اللغة؛ كارل ديتربونتنج: ٢٧٦، والمقاربة التَّداوليَّة للأدب؛ إلفي بولان: ٤٢، والتَّداوليَّة والسّرد؛ جون آدم: ٦٨، ونظرية الأفعال الكلاميَّة؛ طالب سيد هاشم الطبطبائي: ٤، ونظرية الفعل الكلامي؛ هشام عبد الله خليفة: ١٥، و٣٩، و٧٩، والتَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ٤٠، والتَّداوليَّة؛ جواد ختام: ٨٦.

(١٩٩) المقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٦٠، وينظر: مدخل إلى دراسة التَّداوليَّة؛ فرانشيسكو يوس: ٣٥.

(٢٠٠) التَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ٤٠.

(٢٠١) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ١١١، و١١٥، و١٢٣، والعقل واللغة والمجتمع؛ جون سيرل: ١٧٢، ومبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٢٦٠، والمقاربة التداولية؛ فرانسواز ارمينكو: ٦١، والبراجماتية اللُّغويَّة؛ ستيفن ليفنسون: ٣١٦، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٣١، ونظرية علم الدلالة؛ راث كيمبسون: ٧٦، و٨٨، ونظريَّة الأفعال الكلاميّة؛ طالب سيد هاشم الطبطبائي: ٨، ونظرية الفعل الكلامي؛ هشام عبد الله خليفة: ٧٩، والتَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ٤١.

(٢٠٢) نظرية الفعل الكلامي؛ هشام عبد الله خليفة: ٨٠.

(٢٠٣) ينظر: التَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٢٩.

(٢٠٤) نظرية أفعال الكلام العامة: ١١٥– ١١٦.

(٢٠٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٣.

(٢٠٦) في سبيل منطق للمعنى: ٣٠١.

(٢٠٧) لستُ هنا بصدد إجراء تقديم نقدٍ أو توجيه رأي، بقدر ما أنا فيه من التَّمثيل دليلاً على ما سلف من مركزيَّة اللُّغة العليا في الفعل التَّداوليّ. وإذا كان ولا بدّ، فينظر: مثلاً ما قدّمه "ليفنسُون" من نظريات في نقد هذه النَّظرية: البراجماتية التَّداوليَّة: ٣٢٨، و٣٣٤، ٣٦٧، وكذلك في: القصديَّة؛ جون سيرل: ١١٢، والعقل واللُّغة والمجتمع؛ جون سيرل: ١٧٢، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٣٣، والمقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٦٣، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٧٥، ونظريَّة الأفعال الكلاميَّة؛ طالب سيد هاشم الطبطبائي: ١٠.

(*) حدَّد "جون سيرل" في تصوّره لنظريَّة القصد معياراً حدسيّاً عامّاً، عمل على تصحيحه بموافقة بين معنى القصد لفظاً، وفعل القصد إنجازاً، يقول: "نريد أن نعرف معنى القصد؟ وما هو الفعل وماذا يكون؟ وما العلاقة بينهما حين نقول إنَّ أحدهما شرط لتحقّق الآخر... حين يأمر الفرد بفعل شيء معيَّن، فإنَّه يطلب من الناس القيام بأفعال قصديَّة. ولا يستطيع أن يأمر الناس بفعل أشياء إلَّا إذا كان قاصداً ذلك. إذ لا معنى للقول: آمرك بفعل ذلك ولا أكون قاصداً هذا القول. كذلك يتمثَّل المعيار العام، لمعرفة ما إذا كانت العبارة الفعلية (أي بها فعل معيَّن) تتطلَّب القيام بفعل معيَّن، في محاولة صياغة الفعل أو العبارة في صيغة أمر". القصديَّة: ١١٣، وينظر: العقل واللُّغة والمجتمع؛ جون سيرل: ١٧٤.

(٢٠٨) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٣.

(**) يقول "تشومسكي": إنَّ ملكة اللُّغة بشكل عام تدخل في كلّ مجال من مجالات الحياة البشريَّة والتَّفكير والتَّفاعل البشريين. إنَّها مسؤولة إلى حدّ كبير عن حقيقة أنَّه في العالم البيولوجي، فإنَّ البشر وحدهم الذين يمتلكون تاريخاً، وتطوّراً ثقافيّاً وتنوّعاً ذا تعقيد وغنى، وحتَّى [كذا] نجاحاً بيولوجياً بالمعنى التّقني...". آفاق جديدة في دراسة اللُّغة والعقل: ٣٤.

(٢٠٩) علم اللغة العام: ٢٤.

(٢١٠) المدخل إلى علم اللغة: ٢٨٧، وينظر: اللسانيات؛ جان بيرو: ٧.

(٢١١) لتوضيح هذه العِلل، ينظر مثلاً: المعجم الفلسفي؛ جميل صليبا: ٢/ ٩٦.

(*) أصبح تعريف التَّداوليَّة عبئاً ثقيلاً على اللِّسانيّات خاصة، كما يقول "جون .ك آدم": "لأنَّ التَّعريف لا يجب أن يجمع إليه كلّ شيءٍ عن التَّداوليَّة فحسب، إنَّما يجب أن يمنع كلّ شيء يتعلَّق بالدَّلاليَّة أيضاً". التَّداوليَّة والسرد: ٧.

(٢١٢) ينظر: القاموس الموسوي للتداولية؛ جاك موشلر: ٢٤، و٢٦، و١٨٢، و٣٤٩، و٤٢٩، والقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ١٢٣، و٦٤٦، و٦٧٨، ومعجم أوكسفورد للتداوليَّة؛ يان هوانغ: ٦٦٣، ومعجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ١٨٠، والمقاربة التداولية؛ فرانسواز أرمينكو: ٥١، و٥٦، و٥٨، و٧١، والتَّداوليَّة؛ جروج يول: ١٩، و١٠٢، وتحليل الخطاب؛ روان ويول: ٢٤، ومبادئ التَّداوليَّة؛ جيوفري ليتش: ٢٤– ٢٥، والبراجماتية اللُّغويَّة؛ سِتيفن ليفنسُون: ٤٣، والمعنى في لغة الحوار؛ جيني توماس: ١٨، واللغة والمعنى والسياق؛ جون لاينز: و٢٧، ٢٢٢، واللُّغة وعلم اللُّغة؛ جون ليونز: ٢٢٥، وعلم الدلالة؛ جون لاينز: ٢٧، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٥٣، ومدخل إلى دراسة التَّداوليَّة؛ فرانشيسكو يوس راموس: ٣٧، و٦٧، ودليل ميسَّر إلى الفكر والمعنى؛ راي جاكندوف: ٦٩، ونظرية علم الدلالة؛ راث كيمبسون: ٥٣، وفي سبيل منطق للمعنى؛ روبيه مارتان: ٢٩٧، والقصدية؛ جون سيرل: ١٨٥، و١٨٩.

(٢١٣) التَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٧٩.

(٢١٤) المصدر نفسه: ٥٣.

(٢١٥) المصدر نفسه: ٥٥.

(٢١٦) القاموس الموسوعي للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ١١٠. وينظر: المصدر نفسه: ٣٤٩، والقاموس الموسوعيّ الجديد لعلوم اللِّسان؛ أوزوالد ديكور: ٦٤٦، والتلفُّظ؛ أوزفالد ديكرو، بضمن لسانيّات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٦.

(٢١٧) اللغة وعلم اللُّغة؛ جون ليونز: ٢٢٦.

(٢١٨) المصدر نفسه: ٥٥.

(٢١٩) اللغة وعلم اللغة: ٢٢٧.

(٢٢٠) المصدر نفسه: ٢٢٨.

(٢٢١) القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة: ٢٦– ٢٧.

(٢٢٢) ينظر: المعنى في لغة الحوار: ١٨، وآفاق جديد في البحث اللُّغويّ المعاصر؛ محمود أحمد نحلة: ١٣.
(٢٢٣) ينظر: المعنى في لغة الحوار: ١٨– ١٩، وآفاق جديدة في البحث اللُّغويّ المعاصر؛ محمود أحمد نحلة: ١٣.
(٢٢٤) المعنى في لغة الحوار: ٣٦. ينظر: علم الدلالة؛ جون لاينز: ٢٤.
(٢٢٥) المصدر نفسه: ٣٦– ٣٧.
(٢٢٦) ينظر: المعنى في لغة الحوار: ٤١.
(٢٢٧) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٤. وينظر: المعنى في لغة الحوار؛ جيني توماس: ٤١.
(٢٢٨) القاموس الموسوعي للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٢١.
(٢٢٩) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر؛ محمود أحمد نحلة: ١٤.
(٢٣٠) القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٣٣.
(٢٣١) ينظر: التَّداوليَّة عند العلماء العرب: ٢٦، والقاموس الموسوعيّ للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٢٦.
(٢٣٢) ينظر: التَّداوليَّة عند العلماء العرب: ١٧. والقاموس الموسوعيّ للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٣٣.
(٢٣٣) ينظر: التَّداوليَّة عند العلماء العرب: ٢٧– ٢٨.
(*) تقدَّم بنا ذلك فيما طرحته "فرانسواز أرمينكو" في مقاربتها التَّداوليَّة، وقد كان على أطروحتين متناقضتين: الأولى: التَّنافر أو النُّوحُد، في سؤال: هل تُعدّ التَّداولية مجالاً متنافراً؟. وهل يمكن إدراك تداوليَّة موحَّدة بحكم هذه الانجازات الكبيرة؟. الأطروحة الثانية: الاندماج أو الاستقلال: إذ يمكن للتداوليَّة أن تندمج بطريقتين، إمَّا باختزالها وامتزاجها في المجال الدَّلاليّ، فتكون بيسر تامةً في نظريَّة الإنجاز التَّداوليَّة. أو مندمجة كجزءٍ من السِّيميائيَّة الثلاثية الأبعاد، وهو ما ينسجم مع فعلها ودلالتها. ينظر: المقاربة التداولية: ١٢– ١٣.
(٢٣٤) علم الدلالة: ٩.
(٢٣٥) المصدر نفسه: ٩.
(٢٣٦) في المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: ١٠١.
(٢٣٧) المصدر نفسه: ١٠١.
(٢٣٨) المصطلحات المفاتيح في اللِّسانيّات: ٨٢.
(٢٣٩) المصدر نفسه: ٨٢.
(٢٤٠) دليل ميسَّر إلى الفكر والمعنى؛ راي جاكندوف: ٦٩. وينظر: علم الدلالة؛ جون لانيز: ٢٣، وسوسير وفتجنشتين؛ روي هاريس: ٦٢.
(٢٤١) دور الكلمة في اللغة؛ ستيفن أولمان: ٦٨. وينظر: علم الدلالة؛ بالمر: ١١.
(٢٤٢) مدخل إلى دراسة التداولية: ٣٩.
(٢٤٣) ينظر: علم اللغة العام: ٢٧، و٣٢.

فاضت منظومة "دي سوسور" فكراً، وعلى درجة كبيرة جداً من الموضوعيَّة حين عقَد [في علم اللُّغة العام: ٣٧– ٣٨] مفارقاتٍ وامتيازاتٍ بين اللُّغة والكلام، وأشار إلى أنَّهما بقدر مفارقتهما، إلا أنَّهما يعتمد أحدهما على الآخر في شبكة متفاعلة من الأفعال الفكريَّة والكلاميَّة والتَّواصليَّة، ولكنَّه رغم ذلك فضَّل اللُّغةَ النِّظام على "علم لغة الكلام"؛ والسَّبب عدم تجانسه، فضلاً عن فعليّاته الفرديَّة؛ منطلقاً لدراسة اللُّغة. يقول: "فاللُّغة ضرورة إذا أُريد للكلام أن يكون مفهومه يحقِّق الغاية المتوخَّاة منه، ثُمّ إنَّ الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللُّغة، والكلام يأتي أوّلاً من الناحيَّة التاريخيَّة. إذ كيف يمكن للمتكلم أن يربط فكرة ما بصورة للكلمة. إذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في أحد أفعال الكلام؟ كما أننا نتعلَّم لغتنا بالإصغاء إلى غيرنا. فاللُّغة لا تستقرّ في الدّماغ إلَّا بعد عدد لا يُحصى من الخبرات، وأخيراً يكون الكلام هو السّبب في تطوّر اللُّغة: فالانطباعات التي نحصل عليها من الإصغاء إلى الآخرين تتجمع فتؤدِّي إلى تحوير السّلوك اللُّغويّ عندنا. فاللُّغة والكلام إذن يعتمد أحدهما على الآخر، مع أنَّ اللُّغة هي أداة الكلام وحصيلته، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميّزين تماماً".

ثُمَ يقول في مفارقة أكثر بياناً ما يشتمل عليه الفعل التَّداوليّ المرصود في الكلام حتَّى يؤسّس لمحاور تداوليَّة استعماليَّة مختلفة، يتّخذ منها سبباً لاستبعاده عن النَّظر اللُّغويّ؛ لعدم حصره، فضلاً عن عدم تجانسه. يقول: "الكلام مجموع ما يقوله الناس ويضم: (أ) الفعليّات الفرديَّة التي تعتمد على رغبة المتكلِّم. (ب) الأفعال الصوتيَّة التي تعتمد أيضاً على إرادة المتكلِّم، وهذه الأفعال، لا بدّ منها، لتحقيق الفعاليّات المذكورة في (أ). الكلام، إذن، ليس وسيلة جماعيَّة، بل مظاهر فرديَّة قصيرة الزمن، فلا نحصل في الكلام إلّا على مجموعة الأفعال المعيَّنة... كلّ هذه الأسباب تحملنا على القول إنَّ النظر إلى اللُّغة والكلام من جهة نظر واحدة أمر بعيد عن الحقيقة، وعلى العموم لا تمكّن دراسة الكلام؛ لأنَّه غير متجانس،

ولكن التَّمييز الذي اقترحناه وإخضاع أحدهما للآخر يوضّحان هذه المسألة. وهكذا نصادف هذا التفرع لدى محاولتنا صياغة نظريَّة اللِّسان، وعلينا أن نختار بين طريقين، لا يمكن أن نسير في كليهما، في آن واحد، بل علينا أن نفصل بينهما عند السّير".

أقول: ومن هنا تغيَّرت جعليّات الدَّرس اللِّسانيّ المعاصر، حين تحوَّل مسار النَّظر في دراسة اللُّغة، بالعكس تماماً من انطلاقة "سوسور" من دراسة اللُّغة في ذاتها إلى دراسة الكلام في استعماله والتَّواصل.

(٢٤٤) ينظر: المقاربة التداولية؛ فرانسواز أرمينكو: ٢٧.

(٢٤٥) ينظر: التَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول، وجاك موشلر: ٢٩، والتَّداوليَّة؛ جورج يول: ٢٠.

(٢٤٦) ينظر: التَّداوليَّة؛ جواد ختام: ٦٩، والقاموس الموسوعيّ للتّداوليَّة؛ جاك موشلر: ٢٦– ٢٧.

(٢٤٧) علم الدَّلالة: ١٠.

(*) يبدو لي أنَّ مقاربة "أرمينكو" تقوم على نحو شموليّ في قراءة السِّيميائيَّة وكشف الأبعاد الثلاثيَّة في التَّداوليَّة لـ"موريس"، تقول: "إنَّه من الممكن أن نشكّ بوجود علامة منعزلة، إذ إنَّ لكلّ علامة عند موريس علاقة بعلامات أخرى (أي لما تقوم به العلامة من تهييئ للمؤول، حتَّى يعبِّر عن ردّ فعله، من خلال اصطلاحات علامات أخرى). ممّا يتحقّق معه بعد نحوي للسيميوزيس". [المقاربة التداولية: ٢٦]. ثُمَّ تقول: "تدخل العلامات في علاقات مختلفة، بحسب البعد الذي نرتئيه، ففي البعد النحوي تُشرَك العلامات، أمَّا في البعد الدَّلاليّ فالعلامات تشير وتسجّل، بينما تعبِّر (عن استعمالاتها) في البعد التَّداوليّ. من هنا، فحين يعتمد موريس على مثال كلمة "طاولة"، فهو يفترض أثاثاً بسطح أفقي ويسجل الموضوعات التي ينطبق عليها الاصطلاح، وبحكم أنَّ هذا الاصطلاح حقيقيّ، ويعبِّر عن فكرة من يتكلّم. وهكذا تُستَعمل السِّيميائيَّة، كعلم، علامات خاصّة لتشكيل أحداث فاعل العلامات. إنَّها لغات جيء بها للكلام على العلامات. واصطلاح "العلامة" ذاته، هو اصطلاح سيميائي، غير محدَّد بشكل نهائيّ، داخل أحد الأبعاد الثلاثة: النَّحويَّة، والدَّلاليَّة أو التَّداوليَّة".

(٢٤٨) ينظر: التداولية المدمجة، بضمن لسانيات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٢٥–٢٢٦.

(٢٤٩) المصدر نفسه: ٢٢٦.

(٢٥٠) التداولية اليوم؛ آن روبول: ٤٧.

(٢٥١) المصدر نفسه: ٤٨.

(٢٥٢) القاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٨٣.

(٢٥٣) ينظر: القاموس الموسوعي الجديد للعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكور: ٦٤٦، والتلفُّظ؛ أوزفالد ديكرو، بضمن لسانيات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٤، و٢٦، و٣٨.

(٢٥٤) التلفظ؛ أوزفالد ديكرو، بضمن لسانيّات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٣– ٢٤.

(٢٥٥) المصدر نفسه: ٢٤.

(٢٥٦) ينظر: القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٨٥، و٩٠، و٩٢، و٣٤٧، و٣٤٩.

(٢٥٧) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: ٦٤٦. وينظر: التلفظ؛ أوزفالد ديكرو، بضمن لسانيات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٦– ٢٧.

(٢٥٨) ينظر: التَّلفُّظ؛ أوزفالد ديكرو، بضمن لسانيات الخطاب؛ صابر الحباشة: ٢٧.

(٢٥٩) القاموس الموسوعيّ للتّداوليَّة؛ جاك موشلر:٩١.

(٢٦٠) المصدر نفسه: ٣٤٩.

(٢٦١) ينظر: القاموس الموسوعيّ الجديد لعلوم اللسان: ١٢٢، و٦٧٧، و٦٨٨.

(٢٦٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٣.

(٢٦٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٤.

(٢٦٤) ينظر: المصدر نفسه: ٦٨٩.

(٢٦٥) القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة؛ جاك موشلر:٨٤.

(٢٦٦) اللغة والمعنى والسياق: ٨. وينظر: اللغة وعلم اللُّغة؛ جون ليونز: ١٨٤.

(٢٦٧) ينظر: مبادئ التداوليَّة: ١٤.

(٢٦٨) المصدر نفسه: ٥.

(٢٦٩) ينظر: المصدر نفسه: ٦، و٢٠١.

(٢٧٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٣، و١٥، و٢٣.

(٢٧١) المصدر نفسه: ١٥.
(٢٧٢) المصدر نفسه: ٢٦.
(٢٧٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٦.
(٢٧٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٥.
(٢٧٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٤.
(٢٧٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٤.
(٢٧٧) المصدر نفسه: ١٣.
(٢٧٨) المصدر نفسه: ١٣.
(٢٧٩) المصدر نفسه: ٢٠٢.
(٢٨٠) المصدر نفسه: ٢٠٢.

(*) من المعلوم في الدَّرس الأسلوبيّ: أنَّ "(اللُّغة) نظام رمزيّ من العلامات الدَّالة، إلا أنَّها لا تحدّد فقط بالبنية المزدوجة التي للعلامة اللُّغويَّة، أي: الدال والمدلول، وإنّما هي تؤلِّف أيضاً مجموعة (معايير) بعضها ضمني، وبعضها مفروض من قبل الجماعة. إنَّ اللُّغة، مثل العلوم الإنسانيَّة، القانون، والأخلاق، والجماليّات نتاج معياريّ، تقوم معاييره بين السَنَن اللُّغويّ، وبين الكلام المنفّذ فتتحكم بالنِّظام اللُّغويّ، وأيضاً باستعمالات الناس له. إذن، فالاتّجاه إلى دراسة الملفوظات اللُّغويَّة عبر إنزياحها عن المعيار، أو القاعدة خطوة منهجيَّة مؤسّسة، تقود إلى الصّواب... وإنّ ما يؤسّسها هو كفاءة القارئ المعياريَّة، وأيضاً الإمكان في وصف خططه فيها...". النقد والأسلوبية؛ عدنان بن ذريل: ٢٥.

أقول: من هنا أجد أنَّ "فرانك بالمر" يبيّن بنظرة ابتدائيَّة السَّبب الذي أفضى إلى نحو هذه المفارقات، حين رصد ما في خصوص الدِّراسة الدَّلاليَّة التي تُعنى بالمعنى العام، لا الفرديّ الخاصّ، ما ينعكس على ذلك من قراءة العدول والقياس، يقول: "إنَّ المعنى الخاص بشخص ما ليس جزءاً من الدراسة العامة لعلم الدَّلالة. والواقع فمن المهم لبعض الأغراض أن نرى كيف، ولماذا ينحرف الفرد عن النَّمط الاعتيادي. وهذا ضروري في دراسة الأدب،... المهم أن ندرك أنَّه لا الدّراسات الأدبيَّة ولا النَّفسيَّة للفرد ستكون ممكنة بدون النَّماذج أو الأنماط السويَّة العموميَّة لإجراء المقارنات بها وعلى كلّ حال، فإنّنا بحاجة إلى التَّمييز ما يبدو أنَّه المعنى الاعتيادي للكلمة أو الجملة ومعناها في ظروف محدّدة خاصّة. وقد يكون هذا تمييزاً بين المعنى والاستعمال...". علم الدلالة: ١١.

(٢٨١) مبادئ التَّداوليَّة: ٢٠٢.
(٢٨٢) المصدر نفسه: ٢٠٥.
(٢٨٣) المصدر نفسه: ٢٠٥.
(٢٨٤) البراجماتيَّة اللُّغويَّة: ٣٧.
(٢٨٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٨.
(٢٨٦) ينظر: المصدر نفسه: ٣٨.
(٢٨٧) ينظر: المصدر نفسه: ٣٧.
(٢٨٨) المصدر نفسه: ٤٠.
(٢٨٩) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠.
(٢٩٠) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠– ٤١.
(٢٩١) ينظر: المصدر نفسه: ٤١.
(٢٩٢) المصدر نفسه: ٤١.
(٢٩٣) المصدر نفسه: ٤١.
(٢٩٤) المصدر نفسه: ٤١.
(٢٩٥) التَّداوليَّة والسرد: ٧.
(٢٩٦) معنى المعنى؛ أوجدن رتشاردز: ٣٤.
(٢٩٧) ينظر: اللغة وعلم اللغة؛ جون ليونز: ١.

(٢٩٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٦. والعقل واللغة والمجتمع؛ جون سيرل: ١٧٦.

(٢٩٩) ينظر: مدخل أولي إلى علم النَّص؛ فان دايك، بضمن النظرية والنَّص،؛ كيبيدي فارغا: ٦٢.

(٣٠٠) المصدر نفسه: ٦١.

(٣٠١) المصدر نفسه: ٦٢. وينظر: الذات بين الضوء والمصباح؛ عماد جبار كاظم: ٤٣.

(٣٠٢) البراجماتية اللُّغويَّة: ٥٤. جعل الخط غامقاً بسببي؛ للتنبيه.

(٣٠٣) المصدر نفسه: ٥٤.

(٣٠٤) المصدر نفسه: ٦٠.

(٣٠٥) ينظر: التَّداوليَّة: ١٩.

(٣٠٦) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة: ٣٨.

(٣٠٧) المصدر نفسه: ٣٨.

(٣٠٨) ينظر: المصدر نفسه: ٣٨.

(٣٠٩) ينظر: المصدر نفسه: ٤١.

(٣١٠) ينظر: المصدر نفسه: ٥١.

(٣١١) ينظر: المصدر نفسه: ٦٠.

(٣١٢) البراجماتية اللُّغويَّة؛ ستيفن ليفنسون: ٥٣.

(٣١٣) المصدر نفسه: ٣٠.

(٣١٤) المصدر نفسه: ٣٢.

(٣١٥) ينظر: اللِّسانيّات؛ نعمان بوقرة: ١٦١، ولسانيّات الخطاب؛ نعمان بوقرة: ٧١، والنظريَّة البراجماتيَّة (اللسانيَّة)؛ محمود عكاشة: ١٩.

(٣١٦) التَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ١٦.

(٣١٧) ينظر: المقاربة التداولية؛ فرانسواز أرمينكو: ٩٣.

(*) يحوّل "هانز جورج غادامير"، في قراءة، موضوعَ الخطاب من إلقائه إلى السقوط فيه، يقول: "نحن نقول إننا "نجري" محادثة، لكن كلما كانت محادثة ما أصلية قل اعتماد إجرائها على إرادة أي من الطرفين. وعلى ذلك، فإنَّ المحادثة الأصلية ليست هي أبداً المحادثة التي أردنا أن نُجريها. إنَّما الأصوب عموماً القول إننا نسقط في محادثة، أو حتَّى أنّنا نصبح متورّطين فيها... إنَّ المتحدّثين مقودون أكثر ممّا هم موجهون للمحادثة. فلا أحد يعرف مقدَّماً ما "يتمخّض" عن محادثة ما. ويقع الفهم أو الإخفاق في الفهم مثل حدث يلمّ بنا. وبذلك يمكننا القول إنَّ شيئاً ما كان محادثة جيدة أو رديئة. يبيّن كلّ هذا أنَّ للمحادثة روحها الخاصة، وأنَّ اللُّغة التي تجري بها المحادثة تحمل حقيقتها الخاصة ضمنها؛ أي أنَّها تتيح لشيء ما أن "يتجلَّى" ويكون موجوداً منذ الآن". الحقيقة والمنهج: ٥٠٥.

(**) لا تستند تأويلات الحمل التَّداوليّ على "قاعدة "، وفي محاولة توضيحٍ لمثال عن توصيف المكوّن التَّداوليّ، يقول "جورج يول": "لا يمثّل... قاعدة للنحو، أو لعلم الدَّلالة. إنَّه ليس قاعدة على الإطلاق، وإنَّما هو مبدأ تداوليّ غالباً ما نستعمله لفهم ما نسمعه أو نقرأه غير أن بإمكاننا تجاهله إذا كان تطبيقه على بعض الحالات غير ممكن". التداولية: ٢٥.

(٣١٨) ينظر: الجمهورية، بضمن أفلاطون المحاورات الكاملة: ٣١٩.

(٣١٩) مبادئ التداولية: ٩.

(٣٢٠) المضمر: ٢٥.

(٣٢١) ينظر: البراجماتية اللغوية؛ ستيفن لفينسُون: ٦٠، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر: ٣٧.

(*) يرى "ليفنسُون"، وهو يبدأ بمناقشة الاهتمامات التي أفضت إلى تطوّر المجالات التَّداوليَّة المعاصرة: أنَّه رُبَّما كانت التداولية لها أبعاد أُخَر، غير التي يُعزى لها في النّظرية اللُّغويَّة؛ بدليل من محاولات تعريفاتها التي لم تأت بثمار حقيقة فيها، وأن تكون أقرب إلى علم اللغة الاجتماعيّ منها إلى نحو الدَّلالة، على الرغم من عموم الحاجة إلى أخرى تقابل المستوى النَّحويّ والدلاليّ. يقول: "ينبغي أن نوضح ما الدور الذي يعزى للبراجماتيَّة حسب نظرات مختلفة داخل النَّظريَّة اللُّغويَّة؛ فمما لا شك فيه أن بعض الباحثين يعدون البراجماتية نقاشاً مستمراً لمناهج وتساؤلات لغويَّة فعليَّة. ورُبَّما تكون للبراجماتيَّة إذن مهمَّة مقابلة الاستعمال اللُّغويّ الحقيقيّ بمواد لغويَّة بالغة الأمثلة، يقوم على أساسها جزء كبير من النقاش النظريّ الحالي، وكما لوحظ رُبَّما كانت محاولات حدّ البراجماتيَّة مثل المحاولات السابقة قليلة الجدوى، فرُبَّما لم تكن البراجماتيَّة مكوّناً أو مستوى

للنظريَّة اللُّغويَّة، بل إمكانية النّظر في المواد والمناهج لعلم اللُّغة على نحو جديد". ثُمَّ ينتهي إلى ما ينبغي أو يحتمل أن تكون عليه التَّداوليَّة في ضوء ذلك . ما يسند إليها من أدوار، يقول: "وفي هذه الحال رُبَّما قامت البراجماتيَّة بوصفها مجالاً لعلم اللُّغة الاجتماعي بدرجة أقرب ممَّا للدلالة. ولذلك من المهم أن يلاحظ أنَّه برغم فضيلة محتملة لهذه الرؤية، فإنَّه توجد حاجة إلى نوع من النظرية الراجماتيَّة. يمكن أن تشغل مكانها إلى جانب النحو، والدلالة، والفنونولوجيا داخل نظرية عامة للقواعد". البراجماتية اللُّغويَّة: ٦٠.

(٣٢٢) القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة: ٢٨.

(*) يرى "كريماص": أنَّه بالرّغم من الاعتراف، إقراراً بصفة عامة، بما يقوم علية التصوُّر الأصليّ للتَّداوليَّة من معالجات لم تستطع السيميائيَّة المدركة (التّلاحم النَّحويّ . الدلاليّ) معالجتها، فضلاً عن خيبة الأمل الذي أحدثه النَّحو التَّوليديّ؛ لعدم إيفائه بوعده، ناهيك بالأزمة الإبستمولوجية التي تعاني منها العلوم الاجتماعيَّة، فإنَّ إجازتها لإسناد محتوى إيجابيّ لتلك البقايا المتروكة، وذلك بإعادة تثمين المقام على حساب النَّصّ، والاستعمال على حساب النَّحو، إنَّ مثل هذه الأمر، كما يرى "كريماص"، لهو شيء مبالغ فيه، صحيح أنَّه يتناسب والتَّرجُحات الجدوليَّة الملاحظة في تاريخ أيّ بحث، إلا أنَّ التَّداوليَّة تبقى في تاريخها مشخصَّة بوصفها ردة فعل ضدّ هذه المواقف الاختزاليَّة، وعلى الرغم من ذلك، فهي تبقى محصورة في أغلب هذه الطَّرائق، داخل الإطار الضّيق لمنطق المرجع، ولا تتوطَّد إلا في الاختلاف، وعلى ذلك فما هي إلا تعبير عن خصومة عائليَّة وضعيَّة. ينظر: التَّداوليَّة والسيميائية. أ. ج. كريماص. وإ. لندوفسكي: ٣٠٣- ٣٠٤.

(٣٢٣) مبادئ التداولية: ٩. وينظر: التداولية والسيميائية. أ. ج. كريماص. وإ. لندوفسكي: ٣٠٣.

(٣٢٤) التَّداوليَّة: ٢٣.

(٣٢٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٩- ٢٦.

(٣٢٦) المصدر نفسه: ٢٢- ٢٣.

(٣٢٧) التداولية: ٢٣.

(٣٢٨) القاموس الموسوعي للتداولية: ٢٨.

(٣٢٩) ينظر: المقاربة التداولية؛ فرانسواز أرمينكو: ٤١، و٥١، ٦٠، والقاموس الموسوعي للتداولية؛ جاك موشلر:٢١١، و٣٢١، ٥٠٩، والبراجماتية اللغوية؛ سِتيفن ليفنسُون: ٥٤، والتَّداوليَّة؛ جورج يول: ١٩، و٢٧، و٥١، ٨١، و٩٧، واللسانيات؛ جين إتشسن: ٢١١، ٢٢٩. والتداولية عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ٣٠- ٤٥، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر؛ محمود أحمد نحلة: ١٥.

(٣٣٠) المقاربة التَّداوليَّة: ١١.

(٣٣١) يرى التَّداوليُّون أنَّ "قضية التَّداوليَّة هي "إيجاد" القوانين الكُلّية للاستعمال اللُّغويّ والتَّعرُّف على القدرات الإنسانية للتواصل اللُّغويّ،...". التَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ١٦- ١٧. وينظر: نفسه: ٢٦.

(٣٣٢) مشكلة الإنسان؛ زكريا إبراهيم: ٥.

(٣٣٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥.

(٣٣٤) في مقارنة بين النظام اللغوي والاستعمال. ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٢١. و٢٨، و٥٣٧، والتَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ١٥- ١٦.

(٣٣٥) أقول: هذا على الرغم من رأي: "أنَّ مستقبل اللِّسانيّات رهين بمستقبل التَّداوليَّة أكثر من أن يكون مستقبل التَّداوليَّة رهين اللِّسانيَّات" [القاموس الموسوعي للتداولية: ٥٣٥]، وقول: إنَّ "التَّداوليَّة قاعدة اللِّسانيّات" [المقاربة التَّداوليَّة: ٧]، بل "أساس كلّ ما هو موجود في اللِّسانيّات" [التَّداوليَّة واستراتيجية التواصل؛ ذهبية حمو الحاج : ١٢٦]. ولقد يكون الوصف الإبعادي أعلى سقفاً من ذلك، حين نقرأ قول "دي بوجراند" في تصنيف النصوص وإجراءاته: "إنَّ الناس، وليس الجمل، هم الذين يقرّرون أو يسألون أو يفصحون عمَّا في أنفسهم؛ وإنَّ الأفكار والعلاقات هي أساس حالات اتباع الإجراء والتصنيف وما أشبهها، وليس التَّراكيب النَّحويَّة هي أساس ذلك". النَّص والخطاب الإجراء: ٤١١.

وإذا كان الأمر كذلك؟، فهل هذا يعني أنَّ التَّداوليَّة تقف على مسافة واحدة من حقول المعرفة كُلِّها تلك التي تشترك معها في المعالجة والتَّفسير، وما اللُّغة إلا جامع اشتراكيّ بعنصر من الدّال/النَّصّ؟، يبدو أنَّها كذلك من خلال قراءة نفي انتماء التَّداوليَّة، وعدم صلتها وعلاقتها بأيّ مستوى من مستويات اللِّسانيّات/علم اللُّغة العلميَّة.

(٣٣٦) ينظر: علم اللغة العام؛ دي سوسور: ١٣١، وعلم الدلالة؛ بالمر: ٢٣.

(٣٣٧) الحقيقة والمنهج؛ جورج هانز غادامير: ٥٠٦.

(٣٣٨) الذاتيَّة في اللُّغة: ٦١. وينظر: اللُّغة، نصوص مختارة: ٧٨.

(٣٣٩) نظرية تشومسكي اللُّغويَّة: ٣٠ – ٣١. وينظر: تحقيقات فلسفية؛ لدفيك فِتغنشتاين: ٣٣٦، والمدخل إلى علم اللُّغة؛ كارل ديتر بونتج: ٢٨٧، والتَّفكير واللُّغة؛ جوديث جرين: ١١٣.

(٣٤٠) مداخل لنظرية اللغة: ١٩.

(٣٤١) المقاربة التَّداوليَّة: ٧.

(٣٤٢) المعنى في لغة الحوار: ١٧.

(٣٤٣) نظرية الفعل الكلامي: ٢١.

(٣٤٤) التداوليات علم الاستعمال اللغة؛ حافظ إسماعيلي: ٣.

(٣٤٥) التَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٢٧، وينظر: المصدر نفسه: ٥١.

(٣٤٦) التَّداوليَّة عند العلماء العرب: ٥. وينظر: التَّداوليّات علم استعمال اللغة؛ حافظ إسماعيلي: ٢.

(٣٤٧) ينظر: علم الإشارة؛ بييرجيرو: ٨١، وأنظمة العلامة؛ سيزا قاسم: ٣٦.

(٣٤٨) ينظر: التَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ١٤، و١٩، و٧٦.

(٣٤٩) ينظر: نظرية الصلة أو المناسبة؛ دان سبيربر: ٢٢.

(٣٥٠) المصدر نفسه: ٢٩٥ – ٢٩٦. وينظر: اللغة والخطاب الأدبي، مجموعة بحوث: ١٩.

(٣٥١) ينظر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ٦٨٩، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ٧٦، و٩٢، وعلم الإشارة؛ بييرجيرو: ٨٣، وإنسان الكلام؛ كلود حجاج: ١٧٠.

(٣٥٢) ينظر: التَّداوليَّة عند العلماء العرب؛ مسعود صحراوي: ٢٠– ٢١، والنص الواصف؛ عماد جبار كاظم: ٥٨.

(٣٥٣) ينظر: الذَّاتيَّة في اللُّغة؛ إميل بنفنيست: ٦١، واللِّسانيَّات والفلسفة؛ إيتين جيلسون: ١٧.

(٣٥٤) ينظر: تداوليَّة الخطاب؛ آن ريبول: ٧٨، ومداخل لنظريَّة اللُّغة؛ لويس هيلمسليف: ١٩.

(٣٥٥) ينظر: التَّداوليَّة اليوم: ٧٤.

(٣٥٦) المدخل إلى علم اللُّغة: ٢٨٧.

(٣٥٧) سوسير وفتجنشتين: ٢٦.

(٣٥٨) ينظر: علم العلامات (السيميوطيقا)؛ فريال جبوري غزول بضمن: أنظمة العلامات؛ سيزا قاسم: ١٢– ١٣، والعلامات (السيميولوجيا)، منذر عياشي: ١.

(٣٥٩) المصدر نفسه: ١١– ١٢.

(٣٦٠) مدخل إلى اللِّسانيَّات التَّداوليَّة: ٤.

(٣٦١) أُسس لسانيّات النَّصّ؛ هاينه مان: ٧٠.

(٣٦٢) شظايا لسانية؛ مجيد الماشطة: ٨٨.

(٣٦٣) المصدر نفسه: ٨٧.

(٣٦٤) ينظر: التَّداوليَّة والسرد؛ جون. ك آدم: ٧– ٢٢، و٤١، و٦١، والمقاربة التَّداوليَّة للأدب؛ الفي بولان: ٢٠، والقاموس الموسوعي للتداوليَّة؛ جاك موشلر: ٤٥٥.

(*) أقول ليس غريباً أن تكون السِّيميائيَّة عنواناً أكبر للتداوليَّة، ولعلَّ الأخيرة مثَّلها تنفلت من الجزئيات إلى الكُلِّيّات؛ ذلك "إنَّ السِّميائيّات لا تنفرد بموضوع خاصّ بها، فهي تهتمّ بكلّ ما ينتمي إلى التَّجربة الإنسانيَّة العادية شريطة أن تكون هذه الموضوعات جزءاً من سيرورة دلاليَّة. فالموضوعات المعزولة، أي تلك الموجودة خارج نسيج السميوز، لا يمكن أن تشكّل منطقاً لفهم الذات الإنسانيَّة أو قول شيء عنها، فليس بمقدورنا أن نتحدث عن سلوك سيميائيّ إلا إذا نظرنا إلى الفعل خارج تجليه المباشر، فما يصدر عن الإنسان لا ينظر إليه في حرفيته، بل يدرك باعتباره حالة إنسانيَّة مندرجة ضمن تسنن ثقافيّ هو حصيلة لوجود مجتمع. ووجود المجتمع ذاته رهين بوجود تجارة للعلامات". السيميائيات؛ سعيد بنكَراد: ٢٨. وينظر: والمقاربة التداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٢٤، وعلم الإشارة؛ بيرجيرو: ٢٣، والعلاماتية وعلم النص؛ مجموعة بحوث مترجمة؛ منذر عياشي: ١٥.

أقول: ليس غريباً لأنَّ كلّ شيء في المجال التّداوليّ يتسم بكونه علامة إنجازيَّة – تأويليَّة، ولعلَّه أمر فيها لم يكن ليخرج سلوكاً من السيميائيات أبداً ليس لأنَّها في التصنيف جزء منها فحسب، بل لأنَّ الأخيرة "من حيث هي نظام تستطيع أن تبني الظَّواهر، ومن حيث هي لغة تستطيع أن تحوّل الظواهر إلى علامات تقرأ أنظمتها التي تكون بها، وتعيد بها إبداع ما يمكن أن يكون. ولقد يجعل هذا منها، أيضاً وأخيراً، علم العلوم، أي يجعل منها العلم الذي تستطيع به العلوم أن تقرأ الظّواهر التي تشكّل موادها، كما تستطيع به أن تستنبط القوانين التي تكون هذه المواد وتعيد بها من ثُمّ إبداع ما يمكن أن يكون". العلاماتية (السيميولوجيا)؛ منذر عياشي: ١.

(٣٦٥) ينظر: المقاربة التَّداوليَّة؛ فرانسواز أرمينكو: ٨، و٢٩، والتَّداوليَّة اليوم؛ آن روبول: ١٤، و١٩، و٧٦، والتَّداوليَّة؛ جورج يول: ٢٠، والتَّداوليَّة واستراتيجية التواصل؛ ذهبية حمو الحاج: ١٢٦.

(٣٦٦) المقاربة التَّداوليَّة: ١٥.

(٣٦٧) من هذه المعطيات: التَّركيز على مستعملي اللغة وسياقات الاستعمال. مراعاة ظروف استعمال اللغة الإنسانية. الاهتمام بمظاهر التأويل،... إلخ. ينظر: التَّداوليّات علم استعمال اللُّغة؛ حافظ إسماعيلي: ٢.

(٣٦٨) القاموس الموسوعي للتداوليَّة: ٢١.

(٣٦٩) اللغة والمعنى والسياق؛ جون لاينز: ٢٢٢.

(٣٧٠) التَّداوليَّة واستراتيجية التّواصل؛ ذهبية حمو الحاج: ١٣٠. وينظر: الذاتية في اللغة؛ إميل بنفنيست: ٦٤.

(٣٧١) يقول "جاك موشلر: "من مهامّ التَّداوليَّة أن تفسّر كيف يمكن للسامع أن يتوصَّل إلى فهم قول بطريقة غير حرفية، ولم اختار المتكلّم صيغة في التَّعبير غير حرفيَّة، بدل صيغة حرفيَّة. وبعبارة أخرى، فإنَّ مهمَّة التَّداوليَّة أن تصف، بواسطة مبادئ غير لسانية، عمليات الاستدلال الضَّروريّة للوصول إلى المعنى الذي يبلغه القول". القاموس الموسوعي للتداوليَّة: ٢٦. وينظر: المصدر نفسه: ٢٨. وفي مكان آخر يقول: "مهمَّة التَّداوليَّة الكشف عن عمليَّة التَّأويل التَّداوليّ". التَّداوليَّة اليوم: ٧٦، وينظر: النص والسياق؛ فان دايك: ٢٥٦.

(٣٧٢) التَّداوليَّة واستراتيجية التواصل؛ ذهبية حمو الحاج: ١٣٤. وينظر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان؛ أوزوالد ديكرو: ٦٩١.

(*) يقول "جيوفري ليتش": في مدار إعادة بناء الدلالة . التَّداولية "بأنَّ أفضل دور للمحلل التداولي هو أن يقوم مقام الملاحظ المتفرج..." مبادئ التداولية: ٢٠٢.

(٣٧٣) التَّداوليَّة: ٢٠– ٢١.

(٣٧٤) كذا في النص، ولذلك وضعتها بين القوسين.

(٣٧٥) التَّداوليَّة: ١٣٧. وينظر: المصدر نفسه: ١٨.

(٣٧٦) تقدم بنا القول إنَّ التَّداوليَّة المُدمَجة تقوم على مبدأ دمج مظاهر عمليَّة القول في الشفرة اللُّغويَّة/اللِّسان. أمَّا التَّداوليَّة العرفانيَّة، فتفترض أنَّ العمليّات المتصلة بمعالجة الأقوال، ليست من خصائص النِّظام اللُّغويّ، بل تتعلَّق بالنِّظام المركزيّ للفكر. ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٨٣.

(٣٧٧) ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٢١.

(٣٧٨) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٥.

(٣٧٩) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤٠.

(٣٨٠) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤١.

(٣٨١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٧. و٥٣٧.

(٣٨٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٧.

(٣٨٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٦.

(٣٨٤) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٧.

(٣٨٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٣، و٥٤١.

(٣٨٦) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤٠.

(٣٨٧) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣٧.

(٣٨٨) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠.

(٣٨٩) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤٧.

(٣٩٠) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤٨.

(٣٩١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤٨.

(٣٩٢) المصدر نفسه: ٢٢.

(*) يشير "هانز غادامير" إلى أنَّ فهم كيفيَّة الكلام، ليس "هو، حتَّى في ذاته، فهماً حقيقياً، وهو لا يتضمّن عمليَّة تأويليَّة، إنَّه فهم يتأتَّى من الحياة. ذلك أنَّك تفهم لغة ما عبر العيش فيها؛... وهكذا لا تعني المشكلة التَّأويليَّة بالتّمكن الصحيح من اللُّغة، بل ببلوغ فهم مناسب عن موضوع الكلام الذي يحدث عبر وسيط اللُّغة". الحقيقة والمنهج: ٥٠٧.